

من
تراب الطريق
(٥)

رجائي عطية

المكتبة المصرية الحديث

www.almaktabalmasry.com

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى ١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢ م

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشؤون الفنية

عطية ، رجائي .

من تراب الطريق / رجائي عطية . - ط ١ - القاهرة

: المكتب المصري الحديث، ٢٠١٢. مج ٥ : ٢٠ سم .

تدمك ١ ٢٢٧ ٢٠٩ ٩٧٧

١- المقالات العربية

أ - العنوان

رقم الايداع ٩٣١٣ / ٢٠١٢

لا يجوز إعادة نسخ أو طبع أو نشر هذا الكتاب أو أى جزء منه بأى طريقة كانت ميكانيكية أو إلكترونية أو التصوير أو التسجيل أو البث عن طريق الشبكات الإلكترونية أو غيرها إلا بموافقة المؤلف على ذلك كتابة ومقدمًا

• تصميم الغلاف : نادية شريف - كمال بهنساوي

المكتبة المصرية الحديثة

www.almaktabalmasry.com

ت: ٢٣٩٣٤١٢٧

ت: ٤٨٤٦٦٠٢

القاهرة : ٢ شارع شريف عمارة اللواء

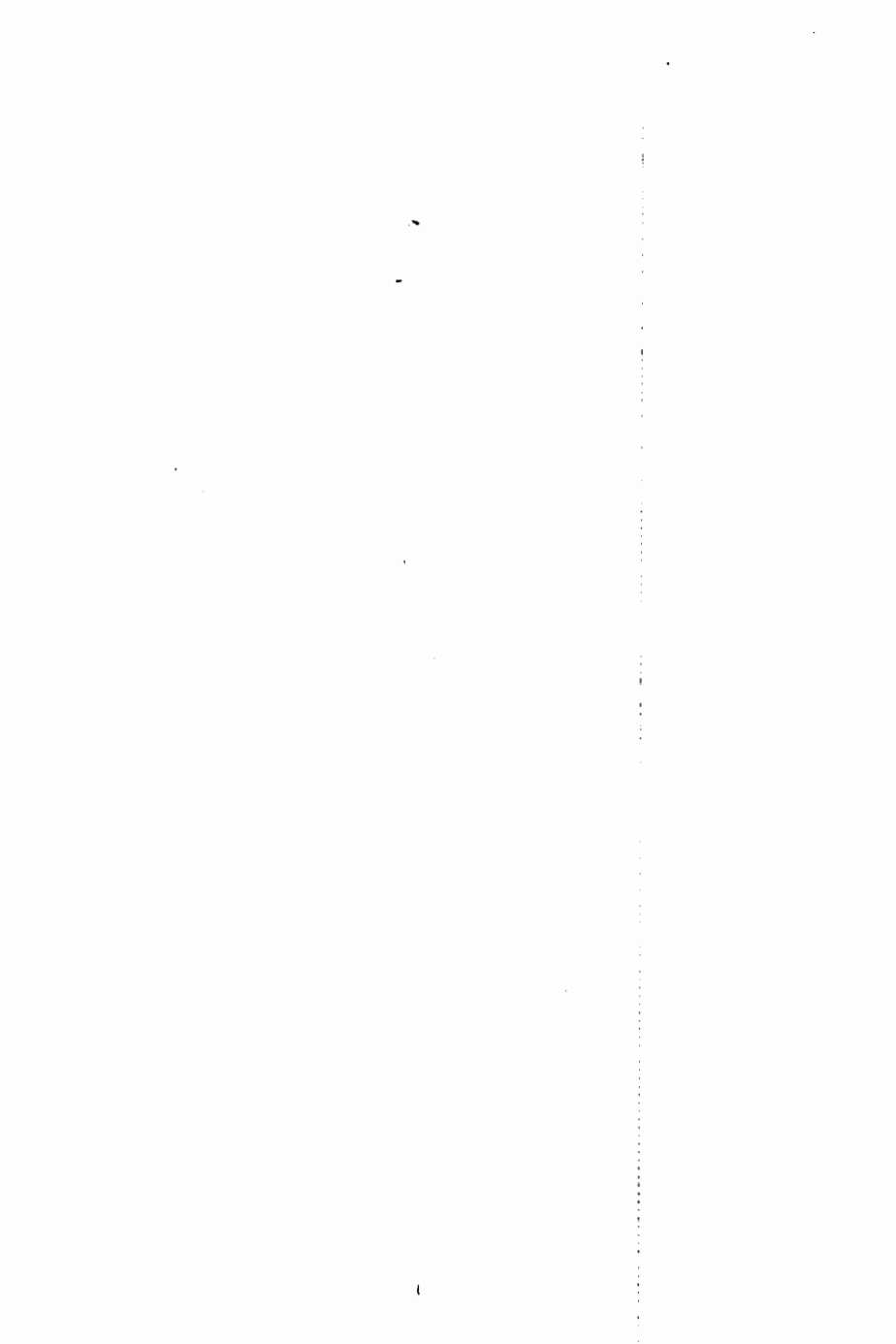
الإسكندرية : ٧ شارع نوبار المنشية

تقديم

هذه خواطر من القلب ، مجدولة بحب الوطن ،

معنية بهموم الناس في بلادنا .

رجائي عطية



من

تراب (٤٨٧) بين الثعالب والكلاب ! (*)

الطريق

العداء بين الثعالب والكلاب عداً قديماً ، تجرّى به الحكايات وتضرب عليه الأمثال ، ولكن الجاحظ كدأبه على الدوام ، يستخلص ما قد لا يراه سواه ، فيعقد فصلاً في كتاب «الحيوان» عن خبث الثعلب والكلب ، فيروى عن صديق صاحب صيد وقنص ، تعجبه من خبث الثعلب ! وكيف يتميز بخبثه فيفرق في احتياله بين الكلب والكلاب .. والكلاب هو صاحب الكلاب المعدة للصيد .. فيحتال الثعلب للكلاب بما يعلم أنه ينطلى عليه ، ولا يحتال بمثل تلك الحيلة للكلب ، لأن الكلب لا يخفى عليه الميت من المغشى عليه ، ولا ينفع عنده التماوت ، أى لا ينطلى عليه .. ولبراعة الكلب في هذا الباب فإن المجوس لا يحملون من مات منهم أو ظنوا موته إلى النار ، إلا بعد أن يدنوا منه كلباً ، ليعرفوا خبر موته من حياته ، لأن الكلب لا يخفى عليه مغمور الحس .. أحيى هو أم ميت . ولذلك فإن للكلب عملاً لدى المجوس يستدلون به عليه !

يروى صديق الجاحظ ، أنه هجم ومعه ابته على ثعلب في مضيق من المضائق ، فإذا بالثعلب ميت متنفخ ، فصد وانصرف عنه ، ولكنه لم يلبث أن لحقته الكلاب ، فما إن أحس بها الثعلب إلا ووثب كالبرق ، وأطلق سيقانه للريح !

(*) المال ٢٢/٩/٢٠١٠

سأل الجاحظ صديقه عن ذلك ، فقال له : « إن ذلك معروف من أفاعيل الثعلب ، وهو أن يستلقى وينفخ خواصره (بطنه) ويرفع قوائمه (أرجله) ، فلا يشك من رآه من الناس أنه ميت منذ دهر ، وقد تزكر بالانتفاخ بدنه (أى عظم وامتلاء) ، فكنت أتعجب من ذلك ، إذ مررت يوماً في الزقاق الذى فى أصل دار العباسة (ببغداد) ، ومنفذه إلى مازن ، فإذا جرو كلب مهزول سيئ الغذاء ، قد ضربه الصبيان وعقروه ، ففر منهم ودخل الزقاق ، فرمى بنفسه فى أصل أسطوانة (السارية أو العمود) فتبعوه حتى هجموا عليه ، فإذا هو قد تماوت ، فضربوه بأرجلهم فلم يتحرك ، فانصرفوا عنه . فلما جاوزوا (أى ابتعدوا) تأملت عيني الجرو .. فإذا هو يفتحها ويغمضها ، فلما بعدوا عنه وآمنهم على نفسه . عدا وأخذ فى غير طريقهم (أى جرى فى اتجاه آخر) »!

استأنف صديق الجاحظ يقول له : « فأذهب ذلك الذى شاهدته ما كان فى نفسى للثعلب ، إذ إنه ليس فى الثعلب إلا الروغان والمكر ليحيد عن طالبه ، فإذا بالكلب قد ساواه فى أجود حيله »!!

ولكن الجاحظ يروى فى موضع آخر : إخفاق الثعلب فى استعمال خبثه .. حين فوجئ فلم تتح له حيلة ، فقد كان من أمر الروم فيما روى الجاحظ فى كتاب الحيوان أنه لما تشاغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير ، واجتمع وجوه الروم إلى ملكهم يحرضونه على قتال العرب ، ويزينون ذلك بأنه قد أمكنته الفرصة من قتالهم وقد تشاغل بعضهم وانشغلوا بقتال بعض ، ووقع وتفشى اليأس بينهم ، ومن ثم فإن رأى أن يغزوهم فى بلادهم ، لأنه إن فعل ذلك نجح وانتصر عليهم ، وأنه لا ينبغي له أن يدعهم ، لأنهم حين

تنقضى الحرب التى بينهم سوف يستديرون وينقضون عليه !

ولكن ملك الروم لم ير ما يراه وجوه القوم ، وجعل يبين لهم خطأ رأيهم وفساد مشورتهم ، فأبوا عليه إلا أن ينتهز هذه الفرصة ويغزو العرب فى بلادهم وهم منشغلون بالقتال الناشب فيما بينهم .

فلما رأى ملك الروم لجاجة وجوه ملكه ، أمر بكليين فحرّش بينهما ، فاقتتلا قتالاً عنيفاً شديداً ، ثم أمر الملك بإحضار ثعلب فخلاه ، فما إن رأى الكلبان الثعلب ، حتى تركا للتو ما كانا فيه من عراك وقاتل ، وأقبلا على الثعلب يهاجمانه حتى قتلاه .

نظر ملك الروم إلى الثعلب الذى قتل دون أن تتاح له الفرصة للتماوت وصرف الخطر عنه ، ثم قال لوجهاء مملكته : كيف ترون ؟! فلما صمتوا ولم يحيروا جواباً ، قال لهم : هكذا العرب تقتتل فيما بينها ، فإذا رأونا نعرض لهم ، تركوا ما هم فيه واجتمعوا علينا !

تركت الثعلب ، وطفقت أتأمل فى حال العرب ، هل تغيرنا عما رآه فينا ملك الروم فى ذلك الزمان ، فوجدت أننا لا زلنا كما كنا من قبل ألف عام ، يصرفنا اقتتالنا عن عدونا ، مع أن العدو بادٍ ظاهر واضح لنا .. لا يترك حيلة هلاكنا إلا اتبعها ، بينما نحن غرقى فى عراك بعضنا لبعض ، لا نسمع حتى شذو عبد الوهاب الذى صدح به من أكثر من نصف قرن :

«إلام الخلف بينكم إلام : وهذى الضجة الكبرى علام ؟!!»

من تراب (٤٨٨) صناعة الأزمات ! (*) الطريق

يبدو أن إدارات هذا الزمان ، قد عافت فن تلافى الأزمات أو إدارتها والتعامل معها بما يصفوها إلى ما صار يُعرف بصناعة الأزمات . ومع أن أحداً لا يتصور أن تكون صناعة الأزمة هدفاً ، إلا أن تلافيف وتضاعيف ومشكلات العصر ، فضلاً عن الأغراض المتعددة ، قد دفعت إلى الساحة بأسلوب جديد مقصود يعتمد صناعة الأزمات لشد الانتباه إليها وصرف الأنظار في الوقت نفسه عما يراد صرف النظر عنه !

على أن صناعة الأزمات ليست بالبداية عمدية في كل الأحوال ، فمعظمها ناتج عن انحراف بوصلة الرؤية أو بسبب العجلة أو تواضع المعرفة وغياب الدقة والتدقيق وقصور الأداء أو غلبة الأغراض الصغيرة أو التراجع أمام أغراض أكبر .. وكما أن هذا القصور يتسبب ابتداء في صناعة الأزمة ، فإن أسلوب مواجهتها قد لا يخلو بدوره من زراعة أسباب أخرى تجدد الأزمة أو تستديمها بمظهر آخر . وما حدث ويحدث في أزمة بطلان عقد أرض «مدينتي» صورة مجسمة لأخطاء تراكمية من مخالفة القانون وخطأ تأويله وتطبيقه ، أو تراجع أمام ثقل المصالح ، مما شاب تعاقد الإدارة مع الشركة بعيوب وأخطاء أدت إلى حكم محكمة القضاء الإداري ثم الإدارية العليا ببطلان العقد بطلاناً دفع إلى الساحة بسلسلة من التداعيات التي مست حقوق ومصالح الجمهور الذي لا دخل له فيها وقعت فيه الإدارة

والشركة من مخالفات أدت إلى حكم البطلان .

ومن الغريب المحزن ، أن الدولة المصرية اشتهرت في السالف بانضباط وإحكام مدوناتهما القانونية والإدارية إلى حد التشدد فيما تجريه الحكومة وأجهزتها وإداراتها من تصرفات في أملاك الدولة ، محاطة بمشورة متوازية يبذلها ويرعاها مستشارو مجلس الدولة بدءاً من طرح المناقصة أو المزايدة ، إلى تقديم العطاءات ، إلى فض المظاريف ، إلى دراسة العروض ، ووزنها فنياً ومالياً ، قبل البت الذي أحاطه القانون المصرى بضوابط تضمن الشفافية وتلزم «الإدارة» بواجبها في احترام وحماية أموال وممتلكات الدولة وعدم تعريضها للتغول عليها ، أو الإضرار بها ، أو الاستيلاء عليها بغير حق .

جاء حكم محكمة القضاء الإدارى ، ثم حكم المحكمة الإدارية العليا ، ليميطا اللثام عن بطلان لحق بتعاقد الإدارة مع الشركة نتيجة أخطاء متراكبة تدهش من مرورها على كافة اللجان المتعاقبة انتهاء بقرار السلطة الأعلى ، وتدهش أكثر من أنها مرت أيضاً على المشورة القانونية التى يبذلها مستشار ذات مجلس الدولة الذى أصدر فى النهاية حكم البطلان !

ولم يختلف أحد على أن تداعيات الحكم بالبطلان تمس مصالح مواطنين حسنى النية أبرياء مما اعتور التعاقد ، وأن هناك تداعيات أخرى دفع بها إلى الساحة تحريض مستتر أو تهديد برىء أو خبيث من جرائر احتمال لجوء نحو ٤٠٠ مستثمر أجنبى من حملة الأسهم فى الشركة إلى التحكيم الدولى ، وما سوف يجره ذلك من إلزام الحكومة بدفع تعويضات هائلة إذا ما تجاسرت تنفيذاً واحتراماً للحكم وسحبت الأرض من الشركة ، هذا فضلاً عما سوف يلحق بالمتعاقدين مع الشركة من أضرار جسيمة عن أخطاء للحكومة لا ذنب لهم فيها !

وبرغم وضوح أن مخالفة القانون ، هى التى صنعت هذه الأزمة ، فإن الحلول التى طفقت تعرض للخروج من وهبتها ، قد جمع بينها مخالفة مركبة للقانون : الأولى تكمن فى إباحة الالتفاف وأياً كانت الأشكال والحيل على حكم القضاء ، والثانية الاستعداد للعبث بالتشريع ذاته للخروج من الأزمة التى تسببت فيها مخالفة القانون !

ولعل أخطر الاتجاهات التى اندفعت إلى الساحة ، هى الاستعداد لاستخدام العملية التشريعية للخروج من الأزمة ، فطفقت الأخبار المتسربة تشير إلى وجود اتجاه إلى تعديل فى قانون « المناقصات والمزايدات » ، بما يسمح بتدارك وتصحيح الخطأ القانونى ، وأن هذا الاتجاه يريد الترس بالنص فى التعديل التشريعى المرنو إليه على تحصينه بالنص فيه على عدم القابلية للطعن عليه أمام القضاء . ولا يتفطن هذا الاتجاه إلى أنه يشكل « صناعة » لأزمة جديدة تنطوى على إمعان صارخ فى إهدار الشرعية بما فى ذلك الشرعية الدستورية . فمن المعلوم أن الدستور يحظر النص على تحصين القوانين والقرارات الإدارية من رقابة القضاء ، ويكون النص على ذلك فى القوانين معيياً بعدم الدستورية ، وهو هو ذات ما يعيب أى قانون يفقد صفة العمومية والتجريد ، ويصاغ لحالة معينة بعينها ، وبذلك يكون التعديل التشريعى المقترح منطقياً على مخالفة مزدوجة للدستور ، تعييه بعدم الدستورية من ناحيتين ، مما يرحل الأزمة ترحيلاً ظاهرياً ولا يحلها ، بل يفرز إلى الساحة أزمة أخرى جديدة بخليط من الالتفاف احتيالا على أحكام القضاء ، والعبث فى العملية التشريعية بإهدار مبدأ العمومية والتجريد ، ومخالفة دستورية أخرى هى النص على تحصين التعديل التشريعى المقترح من رقابة القضاء ، وهو ما لا يبيحه الدستور !!

ولست أعرف مع كتابة هذه السطور ، ماذا سوف تنتهى إليه المشاورات ،
والتي لا بد قد نبهت إلى المخالفات الدستورية التي تعيب التعديل التشريعى
المقترح ولا أعرف إلام سوف يصير الاقتراح الجديد بتنفيذ الحكم القضائى
حكماً مع إبقاء الأرض تحت سيطرة الشركة ، وإلغاء البيع الذى تم بالعقد
الباطل المؤرخ ٢٠٠٥/٨/١ وملحقه المؤرخ ٢٠٠٥/١٢/٢١ ، واعتبار
هذا الإلغاء تنفيذا للحكم ، ثم إعادة التصرف بالبيع إلى ذات الشركة بالأمر
المباشر استناداً فيما يقال لاعتبارات اجتماعية اقتصادية تقتضيها المصلحة
العامة . ولم يبين الاقتراح بم سوف يتم البيع (الجديد) بالأمر المباشر ، هل
بسرع الأمس « المجانى » الذى لم تتقاضى الحكومة له ثمناً وقت إبرام العقد
الباطل وملحقه فى عام ٢٠٠٥ ، أم بسرع آخر وما هو وضوابط تقديره ،
حيث إن البيع بالأمر المباشر فى حالة الضرورة الملجئة لا يعنى تحليل القرار
الإدارى من ضوابطه واجبة الالتزام ، ومنها حق كل الراغبين فى المنافسة
والتقدم بعبءاتهم ، ومنها أيضاً سعر البيع ، سواء تم البيع بمزايدة أم بالأمر
المباشر ، فالإجازة هنا هى فقط بشأن طريقة التصرف دون أن تعنى التحلل
من إجراءاته وضوابطه . وها أنت ترى أن البيع الجديد المقترح إبرامه بالأمر
المباشر يحمل نذر صناعة أزمة جديدة لا يمكن التنبؤ سلفاً بعواقبها ، ولا
بارتضاء جميع الأطراف ذات الشأن لما قد تراه الحكومة خروجاً عن هذا
الطريق من المأزق الراهن ! فذات الشركة المروم إخراجها من الأزمة ، عادت
بعد أن لوحت بلبجوء المساهمين الأجانب فيها إلى التحكيم الدولى ، عادت
لتلوح الآن بأنها لن ترتضى كذا ؟! غير السعر (المجانى أو المؤجل) بالتعاقد
المحكوم انتهائياً ببطلانه ! أرجو فقط أن نعمن النظر فى الحلول المقترحة حتى
لا نندفع إلى « صناعة » أزمة أخرى قد تكون أشد ضرراً وأوسع نكيراً !!! .

من تراب (٤٨٩) صناعة الاحتقان ! (*) الطريق

لا يكاد يمضى يوم فى مصر المحروسة ، إلا وتُفتعل بالوعى وباللاوعى أسباب للاحتقان الطائفى ، يتغذى على ضيق الصدور وغيبة الوعى وتجذر التصلب والتطرف ، وتلمس أى حدث أو حديث لصناعة الاحتقان وإشعاله إلى حد الاشتباك !

لا يقتنع أحد بأن المسيحية لن تضار إذا أسلم مسيحي أو مسيحية ، ولا بأن الإسلام لن يضار إذا تنصر مسلم أو مسلمة ، ولا يرى أحد أن أعداد كل من المسلمين والمسيحيين هائلة تملأ قارات الدنيا الخمس ، ولن يضير أيا من الدينين أن ينقص واحداً أو أكثر ، هو فى النهاية لا رجاء فيه لدينه الأول مادام قد غيره واستبدله بآخر ، ولا يعى الاحتقان أن قيمة أى دين فيه لا يهزه ولا ينال منه خروج أو انحراف واحد أو أكثر من بنيهِ .. فخطأ المسلم إن أخطأ مردود إليه لا إلى الإسلام ، وخطأ المسيحي إن أخطأ مردود إليه لا إلى المسيحية .. ومنذ فجر الأديان ، ولأن أخطأ مسيحيون وأخطأ مسلمون ، فعلق بالمخطئ خطؤه ، وانحصر عيبه فيه لا فى الدين .

ووسط هذا الاحتقان الذى يشعله المتصلبون ، جمحت آراء وتصريحات تجاوزت كل الحدود ، وشاع التربص لالتقاط عبارة أو إيحاء أو رأى ، والمسارعة به إلى النيابة العامة وإلى موجات الأثير وشاشات الفضائيات والأرضيات وصفحات الصحف ، وتعددت البلاغات باتهامات صارت

محفوظة بازدياء الأديان .. ولم يعد أحد يطبق نقداً ولا رأياً ولا نقاشاً ..
وتجاوز البعض إلى الدخول في مناطق محظورة أو مسكوت عنها ، وضاعت
الصدور حتى بلغت القلوب الحناجر ، وصار هذا الاحتقان ينذر بشر
مستطير على أمان الوطن ووحدة نسيج شعبه !

من الطبيعي أن يؤمن كل متدين بدينه ، وأن يكون له تحفظه أو تحفظاته
على ما سواه .. ولكنها تحفظات عقيدية مردها إلى عقيدة صاحبها ، وحوار
الأديان لا يسعى إلى إلغاء العقائد ، فهذا محال ، وإنما إلى بث الفهم والإسماح
والتعايش القائم على تفهم أن من حق كل متدين أن يؤمن بدينه وأن يؤدي
عبادته وطقوسه ومناسكه ، وأن يلتزم بحدوده ، دون أن يفرض على
الآخرين ما يراه ، أو يخرج على النظام العام للمجتمع ، وهذا النظام العام
محصلة روافد عديدة منها الأديان ، ويشكل في النهاية مفهوماً عاماً على
الجميع احترامه أيّاً كان جنسه أو دينه أو حزبه أو تفكيره .

والخطأ وارد على المسلم وعلى المسيحي ، ولن يتوقف الخطأ أو يقلع
الناس عنه .. لأنه جزء من الضعف البشري ، وهو قدر على الجميع ..
حتى قيل في حديث لرسول الإسلام عليه الصلاة والسلام : « كل ابن آدم
خطاء ، وخير الخطائين التوابون » .. ومع أن الإسلام لا يتحرج من نقد بل
ومساءلة من عساه يخطئ من بنيته أو شيوخه ، ولذلك وقائع محددة جرت
المساءلة عليها في المؤسسة الأزهرية .. ومع أن الكنيسة المصرية لم تتوقف
عن مراجعة ومساءلة من عساه يخطئ من بنيها أو قسيسيها ورهبانها ، إلا أن
ثقافة الاحتقان شاعت واستشرت حتى عُدَّ نقد الخطأ الشخصي مردوداً على
ديانة صاحبه ، وهذا ضيق نظر خطير .. لا يقره الإسلام ولا تقره المسيحية ..

من أكثر من نصف قرن تفجرت أزمة هائلة تناقلتها الصحف في مصر بلا أى تخرج .. مع أنها كانت تمس ما قيل إنه سلوكيات خاطئة لشيخين يعملان بالقضاء الشرعى .. ولم تكف الكنيسة المصرية وإن آثرت المعالجة سراً لم تكف عن مساءلة بل ومحاكمة وشلح من عساه يخطئ من بنيها .. ولكن روح الفهم والإسماح قد غابت تماماً مع استئراء الاحتقان وشيوع التبرص مقرونا للأسف برغبة في الصدام !

.. فأين نحن مما سمعته في الإذاعات الأجنبية ومنها إذاعة الـ BBC ، وقرأته على المواقع من تصريحات لبابا الفاتيكان نشرت في مايو ٢٠١٠ بأن «الخطيئة داخل الكنيسة أكبر خطر يهددها» .. ولم يتخرج بابا الفاتيكان : بنديكتوس السادس عشر ، من إصدار بيان أذيع بالإذاعات والفضائيات ، ونشر بالصحف والمواقع يدعو فيه إلى «الصفح» عن الفضائح المتعلقة باستغلال الأطفال في الكنيسة الكاثوليكية ، واعدأ في قداس عُقد بحضور حوالى ١٥ ألف كاهن في ساحة القديس بطرس .. بأن الكنيسة ستبذل كل ما يوسعها «لكى لا تتكرر أبداً التجاوزات الجنسية «بحق الأطفال» من قبل رجال الكنيسة .«وسبق هذا البيان رسالة رعوية كتبها بابا الفاتيكان في مارس ٢٠١٠ للاعتذار عن جميع الانتهاكات الجنسية التى قام بها رجال الدين الكاثوليك بحق الأطفال ، ونشرت الصحف والمواقع أنباء القضايا الجنائية والتحقيقات التى أجرتها الحكومة الأيرلندية وأثبتت أن المئات من الكهنة قد اعتدوا على الأطفال على مر العقود السابقة ، كما نشرت المواقع والإذاعة البريطانية BBC أنباء الاعتداءات الجنسية على الأطفال في بلجيكا ، كما نشرت المواقع أنباء أمثال هذه الاعتداءات الجنسية التى حدثت

في عدة أبرشيات في سيدنى وسانتا في دى لافيرا كروز وغيرها بأستراليا ،
وفي أبرشية الكاثوليك في ملبورن ، وأبرشية فيينا بالنمسا ، وأبرشيات في
بلجيكا ، وأخرى بكندا وكرواتيا ونيوزلندا والمكسيك وبولندا والسويد
وسلوينيا والمملكة المتحدة ، وفي أبرشيات بوسطن وشيكاغو ودانفورت
ووديوك وهونولولو وميامي وأوماها وأورانج وفينكس وسان دييجو
وغیرها بالولايات المتحدة .. مما دعا بابا الفاتيكان إلى إصدار رسالته الرعوية
في مارس ٢٠١٠ ثم بيانه في مايو ٢٠١٠ بالاعتذار وطلب الصفح عما لحق
بالأطفال من اعتداءات جنسية من رجال الكنيسة الكاثوليك .

ولم يقل قائل ولا متقول إن بابا الفاتيكان قد ازدري الدين المسيحي
بتعرضه الصريح لمشكلة كنسية لم يعد من المقبول السكوت عنها ! ولا
قاضي أحد الإذاعة البريطانية BBC أو غيرها من الإذاعات والفضائيات
والصحف والمواقع على نشرها أنباء هذه الاعتداءات أو اعتذارات بابا
الفاتيكان عنها !

فلماذا انطلقت الحساسيات وصرنا نصنع الاحتقان ونفتعل الأزمات في
بر مصر ؟!!

من

تراب

الطريق

(٤٩٠) بيع الذات! (*)

أقضى مضاجع الوطن ، وأضنى مشاعر المواطنين ، الوقائع التى تفجرت وانكشفت فيها تجارة بيع الأطفال ، وهى نذير شؤم بالغ الخطر .. على أن هناك تجارة أخرى لا يلتفت إليها أحد ، مع أنها لا تقل المصيبة فيها عن مصائب بيع الأطفال ، هى تجارة «الذات» أى بيع «النفس» .. وبيع النفس هو تجارة قديمة جديدة ومتطورة ، تنصرف بضاعتها المعروضة أو المباعة ، إلى الفكر والموقف والرأى .. وقد راجت هذه التجارة وتفتشت وصار لها رواد وأتباع وسماسرة وأشباع ، يبيعون الفكر والموقف والرأى بأبخس الأثمان فى سوق النخاسة !!

لقد أدت هذه الظاهرة إلى ما أطلقت عليه فى مقال بالأهالى ١٨ / ١ / ٢٠٠٦ : « انبطاح الرجال » .. وهو تعبير مجازى يومئ إلى النفاق والرياء والتزلف ببيع الرأى والموقف ، بإبداء المطلوب المرضى لا الواجب وإن لم يرض ! صاحب الرأى صاحب عقيدة لا يفرط ولا يدهن فيها ، ولا يبدى سوى ما يعتقد أنه الحق والصواب الذى يؤمن به ويعتقده ويدافع عنه مهما كلفه ذلك من عناء أو عرضه لمشكلات وأخطار .. لا يساير ولا يهاشى ولا يرائى ولا يتزلف ، فذلك خداع وغش وتدليس آفته وأخطاره أفدح من تطفيف الميزان .. فالتطفيف فى الموازين فعل مادى فى تناول الاكتشاف والصبط ، أما

(*) المال ٢٩ / ٩ / ٢٠١٠

المختاتلة فى الرأى فهى مختاتلة معنوية مغلفة دائما بادعاء الأمانة والمصدقية ، وقد تنطلى على المتلقين .. سيما إذا كان المنطلى من ذوى الكفاءة أو الحيشة أو المكانة أو الألقاب ، أو كان يحمل فى السالف تاريخاً ناصعاً قبل أن تزحف عليه عوامل الانبطاح والتزلف والرياء والنفاق !!

مؤدى هذه الآفة الخطيرة ، أن بوصلة الوطن تتعرض للاختلال الشديد فى تشخيص المشاكل ودراسة القضايا وطرح الحلول .. الدواء يتحول من ترياق إلى سم زعاف إذا أخطأت أو ضلت أو ضللت بوصلة التشخيص .. وقد احتاط العلم لاحتمالات قصور عرض المريض لمظاهر ما يعانیه ، بالأجهزة التقنية التعويضية التى ترصد بالأشعة بمختلف أنواعها التى لا تكف عن الابتداع والتطور ، والتحليلات المختلفة للدم والبول ونواتج التنفس وطارادات البلغم حتى تكتمل الصورة المرضية تماماً للطبيب فلا يخطئ التشخيص ، ومن ثم لا يخطئ العلاج ووصف الدواء !

كارثة كبرى على الوطن ، أن تنفشى هذه الظاهرة المرضية فى النخبة التى تمثل عصب وعقل وفكر الوطن .. مؤداها أن تعيش الإدارة والناس فى وهم كبير ، وأن يروا حالاً غير الحال ، وحلولاً غير الحلول !!

ظنى أن معظم البلاء الذى أصاب ويصيب بلادنا يأتى من المنبطحين نفاقاً ورياءً وطلباً للرضا والزلفى ، واستهدافاً لأغراض ومصالح قصيرة لا تدرك ولا تعى أن المكاسب الصغيرة ربما تحولت فى نهاية المطاف إلى خسائر فادحة !

كان سيد درويش يغنى من نحو قرن من الزمان من كلمات بديع خيرى :
علشان ما نعلی ونعلی ونعلی لازم نطاطی نطاطی نطاطی !

من الغريب أن بيع «الذات» قد صار تجارة شائعة بين بعض النخب ،
وبين ذوى المال واليسار ، وبعضهم لديه الأصل والحسب والنسب ، ومنهم
من يتمتع بعلو المنزلة والمكانة في عيون الناس ، ولكنهم يهجرون الوقار
واحترام الذات حين يعرضون بضاعتهم المردودة إلى «ذواتهم» للبيع في
سوق النخاسة .. فيزينون الآراء المغلوطة ، ويرأون بالحلول المرضية وإن
أدت في النهاية إلى الجحيم ، ولا يبالون في بيع «ذواتهم» أن يرخصوا في عيون
الناس ، تراهم منتفخي الأوداج ، يتصدرون المواكب في الاحتفالات وفي
الجنائزات ، يختالون كالطواويس ، يظن الواحد أنه قد امتلك الدنيا بقبضة
يده ، ويقودهم منطق «النعمة» إلى العماء الضرير ، فلا يرون أن الكل يرى
رأس النعمة التي أخفقتها في الرمال ، وأن المفقود الوحيد هو حاسة «الرؤية»
و«النظر» و«التفطن» التي نسفتها النعمة حين غرزت رأسها ودفنتها بداخل
الرمال !

ومن اللافت أن «تجارة الذات» .. قد صار لها سيطرة ومحرضون ،
يخصص بعضهم «ركنا» دائماً في الصفحة الأولى لجريدة مفترض أنها قومية ،
أى ملك للوطن والمواطنين ، ليبدى الضيف في هذا «الركن» وهو صاحب
حيثية جامعية أو وظيفية أو نخبوية أن مصر لا تحتاج إلى كذا وكيت ، وإنما إلى
كيت وكذا ، ويلقى بحكمته البتراء مشيراً على الناس بما يجب أن يكون ، ولا
يدري المحرّض والمحرّض أن القراء يضحكون ساخرين بداخل أو خارج
أكمامهم من هذا النفاق الرخيص ، والمغالطة الممجوجة ، والتي لا تنطلي
حتى على ملقيها الذي يعلم هو ومحرضه أن ما يلقي إلى الناس كذب ونفاق
مفضوح !!

لقد تسللت هذه الظاهرة المرضية إلى دوائر صنع القرار ، وإلى دوائر صناعة التشريع ، وقد أدى ذلك إلى أحكام متوالية لا حصر لها قضت فيها المحكمة الدستورية بعدم دستورية قوانين كانت حصاد هذا النظر الضير ، وأحكام متعددة لمحاكم مجلس الدولة ببطلان قرارات وتعاقبات كان انفلاتها وفسادها هو الحصاد الحتمى لبيع الذات .. بما استتبعه من ضياع الشفافية وإهدار القوانين والمصالح الوطنية سواء بسواء !

مؤسف حتى النخاع أن تصير «الذات» سلعة تباع وتشتري في سوق النخاسة بأبخس الأثمان !!

من تراب (٤٩١) ما بعد حرق الزرع جيرة !! (*) الطريق

المفترض في المفاوضات ، أى مفاوضات ، أنها تتغيا الوصول إلى صيغةٍ يرتضيها المتفاوضون ، ومن المحال أن يرتضى المتفاوضون حلولاً جانحة تميل على طرف لحساب آخر ، فتفقد «العدل» وهو أساس الرضاء والتفاهم والتراضى .

والمفاوضات المباشرة التى دُفِعَ الفلسطينيون للالتقاء فيها مع الإسرائيليين ، تفترض أن غايتها سلام عادل يرتضيه الطرفان ، يرتفع به السلاح ، ويرفع غصن الزيتون ، وترفرف حمامة السلام ..

لذلك فلا معنى للمفاوضة إذا تضمن موقف أحد الطرفين المصادرة المسبقة على المطلوب . ومن هنا لم أفهم ولا أظن أن أحداً يمكن أن يفهم كيف تجرى مفاوضات ويقبل الفلسطينيون المضى فيها ، بينما تتمسك إسرائيل بيهودية الدولة ، وبوقف تجميد بناء المستوطنات . إن التمسك بيهودية الدولة معناه تكريس للعنصرية وإهدار تام لحقوق الفلسطينيين الباقين فى إسرائيل ، وتغليق الأبواب فى وجه أصحاب الحق فى العودة إلى ديارهم التى طردوا منها . والغريب أن يلقى هذا التعصب الضريع قبولاً من الولايات المتحدة التى لم تجد أى غضاضة فى أن تعلن أنها تفر «يهودية» إسرائيل .. فماذا لو حذت دول العالم حذو إسرائيل ، فأعلنت كل دول أوروبا

الغربية والشرقية ، وبها أغلبية مسيحية «مسيحية» الدولة ، وحذت حذوها دول الأمريكتين ، ورأت الدول ذات الأغلبية الإسلامية أنها لا يجوز عدلاً أن تتخلف عن مجارة ذلك ، فأعلنت كل منها بدورها «إسلامية» الدولة ، ليتحول العالم كله إلى دول «مسيحية» ودول «إسلامية» ، لا لشيء إلا لأن الكيان الإسرائيلي ، وهو الوحيد في العالم الغالب فيه اليهود ، يريد إشهار «يهودية» الدولة ، وتكريس زرع العنصرية الدينية التي سوف يعانى العالم كله من ويلاتها إذا تركت إسرائيل وما تريده !!

والغريب جداً أن ينفى محمود عباس الرئيس الفلسطيني المنتهية ولايته أن يكون قد اعترض على طلب سلطات الاحتلال الاعتراف بـ «يهودية» إسرائيل ، وتطوع سيادته فأبدى لا فض فوه ! خلال لقائه بقيادة اللوبى الصهيونى وجمعيات أمريكية فى نيويورك أبدى أن من حق إسرائيل أن تسمى نفسها بما تشاء لأن ذلك شأن إسرائيل داخلي لا يهم سيادته ! وزاد فأجاب بالإيجاب عن سؤال عما إذا كان الفلسطينيون سيؤيدون قراراً من الكنيست بإعلان إسرائيل دولة يهودية ، وقال بالفم المليان : نعم !!!

وفى الوقت الذى يطلق الرئيس الفلسطينى هذه التصريحات الخائبة ، فإن ليبرمان يدعو لبحث ترحيل «عرب ٤٨» ، وكان نتن ياهو قد صرح مراراً أنه يجب على الفلسطينيين التخلي وصرف النظر عن حق العودة إلى ديارهم !!! على أن الولايات المتحدة لم تجد ولا من يوالونها ، ذريعة أو تعلقة لإقرار «الاستيطان» أو الدفاع عن المضي فيه .. فالاستيطان تكريس صريح للاحتلال المتغيا بالمفاوضات الإقلاع عنه ليكون للفلسطينيين دولتهم على المتبقى لهم من وطنهم الذى اغتالته الصهيونية . فكيف يتفاوض الفلسطينيون على

استرداد أراضيهم المحتلة وإقامة دولتهم عليها ، بينما إسرائيل ماضية في بناء المستوطنات على ذات الأرض المفترض أن تقوم عليها الدولة الفلسطينية حسبما يقال إنه هدف المفاوضات المباشرة لإمكان إحلال السلام ؟!

لقد توالى «المناشدات» لإسرائيل ، وآخرها من الرئيس أوباما في خطابه من أيام أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة ، أن تمد تجميد لا إلغاء !!! بناء المستوطنات ، وحاذها تصريحات ومناشدات متعددة صادرة من الرباعية الدولية ، وسكرتير عام الأمم المتحدة ، ومن رؤساء الدول الغربية الكبرى ، ترجو إسرائيل وتمعن في الرجاء أن تفضل بمد «تجميد» بناء المستوطنات ، لأن رفع «التجميد» واستئناف البناء ينسف المفاوضات نفس ويفرغها من أى مضمون أو غاية يرتضيها العقلاء !

ومع أن الرئيس الفلسطينى قد انزلق إلى التصريح بأن «يهودية» إسرائيل شأن داخلى لها لا يعنيه ، ولم يعترض هكذا !! عليه ، إلا أنه لم يجد بداً من التصريح بأن استئناف العمل بالمستوطنات يعنى نفس وإنهاء المفاوضات فوراً !

واعترض الرئيس الفلسطينى ، يراه معه العالم بأسره ، إلا إسرائيل .. وهى لا تعدم تسريب التعلات بأن نتن ياهو لا يستطيع اتخاذ هذا القرار وإلا انفجرت ائتلافه الحكومى ! فإذا كانت هذه «التعلة» صادقة ، فإن معناها أعمق وأدهى وأخطر ، وهو أن المجتمع الإسرائيلى برمته مجتمع حرب لا يرتضى السلام .. ما دام لا يرتضى التوقف عن الاستيطان ويستمرئ استمراره فى الأراضي المحتلة المفترض أن تعاد إلى الفلسطينيين لتقام عليها دولتهم الموعودة !

وهذا التعلل بالتيارات الإسرائيلية المعارضة لتجميد الاستيطان ، يكشف للمشكلة أبعاداً أعمق وأخطر يغدو معها الاستمرار على طاولة المفاوضات المباشرة أو غير المباشرة ، نوعاً من الخبل والخرف والهطل والبلاهة ، فضلاً عن التفريط ! لا تملك إلا أن تتابع مدهوشاً المناشدات والرجوات العالمية الموجهة إلى إسرائيل ، ومن الولايات المتحدة ولىة نعمتها فضلاً عن الدول الغربية الكبرى ذات الأثر ، بينما تتمنع إسرائيل ، ولا تعطى سوى أذن من طين وأخرى من عجين ، ومع ذلك لا تزال النوايا العربية الحسنة أو الغافلة آملة لماذا لست أدري ، فى أن تنتج المفاوضات حلاً برغم هذه المصادرة التى لا تبذل إسرائيل أى جهد ولو لمداراتها !!

أيها السادة .. لا معنى للتفاوض إذا أصرت إسرائيل على «يهودية» الدولة وعلى استئناف الاستيطان . بل لا معنى للتفاوض ما لم تقلع إسرائيل إقلاًعاً واضحاً عن سياسة الاستيطان التى لا معنى لها سوى تكريس الاحتلال وفرض إسرائيل فرضاً على كل فلسطين التى سوف تصير أثراً بعد عين ، بل أطلالاً لوطن كان قبل أن يغتاله أبناء صهيون !

أيها السادة . لن ينال السلام من لا يكون قادراً على الحرب !!

من تراب الطريق (٤٩٢) صناعة القبح ! (*)

من المؤسف أن يشيع ويستشري القبح المادى والمعنوى حتى يصير صناعة ، لا يلتفت صناعتها إلى ما فيها من دمامة !

لا تدرى حين تحيل نظرك فى ربوع بلادنا ، وفى أحوالها ، كيف ومتى فارقنا صناعة الجمال التى بدأ أسلافنا فى الاهتمام بها من زمن ، بتجميل ما استطاعوا تجميله فى البلدان والأحياء والمرافق والحدائق ، برغم الاحتلال وضيق الإمكانيات ، مع اهتمام إلى آخر مدى باحتضان القيم النبيلة وبثها للأجيال فى الأسر وفى المدارس والمعاهد والمعامل والمصانع والجامعات .. لا أدرى متى وكيف جعل «القبح» يتسلل إلى بلادنا وحياتنا .. فحب الجمال طبيعة إنسانية ، ومجافاة القبح طبع إنسانى أيضا .. ربما بدأ الداء الذى استشرى بفقدان الانتباه والإحساس بالقبح الذى جعل يتسلل شيئا فشيئا حتى صار واقعاً ضخماً يكاد يطاول الجبال ، فلما طال التعايش معه حلت العادة محل النفور ، وصرنا لا نحسه وربما قبلناه واستغنينا وامتصصناه وعدنا فأفرزناه .

ربما كان القبح المادى هو الأسهل فى التعامل معه وتفادى أسبابه وعلاجه ، فلا عليك إلا أن تحبى القيم الجمالية التى كانت تدرس فى المدارس وتطبع على الأغلفة الخلفية للكراسات وتلقى مع الأناشيد وتحية العلم فى

طابور الصباح ، وأن تؤدي الأجهزة المحلية التي ترهلت وفارقت من زمن بعيد ما كانت تنهض به في صمت وبلا افتعال ولا ضجيج : الشئون البلدية والقروية ، وأن نهتم ببث القيم الجمالية في إصداراتنا الإعلامية والثقافية ، وتكريسها في عاداتنا السلوكية .. وحماية الأماكن النادرة ! التي لا زالت تحتفظ بجمالها أو ببعض جمالها الذي كان ، حمايتها من زحف القبح وأكوام القمامة والقاذورات ، وضمان متابعة جادة للسلوك الذي يشذ عما تستلزمه المحافظة على القيم الجمالية ونظافة بلادنا .

على أن القبح المعنوي آفته وأمره أثقل وأمض .. لا يتوقف هذا القبح عند محض «الصور» المرئية أو المسموعة التي تطالع عيوننا أو تصافح آذاننا دون أن تحرك فينا نفورا حين نراها في الفوضى والقذارة وفي العشوائيات والطرق والمرافق ومقالب القمامة وغيرها ، وإنما ما أعنيه بالقبح المعنوي هو ذلك المتمثل في مجافاة قيم الصدق والبر والأمانة والزهد والوقار والإخلاص والجدية والطهر والعفاف والاستقامة والشفافية .. هو ذلك القبح المتمثل في انحراف السلوك وبيع الذات والنفاق والرياء والتزلف والمداينة .. في إنكار الحق والتهيب بالقوة والسلطة والجأء ، والاستقواء على الفقراء والضعفاء .. في استسهال الكذب والتفاهة والسطحية والموارة والفهلوة والدياجوجية والانحصار المريض في انحيازات الذات وفي شهوات ومآرب النفس .. في انعدام الإحساس بالأغيار والافتئات عليهم .. في اختلال لغة الخطاب وتفشى العريضة والانتهازية وضلال الكلمة والجري وراء أطماع الذات والانتصار لها مهما جمحت أو اختلت ولو كان من بعدها الطوفان !

حين ذلك يتسمم الهواء نفسه ، ويستحيل على الناس أن يتنفسوا هواءً نقياً .. وتخيّم مظاهر القبح وسُحبه وأنفاسه على الحياة ، فتضرب الرؤية مع الإحساس الممض بالاختناق !

قد لا يُعنى مرضى القبح ، وهذا هو الغالب ، بعلاجه فيهم ، ولكن الأدهى أن تفوت ملاحظته والالتفات الجاد إليه على المتعاملين معهم أو المحتكين بهم .. مؤدى ذلك أن يصل الانحراف إلى غايته ، وأن يحقق بالخدعة والمكر والوصولية والمداينة ، ما لا يتحقق للفضيلة ومكارم الأخلاق والسلوك .. سيادة القبح ونضوب القدرة على ملاحظته ، نذير شؤم يعدم الأمل في الإصلاح الذى يعتبر الإنسان ذاته وسيلته وأداته الفاعلة !

واستساغة القبح ، وعدم الالتفات إليه ، هبوط فى الطاقة الروحية للآدمى ، يتسلل تدريجياً وبحكم الاعتياد فيحتل مجمل الصورة وحنايا الشعور .. والتبرير من وسائل إخفاء عدم الالتفات للقبح ، والتبرير الذى أعنيه كذب ولكن فى اللا وعى ، يصنّفه علماء النفس فيما يسمى «بالحيل والآليات الدفاعية» ، لأنه كذب على النفس ومداراة لما لا تحب أن تواجه نفسها به .. فتحال لتبريره باختلاق التعلات والمعاذير .. حتى تجد للقبح أو للخطأ مبرراً .. وتبرير الخطأ إغراق فيه يغلق كل أبواب أو منافذ الشفاء منه !!

فإذا كانت الطاقة الروحية هى الأمل فى تجاوز ما نعانیه ، فإن من المؤسف أنها بدورها معطوبة بالتفاف القبح عليها ، وجريان الخلط بين المبادئ والمآرب ، أو بين الأهداف والوسائل .. غدا لدى البعض أن الغاية تبرر الوسيلة ، ومع أن ذلك كان له هدف خاص فى كتابات مكيا فيلى فى كتابه

«الأمير» ، إلا أن المؤسف أن هذه المقولة جعلت تتسلل إلى الدعوات ، وهي
الأمل في إحياء القيم وبعث الطاقات الروحية ، وإخراج الأداء الآدمي من
وهدة السقوط القبيح ، إلى قيم الحق والعدل والإنصاف والجمال !

من تراب (٤٩٣) في بلاط الأسد ! (*) الطريق (١)

طفق «دمنة» يروى للأسد ، وقد كاد له الأعداء لديه ، ما كان من أمر المرأة والمصور والعبد ، وما انتهى إليه أمر المصور الماهر المولع بالتصوير من ندم على ما فعل ، فلما فرغ دمنة من حكايته التي جعل بيدبا الفيلسوف يسوقها لدبشليم الملك ، استأنف دمنة يخاطب الأسد : ملك الغابة ، قائلاً : «إنما ضربت لك هذا المثل أيها الملك لتعلم أن الشبهة كذب ، وأن الكذب يعيب صاحبه . ولست أنت حقيقاً بقتل البريء ذى الصحبة لو شئ الوشاة وتحامل الخونة عليه . ولست أقول هذا أيها الملك كراهة للموت . فإن الموت وإن كان كريهاً إلا أنه لا منجى منه ، وكل حتى ميت .. ولو كانت لي مائة نفس وأعلم أن رضا الملك إتلافهن (قتلهن) لطبت له يهن نفساً وإنى وإن كنت أعلم أن الله باعد الملك من الجور والاعتداء وإهلاك النفس البريئة بوشى الأشرار ، فإنى أحب أن لا يعجل الملك بأمر دون الفحص والتروى» .

وبينما يبدى «دمنة» معذرتة ، اعترض أحد جلساء حاشية الملك فقال للأسد : «أيها الملك ، إن دمنة لا يقول ذلك تعظيماً لحق الملك . ولا توقيرا لفضله ، ولكنه يريد أن يدفع عن نفسه ما قد نزل به من سوء عمله» ! ولكن الله ألهم دمنة الصواب ، فأفحم الدسّاس وألزمه الصمت فخرج يجر أذيال الخيبة .

ولكن أم الأسد انبرت لدمنة ، تسفهه وتشجبه ، وتستعدى ملك الغابة عليه ، وتصفه بالفاسق الخائن الفاجر ، وتحض الأسد على قتله ، ففى ذلك راحة للملك وجنوده ، فيأخذ عليها دمنة أنها ترى بعين واحدة ، ويرد على دعوها بحجج أشد ، ختمها بقوله لأم الأسد : « إن الكاذب من كافأ الإحسان بالإساءة ، والخير بالشر ، والأمن بالخوف . أما أنا فقد أنجزت ما وعدت ووفيت العهد » .

هنالك أرادت أم الأسد أن تضرب ضربتها الأخيرة ، عساها ترد الأسد عن اللين الذى ارتابت أنه بدأ يداخله ، فقالت لولدها محروضة : « إن الصمت على حجج الخصم لشييه بالإقرار بحقيقة ما يقول ! ومن هنا قالت العلماء : « أقر صامت » .. ثم انتفضت أم الأسد غاضبة تريد الخروج من مجلس الملك . مال الملك لإرضاء أمه ، فأمر بدمنة ليوضع القيد فى عنقه ، ولكن أم الأسد شاءت إلا أن تمنع فى النكاية للإجهاز على غريمها فى بلاط السلطان ، فقالت لولدها للمصادرة على دمنة : « إنى لم أزل أسمع بمكر دمنة منذ زمان . ثم تحقق عندي ما سمعت من إفكه وافتعاله المعاذير وكثرة مخارجه بغير صدق ولا براءة . فإنك إن أمكنته من الكلام دافعك عن نفسه بالحجج الكاذبة » .. ومضت أم الملك فى تحريضها لولدها على قتل دمنة !

ولكن الأسد بعد أن استمع وأطال الإنصات قال : « إن من شأن بطانة الملوك وقرابتهم التنافس فى المنازل بينهم ، ودخول البغى والحسد من بعضهم على بعض ، ولا سيما على ذى الرأى والنبالة منهم لخاصته ! »
انتظر ملك الغابة برهة قبل أن يستأنف إلقاء حجته لأمه والمتربصين بدمنة من بلاطه ، ثم قال :

«وقد علمت أن مكان دمنة قد ثقل على غير واحد من جنودى وأهلى ، فليست أدرى .. لعل الذى أرى وأسمع من جماعتهم وإجماعهم عليه لبعض ذلك . وأنا أكره العجلة فى أمره . فإن العلق الصالح (العلق دود أسود يمتص الدم فى الماء الآسن ، وإذا شربته الدابة علق بحلقها) لا يستهلك إلا فى حقه وموقع القدر فيه لمن استهلكه . ولا أجدنى معذوراً إن تابعت نفسى بالمعاجلة فى أمره دون الفحص والثبات (التثبت) .. ثم استأنف الأسد حديثه وهو يلتفت إلى أمه : « ولكن كوني بخير واسلمى فإنى قد بدالى من الرأى ما ينبغى » .

انصرفت أم الأسد هائلة بنجاح تدبيرها ، بينما اقتيد «دمنة» إلى محبسه ، فلما وصلت أخباره إلى كليله ، قاوم كليله ما كان قد دخل بينهما من جفاء ، وغلبته الصحبة وطول الإخاء ، فذهب إليه فى سجنه تسبقه دموعه ، ولكنه غالبها ليقول لصديقه عن صحبة الملوك وما تجره :

«إنَّ ما أنت فيه لكافيك عن عظتى ، ولكن لا يمنع ذلك من إنذارك والنصيحة لك » .. ومضى كليله يضرب لدمنة الأمثال آخذاً عليه أن إعجابه بنفسه دخل به مدخلاً قهر رأيه وغلبه على عقله ، فقال دمنة :

«لم تزل منذ كنت تقول الحق بجهدك ، وقد كنت تعظنى وتنصحنى ، ولكن شدة النفس والحرص على طلب المنزلة فيلاً رأيت (عظماه كحجم الفيل فى نظره) وسفهاً نصحك عندى . وقد عرفت الآن أنى زرعت لنفسى هذا البلاء . وإنما يشتد على البلاء خوفاً أن تتهم فى أمرى لما كان بينى وبينك » . وطفق «دمنة» يبدى مخاوفه من موقف كليله إذا شددوا عليه العذاب ، هل يعترف عليه بما يراى ، أم يصبر على ما يلاقيه ؟! .. فلم يجد كليله بداً من

الإقرار بأن العلماء قالوا إن الأجساد لا تصبر على حلول العذاب ، ولا تمتنع
عنده من القول بكل ما تستطيع به أن تدفعه !
طال الحديث بين صديقي الأمس ، حتى انصرف كليلة إلى منزله مغموماً
تحدثه نفسه ببلاء عظيم وشر مستطير !!
فماذا تراه يفعل لدرء هذا البلاء الذي يحيط بصاحبه ، ويهدده معه ؟!

من

تراب (٤٩٤) في بلاط الأسد ! (*)

(٢)

الطريق

وقفنا عند حيرة «دمنة» وصديقه «كليلة» في شأن ما يحيط بدمنة من أخطار نتيجة انخراطه في بلاط السلطان ..

كان من سوء حظ «كليلة» و «دمنة» ، أنه كان بالقرب منهما حال حديثهما بالسجن ، فهد محبوس ، أيقظه الحديث من نومه ، فسمع معاتبة «كليلة» لدمنة على سوء فعله ، وإقرار دمنة بإثمه ، فحفظ الفهد ما سمعه وكتبه فلم يذكره لأحد .

تلاحقت الأحداث ، فلم تأل أم الملك جهداً لتحريض ابنها الأسد على وجوب الخلاص من «دمنة» فإن استبقاء الفجّار بمثابة قتل للأبرار ، بل إن استبقاء الفاجر مشاركة في فجوره !

ضاق صدر الأسد ، فاستجاب لإلحاح أمه ، وأمر بتعجيل النظر في أمر دمنة ، ووكل أمره إلى القاضى والنمر ، على أن يرفعا الأمر إليه ليبت فيه بنفسه .

في مجلس القضاء الذى جمع بين القاضى والنمر ، على ما بينهما من تناقض في التكوين والمشارب والغايات ، هب النمر محرضاً الجند في خطبة عصماء ، أنهاها بأنه واجب عليهم ألا يكتموا الملك سرّاً ولا يدخروه نصحاً ، أو يخفوا عنه ما جرى . وليقل كل منهم على رءوس الأشهاد بما يعلم من أمر دمنة !

(*) المال ١٣ / ١٠ / ٢٠١٠

التقط القاضى كلام النمر ، فبدأ بالثناء على تحريضه على المتهم فى مجلس القضاء ، ثم زاد القاضى عليه أن من خصال ما دعاهم النمر إليه ثلاثا : إحداهن الصدق فيما يستشهدون عليه ، والثانية معاقبة المذنب بعقاب مقمع لأهل الرية (فلا محل لافتراض البراءة !) ، والثالثة أن الأشرار إذا نفوا من الأرض ، زاد ذلك من تواصل الرعية وسرور الصالحين !

ولكن الحاضرين لزموا الصمت .. فلم ينطق منهم أحد بكلمة ، لأنهم لم يعلموا من أمر دمنة علماً واضحاً يتكلمون به ، وكرهوا القول بالظنون خوفاً من أن يؤدى قولهم إلى الحكم بقتله !

تشجع دمنة ، فقال للجمع الذين رأى سكوتهم : « إننى لو كنت مجرمًا لسررت بسكوتكم عن القول فى أمرى ، إذ لم تعلموا لى جرمًا ، لأن كل من يُعلم له جرم فلا سبيل عليه ، فهو البرىء المعذور ، فمن عرضنى للطب بغير علم ، أو قال فى أمرى بالشبهة والظن ، أصابه من عاقبة قوله ما أصاب المتطبب » الذى ادعى علم ما لا علم له به !

انتفض القاضى كما انتفض قاضى قصة رجل المال لتوفيق الحكيم .. الذى فاجأه سؤال المتهمه بغسيل ملابسها فى التربة : « أمال أغسلها فىن يا بيه » ؟ ! انتفض قاضى بيدبا الفيلسوف ليسأل دمنة دون أن يفلح فى إخفاء فضوله وشغفه : « وكيف كان ذلك » ؟ !

طلق دمنة يروى للقاضى قصة متطبب (طبيب) ذاع خبره لنجابه وانتفاع الناس من طبه وأدويته ، وما فى كتبه ، فلما مات ، ادعى أحد السفهاء علم الأدوية وأشاع ذلك بين الناس ، وانتحل مكانة « المتطبب » .. وتصادف أن مرضت ابنة الملك بداء ثقیل ، فبعث يطلب لها الأطباء ، فأشارت عليه

الحاشية «بمتطبب» على بعد فراسخ يوصف بعلم الطب ، فلما أتوا به ووصفوا له علّة الفتاة أشار بدواء لعلّتها يقال له «زمهران». ولكنه اعتذر عن عدم إمكانه عمل «خلطة» الدواء لذهاب بصره ، فلم تجد الحاشية أمامها سوى صاحبنا السفیه الذی ادعی علم الأدوية بعد وفاة «المتطبب» ذائع الصیت ، فلما أحضروه ادعی لهم فی جرأة أنه عارف بذلك الدواء «الزمهران» ، وعالم بالأخلاط والعقاقیر ، بصیر بطبائع الأدوية المفردة والمركبة . سارعت به الحاشية إلى خزانة أخلاط الأدوية ، فلم يجد أمامه بدءاً من الاستمرار فی ادعاء المعرفة ، فجعل يأخذ ويمزج بین أخلاط لا يعرفها ، كان من سوء طالعه أن أحدها سم زعاف قاتل ، فلما سقى به الفتاة ، لم تلبث إلا ساعة حتى ماتت . عند ذلك أخذه الملك فسقاه من دوائه الذی خلطه فمات لرقتة !

أضاف دمنة: «إنما ضربت لكم هذا المثل لتعرفوا ما يدخل من الإثم على القاتل بالجهالة والعامل بالشبهة» !

ولكن سید الخنازیر ، صاحب مائدة الملك ، أبى إلا أن يمانئ هوى أم الأسد ، فقال متزلفاً : إن الأحق لهذا الشقی الذی لم تسأل عنه العامة ولا يشكل أمره على الخاصة ، أن العلماء قد عرفوا ما حکم ما ظهر علیه من علامات الشر وسمات الفجور !

فسأله رأس القضاة وهو یشير إلى دمنة : « وما تلك العلامات والسمات ؟ أطلعنا على ما ترى فی صورة هذا الشقی !! » .

فقال سید الخنازیر : « إن العلماء قد قالوا : إن من صغرت عينه اليسرى وهى لا تزال تختلج ، ومال أنفه بعض الميل إلى شقه الأيمن ، وبعد ما بین حاجبيه ، وكانت منابت شعر جسده ثلاث شعرات ، وإذا مشى كان أكثر

نظره إلى الأرض ويلتفت تارة بعد تارة فإن ذلك ، دال على اجتماع صفات الغدر وطباع الآثام والبغى على الصالحين . ثم استأنف سيد الخنازير في ثقة وهو يشير إلى دمنة : « وهذه العلامات كلها في دمنة » .

لم يستسلم دمنة لهذه المغالطة المفضوحة ، فانطلق يقول : « لو كانت هذه العلامات التي ذكرتها وأشباهاها يُناب بها عن العدل والمعرفة بالحق ، لما تكلف الناس الحجج ، ولما كان جزاء أهل الإحسان أو أهل الفجور إلاّ على هذه العلامات . وهذا لا يوجب شيئاً لأن هذه العلامات تخلق مع صاحبها حين يخلق وتولد معه حين يولد . وإن كنت تزعم أن الخير والشر إنما يكونان بالعلامات ، فإن معنى ذلك أنه لا حمد للمحسن ولا ذم على المسيء ، ولا أجدنى في هذا أيضاً إلاّ معذوراً ، ولا أراك تنطق إلاّ بعذرى وتذكر براءتى وأنت لا تدري!! »

بهت سيد الخنازير ، ولكن دمنة عاجل يقول : « إنما أنت في هذا يا سيد الخنازير ! كرجل قال لامرأته : أبصرى عييك يا سفيهة ثم عيى غيرك » . كيف كان ذلك ، سألوا دمنة ، فكان جوابه : هذا مثل الرجل والمرأتين ! ولذلك حكاية أخرى !

من تراب الطريق

(٤٩٥) مثل الرجل والمرأتين ! (*)

ظل مجلس القاضى المعقود لمحاكمة «دمنة»، بتدبير أم الأسد وبتحريض النمر ونكاية سيد الخنازير، ظل فى انتظار أن يفصح «دمنة» عما أشار إليه عن حكاية الرجل الذى قال لامرأته : «أبصرى فى عيبك يا سفيهة ثم عيبى غيرك»!

نظر دمنة إلى الرءوس المعلقة بما سوف ينطق به ، وحال كل منهم يقول لنفسه : ترى ماذا سوف يقول هذا الأريب المراوغ .. ثم طفق دمنة يقول بعد أن أثار أشواقهم للسماع :

«زعموا أن مدينة كانت تدعى «بورخشت» .. دخلها الأعداء مرة فقتلوا من كان فيها عالماً ، وسبوا نساءهم ، واقتسموا السبى . فأصاب جندى من العدو حرّاً ثامّاً (زارعاً) مع امرأتين . فكان ذلك الرجل يعريهم من الكسوة ويصومهم عن المطعم والمشرب ، فانطلق الحراث يوماً من الأيام مع الرجل والمرأتين ليحتطبوا ، فوجدت إحداها خرقة فاستترت بها ، فقالت الأخرى لبعلها (زوجها) : ألا تنظر إلى هذه كيف تمشى بخرقتها ؟! فقال زوجها : «ويلك . ألا تبصرين نفسك فتسترى مثلها ثم تكلمى » !!؟

صمت دمنة برهة يرقب تأثير حكايته ، قبل أن يستأنف تقريره لسيد الخنازير الذى مالاً وحرص عليه بحجة مغلوطة ، فقال له : «فأما أمرك أنت

فأعجب فيما عرفت من قذارة جسمك ونجاستك وجرأتك مع ذلك على الدنو إلى طعام الملك ، والقيام عليه وبين يديه كالبريء من العيب والنقي من الدنس ! إنه لم يمنعني من إبداء عيبك قبل اليوم إلا مودة كانت بيني وبينك . فأما وقد طعنت عليّ وابتدأتني بالظلم لما انطويت عليه من عداوتي وقذفتني بالباطل بمحضر الجند . فإنني قائل بما أعلم من عيبك ، مبدٍ الذي أخفيت من دنسك الذي ليس لك معه أن تخدم الملك ولا الذي تحته . فقد حق على من عرفك حق المعرفة أن يمنع الملك من استعمالك ، ويدفعه إلى عزلك عن طعامه !

لما سمع سيد الخنازير هذه الحجة الدامغة من دمثة ، بهت وتلجلج لسانه واستحيا ، وكف نفسه وكف جميع من حضروا من الجمع . عن القول في شيء من أمره .

ولكن كان بين الحاضرين من قد جربه الأسد ملك الغابة ، فوجد فيه أمانة وصدقاً ، فانخذله في خدمته ، وأمره أن يحفظ جميع ما يجري بينهم ويطلعهم عليه .. فلما سمع ما كان من هذا الحوار انطلق إلى الأسد فدخل عليه وأعلمه بحديثهم من أوله إلى آخره ، دون أن يكتم عنه شيئاً . فلما سمع الأسد ذلك ، أمر بعزل سيد الخنازير عن عمله ، وأصدر أوامره بمنعه من الدخول عليه ، وحظر على الحاشية أن يدعوه يريه وجهه ، ثم أمر بدمثة أن يُرد إلى السجن . وكتب ما جرى في محاكمته ، وختم عليه النمر .

وكان لكليلة في حاشية الأسد صديق يدعى «روزبة» .. بينه وبين كليلة إخاء ومودة ، وكان عند الأسد وجيهاً وعليه كريماً . فانطلق «روزبة» إلى «دمثة» وأخبره بموت كليلة ، وبأنه قضى إشفاقاً من أن يتلطح بشيء من أمر

أخيه وحذرا عليه . فبكى دمنة حزناً على كليله ، وقال لصديقه «روزبة» : « ما أصنع بالدنيا بعد مفارقة الأخ الرحيم والصديق الحميم .. حقاً إن المصائب لا تأتي فرادى . ولكن أحمد الله تعالى إذ لم يمت كليله حتى أبقي لى أخاً مثلك ».

وجعل دمنة يطرى «روزبة» ، ودله على الموضع الذى يحتفظ فيه وكليله بثمار سعيهما ، وأعطاه له ، ثم جعل يزين له أن يكون عينه ومعينه لدى الأسد ، بأن ينقل إليه ما يرفع إليه عنه من الخصوم ، وما تبديه أم الأسد فى حقه ، وأن ينقل إليه ما يدور ويعلمه به .

لم يقصر «روزبة» فى أداء مهمته فى بلاط الملك ، فما إن رأى القاضى يدخل على الأسد ويعلمه بما قال دمنة فى معاذيره ، وقيام الأسد باستدعاء أمه وقراءة ما كان عليها ، وغضبها ونذيرها لابنها الملك بأنه لا يعلم ما يضره مما ينفعه ، وأن «دمنة» مجرم مسيء وغادر ، ويهيج عليه . ما إن رأى «روزبة» وسمع ما كان فى بلاط السلطان ، حتى انطلق إلى «دمنة» فوشى إليه وأعلمه بما حدث !

ذهب «دمنة» إلى مجلس القاضى فى الغد ، وهو عالم بما يُحاك له ، فلما عاين التواء منطقته ، قال له فى غير مداراة : أراك أيها القاضى لم تتعود العدل فى القضاء .. وليس من عدل الملوك دفع المظلومين ومن لا ذنب لهم إلى قاضٍ غير عادل . وقد رأيت أن العلماء لم يقولوا فى حقى شيئاً !

جعل القاضى يخادعه ، فتعلل بأن سكوت الجميع كان لاجتماعهم على أنه مجرم لا خير فيه ، وجعل ينصح له أن يقر بذنبه فيخرج بعقته من تبعة الآخرة . فإن العلماء قالت : « إن الموت فيما يجمل ، خير من الحياة فيما يقبح » ! لم يلتقط «دمنة» هذا الطعم ، وأجاب القاضى بأن القضاة لا تقضى بظنونها

ولا بظنون العامة ولا الخاصة ، وأنه من السفاهة والحمق أن يقر بذنب لم يرتكبه ويسلم نفسه للقتل وهو يعلم أنه برىء . واستأنف يقول للقاضى :
«إن كانت هذه منك نصيحة ، فقد أخطأت موضعها . وإن كانت منك خديعة فإن أقبح الخداع ما فطن له . وليس الخداع ولا المكر من أخلاق صالح القضاة ! أما بلغك ما قاله العلماء؟!

سأله القاضى : وماذا قالوا ؟

قال «دمنة» ، قالوا : «من ادعى علم ما لا يعلم وشهد بالغيب ، أصابه ما أصاب» البازيار «القاذف عند مولاه»!

سأله القاضى وقد ثار شوقه : وكيف كان ذلك ؟

انتظر دمنة لبرهة قبل أن يجيب .

ولذلك حديث آخر !

من

تراب (٤٩٦)

غياب الوعي

أم فقدان الإحساس؟! (*)

الطريق

على رأس الصفحة التاسعة، لإحدى صحفنا القومية بعددها ٢٠١٠/١٠/١٥ طالعت «مانشيت» سماويا عريضا يقول سطره الأول : « عباس متفائل بنجاح الجهود الأمريكية باستئناف المفاوضات المباشرة مع إسرائيل ».

ويقول سطر المانشيت الثاني : « مخطط إسرائيلي لإقامة ١٣ ألف وحدة استيطانية جديدة بالأراضي المحتلة ».

أما السطر الثالث فيقول : « إسرائيل تبرم اتفاقاً بقيمة ٤٠٠ مليون دولار لبيع طائرات تجسس إلى روسيا ».

لم أصدق عيني وأنا أطلع هذه الأشتات المتباينة بلا تعقيب ولا تعليق ، بل وبلا علامة تعجب تورى بتنبه الجريدة إلى تناقض تفاؤل السيد عباس ، مع خبر أو مصيبة إقامة إسرائيل ١٣ ألف وحدة استيطانية جديدة بالأراضي المحتلة ، ولا مع معنى أن إسرائيل بلغت في انتشارها وتفشيها حد إمداد روسيا هل تذكرونها؟! بطائرات تجسس في اتفاق بقيمة ٤٠٠ مليون دولار !! لم أفهم معنى أن مجرد نجاح الجهود الأمريكية في استئناف المفاوضات (المباشرة) شيء يدعو في ذاته للتفاؤل ، وزاد استغلاق الفهم على ، وتعجبي من جمع الأشتات بلا تفطن ولا حتى علامة تعجب ، أن يُقرن نبأ «تفاؤل

(*) المال ٢٠١٠/١٠/٢٠

«السيد عباس ، بمصيبة تخطيط إسرائيل لإقامة ١٣ ألف وحدة استيطانية جديدة بالأراضي المحتلة المفترض أنها ستعاد إلى الفلسطينيين في إطار المفاوضات (المباشرة !) التي أجهجت وتبهج السيد عباس .. فإذا كان المقصود في اختيار مفارقات سطور المانشيت لفت أنظار عباس والقراء إلى هذه المصيبة التي تعبر عن غياب الوعي ، فإن الفطنة المفترضة في الصحيفة وصانع المانشيتات ، توجب أن يفصح عن مراده في تعقيب أو على الأقل بعلامات تعجب توضع في موضعها ، وألا يترك المفارقة للملاحظة قد تنتبه إلى ما وراء السطور وقد لا تنتبه ، اللهم إلا أن تكون الفطنة غائبة أيضا عن ذات كاتب هذه المانشيتات ومضمون الخبر ، وعن الصحيفة ذاتها ، وهذه في ذاتها مصيبة .. لأنها توري بأن الموت قد زحف على وعى الجميع ، وأن المهزلة التي نعيشها قد بلغت مداها وعششت في نفوس الناس حتى لم يعد لدى أحد القدرة على الغضب أو الغيرة أو حتى فهم ما يجري والانتباه إليه .. والأغرب أن تقترن هذه الغيوبة ، بمفارقة أخرى ، يثيرها مانشيت الخبر التالي بذات الصفحة الخامسة عشرة ، فالمانشيت الآخر يقول : «نجاح يختم زيارته اللبنانية بزيارة «بنت جيبيل» قرب الحدود الإسرائيلية . الرئيس الإيراني يشيد بصمود المقاومة .. ويتنبأ بزوال الصهيونية ».

الرئيس الفلسطيني المنتهية ولايته ، متفائل لمجرد استئناف المفاوضات المباشرة ، ورئيس دولة أقرب يشيد بصمود المقاومة .. الرئيس الفلسطيني لا يحول دون تفاؤله الأهطل ! أن إسرائيل تخطط لإقامة ١٣ ألف وحدة استيطانية جديدة بالأراضي المحتلة ، ولا ما صرح به مدير إدارة الخرائط والمساحة في بيت الشرق بالقدس المحتلة من أن النشاط الاستيطاني لم يتوقف

قط خلال فترة التجميد الإسرائيلي المزعوم للبناء ! بينما رئيس دولة أخرى يشيد بأن «بنت جيبيل» هى قلعة المقاومة وعرين الانتصارات ! الرئيس الفلسطيني لا يقرأ الأحداث ولا يرى ما يجب عليه أن يراه أن إسرائيل تزداد قوة ، وأنها تمد روسيا الآن بطائرات التجسس ، وتموه بوقف استيطان لم يتوقف قط ، وتخطط لإقامة ١٣ ألف وحدة استيطانية جديدة بالأراضي المحتلة المفترض إعادتها بالمفاوضات (المباشرة !) إلى الفلسطينيين ، إن كان لهذه المفاوضات (المباشرة !) غاية يدركها العقلاء . ومع ذلك ورغمهم فإن التفاؤل يتغشاه ، وتباركه عناوين صحيفة قومية ، بنجاح الجهود الأمريكية لاستئناف المفاوضات (المباشرة !) مع إسرائيل !!

إن أشر من الكذب على الآخرين ، وخداعهم الكذب على النفس ، ومخادعتها بالاحتيال عليها ! قد يتوهم الآدمى أن صدقه مع نفسه قريب المنال لأنه مفترض ، ما دام لا يوجد رجاء فى غش النفس وخداعها ، وإنما الرجاء إن كان مأمول نفعه فى غش وخداع الآخرين !

على أن هذا الصدق مع النفس ، الذى يبدو مفترضا قريب المنال ، هو أبعد ما يكون عن تناول معظم الناس . مرد ذلك إلى تراكمات كثيرة تتسرب إلى النفوس فتحل وتجزر فيها مقاييس ومعايير مختلة ، وتنفض عنها قيم الحق والسداد والصواب .. إن احترام الذات هو المفتاح الرئيسى للصدق مع النفس ، ويبدو أن هذا الاحترام قد صار معطوياً أصابته علل وأسقام ، ولم يعد إلا كلمة تقال أو مظهراً مفتعلاً ليس له من الواقع أى نصيب !

يبدو أن ما يخایل الآدمى من أنه من المحال ألا يكون صادقاً مع نفسه ، هو وهمٌ وسراب يحسبه الظمآن ماءً .. فحياة الفرد من بدايتها نسيج مرقع

ويرقع باستمرار بخيوط من عدم الصدق.. مع المحيط ومع النفس .. ومن يراقب نفسه بإخلاص بلا عناد ولا مكابرة سيرى ذلك شاخصاً حاضراً فيما يأتيه أو يتركه أو يقوله أو يكف عنه .. ومن يراقب أحوال الناس ، سيرى أن هذه الآفة تتسع مع اتساع الأطماع في المكانة والريادة والرئاسة ، لأن ضريبة هذه المواقع تستأدى حصيلتها من الصدق الواجب مع النفس .. وتنحصر منه نحرّاً متواصلاً ، لأن حساب الربح والخسارة لا يمشى بالتوازي مع الصدق مع النفس ومع الآخرين ، بل يناقضه حتى صرنا نفرح بما يحزن ، ونتفاءل بما يكتئب .. إن كل الشواهد والأدلة التي نراها ويتفاءل بها السيد عباس ومن يجري مجراه ، تنبئ بأن إسرائيل ماضية إلى غايتها من استيلاء على كامل فلسطين ، وتركيع للعرب . لجميع العرب !!

من تراب الطريق

(٤٩٧) ماذا جرى لنا ! (*)

جرت عيناى ، فى الأيام الثلاثة الأخيرة ، على صفحات الحوادث فى صحفنا القومية والحزبية والمستقلة ، فهالنى ما بات فيها من أخبار الجريمة التى لم تقتصر على ارتفاع وتزايد معدلاتها ، وإنما على طروء أنواع من الجرائم تشف عن خلل هائل وعميق ومتجذر أصاب الفئات المهمشة وغير المهمشة من المجتمع ..

تفاصيل مثيرة عن حادث مقتل زوجين طاعنين فى السن ، قتلة بشعة ، الزوج فى الخامسة والسبعين ، والزوجة فى الستين ، فى قرية وادعة من قرى مركز كرداسة .. المفاجأة الموجهة أن تكشف التحريات عن أن مرتكبى هذه الجريمة البشعة : حفيدة القتيلة ، وهى فى الثامنة عشرة ، بمعاونة زوجها العامل ابن العشرين .. قتلاهما بأجنة حديدية انهارا بها على رأسيهما وهما يجلسان إليهما يحسبان الشاى الذى صنعاه لهما ، ويأكلان الفاكهة التى قدماها إليهما . ولكن لماذا ؟! لماذا هذه الوحشية والغدر ؟! ما الذى يجعل الإنسان يشذ عن باقى المخلوقات فيقتل نوعه بل أصوله ، بينما نرى قطعان الأسود والنمور والجاموس والتياتل والخراتيت والضباع وكافة أنواع الوحوش والضواري ، يتحامى كل منهم فى قطيعه ، فلا يقتل الواحد أحداً من نوعه ، بل يقاتل عنه ومن أجله ، فما الذى جعل الحفيدة تقتل جدتها وجدها ، وتزين هذه الجريمة أو يزينها لها زوجها .. ما هى الحاجة ، وما هو

الباعث الذى خرج بهما عن أبسط مبادئ الإنسانية إلى هذه الوحشية التى أهدرت وسفكت وسفحت القرابة والصلة وقابلت الإحسان والضيافة بالغدر والخيانة والقتل !! قيل على لسان القاتلين إنها يمران بضائقة مالية ، ترى ماهى ؟! قالوا إنها فشلا فى سداد أقساط منقولات الزوجية ، ولم يجدا سبيلا ، إلا بهذه القتلة البشعة ، لسرقة صندوق مصوغات الجدة ، دون أن ينسيا خلع ما كان فى معصمها من مصاغ قبل أن يقرأ هارين !

وفى مجال التعليم ، تتحول العلاقة بين العاملين فى محرابه ، إلى «ملاكمة» «دعت مدير إحدى المدارس ، بأحد أحياء القاهرة ، إلى الاعتداء باللكمات والركلات التى أدت إلى إجهاض مدرسة لأنها تجرأت وشكت للإدارة التعليمية من عدم مساواتها فى توزيع الحصص بينها وبين زميلاتها ! بينما تحمل الأخبار نبأ مدرسة تحولت إلى وحش كاسر ، فجعلت تضرب تلميذتها التى تجاوزت العاشرة بالكاد ، ضرباً مبرحاً أحدث إصابات وكدمات فى أجزاء متفرقة من جسمها لم تجد أسرتها إزاءها إلا أن تذهب بابتها الطفلة المجنى عليها إلى النيابة العامة ! بينما تحمل الصحف نبأ اقتحام ضابط لمدرسة بأسىوط ليعتدى بحرم المدرسة على أحد المدرسين بالضرب لخلافات بين زوجة الضابط المدرسة بالمدرسة وبين زميلها المدرس المعتدى عليه ! بينما نرى فى الأخبار نبأ طالب بإحدى المدارس الثانوية بشبرا الخيمة يحاول الدخول إلى مبنى الطالبات ، فلما نهاه أحد المدرسين ، لم يجد إلا أن يخلع ملابسه ويتعدى بالسب على المدرس الذى حال بينه وبين ما يريد !!

ويبدو أن التعليم قد صار نهياً للجريمة والمجرمين ، وصار تزوير النتائج لا يكتفى بالغش فى لجان الامتحانات ، وقد صار ظاهرة جماعية ، وإنما انطلق

إلى عالم جديد قوامه السطو والاقترحام ، كشأن السرقة بالإكراه ، فتحمل الأخبار نبأ طالب بكلية الهندسة بجامعة الإسكندرية ، قام باقتحام مبنى الكنترول وتزوير ثلاث كراسات إجابة . كشف هذا الاقتحام عن جريمة أخرى هى بلوغ علم الطالب برسوبه فى المواد الثلاث ، فانتهاز انتهاء اليوم الدراسى ليجرى عملية الاقتحام وتزوير كراسات الإجابة ليغير النتيجة !! ويبدو أن المذابح العائلية قد صارت سنة متبعة تعكس تردى أحوال وروابط الأسرة المصرية ، فلم يكن قتل الجدة والجدة بيد الحفيدة وزوجها هو كل حصاد الجرائم العائلية هذا الأسبوع ، فحملت الأخبار نبأ إحالة مرتكب مذبحه أسرته بالمطرية إلى محكمة الجنايات ، بعد أن تحول سعيه لمصالحة زوجته ، إلى جريمة قتل بشعة حصدها أرواح صهره وابنة زوجته دون أن ينسى إصابة زوجته وأمها بإصابات بالغة ، ويعلم الله هل امتدت نيته إلى الشروع فى قتلها أم اكتفت أصلاً بالإصابة . هذا بينما أودع بمستشفى الأمراض العقلية تاجر الأخشاب الذى أدار مذبحه فى دمياط حصدها أرواح زوجته وأمها وابنتها وشرع فى قتل أولاده وأمين الحزب الوطنى السابق وأحد المارة !

ولما قيل إنه بسبب خلافات مالية ، يكشف بلاغ اختفاء طفل فى قنا ، تلقت أمه مكالمة تليفونية على هاتفها المحمول من إحدى الدول العربية عن خطفه وطلب الخاطف ربع مليون جنيه فدية لإعادته مع التحذير المشدد من إبلاغ الشرطة ، وتكشف التحقيقات عن أن الخاطف المدبر هو ابن عم والد الطفل المخطوف ، بمعاونة ابن عمهما المزارع ، حيث نجحت الشرطة بعد لأي فى الاهتداء إلى مكان إخفاء الطفل ، وإعادته إلى أمه !

ولم يكفنا تلوث البيئة التي ضرب تلوثها في الحيوان والنبات والإنسان ،
فأقدم راعى أغنام تسممت ماشيته ونفقت أقدم على بيعها إلى الجزارين
لينتقل السم مع اللحم الذى عز إلى أجواف الآدميين !

وأخر مات ضميره ، لم يكذب ينتهى من تنفيذ حكم بالسجن سبع سنوات
عن جنابة تخابر ، حتى احترق سرقة السيارات ، وجعل مع عاطل ينتحل
صفة ضابط مخبرات لسرقة السيارات وبيعها بأوراق مزورة لتاجر أدوات
صحية بالبساتين !

ومن عالم الجريمة الفردية إلى عوالم الجرائم الجماعية ، تحمل الصحف
أخبار قتال عنيف دار بين أصحاب المحلات فى شارع رمسيس بوسط
القاهرة ، تبادلوا فيه إطلاق الرصاص ، حيث أصيب سبعة أفراد من الطرفين .
الغريب أن هذا القتال بالأسلحة النارية نشأ عن مستصغر شرر حين عجز
أصحاب محلات قطع غيار السيارات وورش الدوكو والميكانيكية عن
التفاهم لتنظيم استخداماتهم لجانبى الشارع ، فحل التراشق بالأعيرة النارية
والشوم والحجارة ، محل الحوار والتفاهم ، مع أن المتقاتلين أصحاب جيرة
ممتدة لسنوات بل لعشرات السنين ، فى مظلة مجتمع يتواصى بالجيرة والجار ،
ويتبادل بالأقوال والملصقات أحاديث إسلامية ومسيحية توصى بالجار ،
فنسوها بها فيها حديث رسول القرآن عليه السلام : « مازال جبريل يوصينى
بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » !

لم يعد يكفى أن نشعر بالاكتاب مما صار مدويًا زاعقًا مؤسفًا من حولنا ..
هناك ظواهر طفحت ، تستطيع إجمالاً أن ترددها إلى الفقر والجهل والبؤس
والمعاناة ، ولكنها لا يجوز أن تؤخذ على الإجمال ، وواجب على علماء النفس

والاجتماع وكل المعنيين بالشأن العام أن يدرسوا ويتدارسوا أسباب هذا
الطفح الذى طفق يتفشى فى حياتنا ، وينذر إن لم نتدارك أسبابه ! بأوخم
العواقب التى لن ينجو من عوادمها وويلاتها أحد !

من

تراب

الطريق

أهل مكة

(٤٩٨)

أدرى بشعابها ! (*)

ليست هذه السطور في الرياضة وشجونها ، بقدر ما هي عن أمراض النفوس وأسقامها .. دعاني إلى كتابتها ليس فقط اهتمامي على مدار عمري بالرياضة ممارسة ومتابعة وفهماً ، وليس فقط لأنني من محبي النادي الأهلي حتى النخاع وبلا تعصب ، وإنما لأنني أشاهد وأعاین حالة من التربص ظننت سلفاً أنها خاصة بالمدرّب البرتغالي الرائع مانويل جوزيه ، وضيق بعض الصحفيين من احترامه لعمله وتخصّصه ورفضه أن يدير حواراً فنياً ومع هواة لا علم ولا خبرة لهم تصوروا أنهم يملكون زمام وأسرار كرة القدم لمجرد أن الواحد منهم قد أمسك بقلم ، أو فتحت له إحدى الصحف مساحة في صفحتها الرياضية ، ثم تصورت أن حالة التربص بعد رحيله بالمدرّب الوطني حسام البدری ، مرجعها ربما لمنافسات من وراء الكواليس أو لأن البعض يستكثر عليه أن يكون مديراً فنياً للنادي الأهلي أكبر الأندية المصرية والعربية والأفريقية ، ولكنني لاحظت أن التربص ينصرف مع تعدد الصور والمشاهد للنادي الأهلي ذاته ، فلاعبه عماد متعب «لص» في نظر البعض لمجرد أنه وجد نفسه وإن لاحقاً غير قادر على التواءم مع ظروف الاحتراف والعيش خارج بلده ، ومع أن ذلك يمكن أن يكون محلاً للنقد واللوم ، إلا أنه لا يبرر وصم اللاعب بأنه «لص» - وقد سبته بعض الأقلام بذلك ، مع أن اللاعب لم ينكر أي مالٍ قبضه ، ولم ينازع في حقوق النادي

(*) المال ٢٠١٠/١١/٤

البلجيكي شاملة حقه في التعويض ، وهذا الفسخ هو أحد الحلول المعروفة في جميع الأصعدة لكل التعاقدات ، رضا أو قضاء ، وكل ما يرتبه عدم الالتزام بالعقد هو حق الطرف الآخر في التعويض عما أصابه من أضرار مادية وأدبية ، دون أن تمتد الأوصاف إلى السرقة واللصوصية التي تقاذفتها عبارات أدهشتني وأشعرتني أن المستهدف هو النادي الأهلي ذاته !

زادت حيرتى وأنا أتابع شماته لم يستطع البعض إخفاءها لو هزم النادي الأهلي أو فاته النصر في مباراة أو أكثر ، وزادت حيرتى وأنا أصدم في أقلام مصرية تركت الحق الواضح الأبلج في جريمة نكراء ارتكبتها حكم مباراة ترك الرياضة وتقاليدها وأصولها ودستورها ، وخاض المباراة لاعباً مع الفريق المنافس ضد النادي الأهلي ، وليته لعب كرة قدم ليكون اللاعب الثانى عشر للفريق الآخر ، ولكنه خاضها بالغش العمدى في صورة فجعة زاعقة ومخرية ، ومع ذلك يلتف البعض حول هذا الواقع المرورجوب تجليته وشجبه ، ليهربوا إلى مستوى اللعب أو المباراة بقالة إنها لا تستحق لسوء اللعب حكماً أفضل من هذا الحكم .. وحيرنى أننى لم أشاهد قط مغالطة بحجم ونوع هذه المغالطة الفجة ، فلا مجال للحديث عن المستوى في مباراة رياضية خرجت بفعل الحكم وجريمته العمدية عن إطار الرياضة واللعب النظيف .. ذكرتنى هذه النطاعة بمن يترك جريمة القتل والقاتل وبشاعة جرمه ، ليتحدث عن ملابس القتل بقالة إنها غير لائقة أو غير مناسبة !!

لم أصدق حالة التريص بل والكراهية التى استبان أنها ناشئة في نفوس البعض ضد النادي الأهلي .. مع أنهم مصريون من بنى مصر التى لها أن تفخر بهذا النادي وإنجازاته الكبرى التى تشرف الرياضة المصرية وتزهو بها

كافة أنديتها .. فنجاح أى نادٍ مصرى مردود إلى مصر وشعبها وأنديتها وإلى الرياضة المصرية بعامة .

وآخر المشاهد الغريبة المحيرة محاصرة وملاحقة خيرة نجوم النادى الأهلى بالإساءة والمطالبة بالاعتزال .. وشملت هذه المطالبات العجيبة ستة أو سبعة لاعبين يختارون دواما لمستواهم المتميز- لتمثيل مصر ضمن المنتخب القومى .. زادت الحملة بعد تعادل فى مباراة فأخرى ، والتعلة أن مستوى اللاعب الفلانى والآخر العلانى قد انخفض ولم يعد هو المستوى الذى كان عليه اللاعب بأمس ، مع أن مجرد تراجع المستوى إن حدث جدلا وارد على أى لاعب من وقت لآخر ، ثم هو ليس بذاته سببا للتوارى أو الاعتزال . فقد يظل اللاعب هو الأفضل فى مجال المقارنة لناديه أو للمنتخب رغم تراجع مستواه إن تراجع ، ولذلك لم أفهم كيف يتوارى أو يعتزل لاعب حتى لو تراجع مستواه ، برغم أنه لا يزال هو الأفضل فى مركزه لمصر ولناديه ؟!

إن العبرة والمناط فى الاعتزال أن ينحدر مستوى اللاعب أى لاعب إلى الحد الذى يرجع به إلى المؤخرة إزاء لاعبين أقدر امتلكوا من اللياقة والمهارات والخبرة ما جعلهم أليق منه وتقدموا عليه . وبغير ذلك يبقى اللاعب مطلوبا لمصر أو لناديه مادام هو الأبرع فى مركزه ، حتى ولو لم يعد حاله اليوم كما كان حاله بأمس .. فليس هذا هو المناط ولا هذه هى المعايير !!

الغريب اللافت أننى لم أر أحداً من مدربى وخبراء ومحبى النادى الأهلى يطالب باعتزال أحد من هؤلاء النجوم ، وأن كل المتصدين المطالبين بالاعتزال غرباء عن النادى الأهلى ولا ينتمون إليه ، بل ومواقفهم مضادة فى جميع المشاهد له ، فما هو سبب هذه الحالة النفسية المرضية التى قد تراها فى

حسد شخص لشخص ، ولكن يندر أن تنصرف إلى صرح عام قد تحب غيره ولكن من غير المعقول أن تسعى إلى هدمه متواريا وراء مشورة مغرضة ، وما شأن هؤلاء وما هي مشروعية أو مصداقية مطالبهم اللحوحة باعتزال أفضل لاعبي النادى الأهلى !

ولماذا ينشغلون بالنادى الأهلى عما تستوجبه أحوال النوادى التى يشجعونها ؟!

وما هى مشروعية هذا التطفل ؟ أليست إدارة النادى الأهلى وفيها لاعبون أصحاب نجومية ضخمة فى تاريخ الكرة المصرية ، أقدر من هؤلاء المتطفلين على معرفة ما هو أصلح للنادى وفريقه ، وأليس مدربو وخبراء كرة القدم المتممون للنادى الأهلى أهلا للتقدير وأكثر صدقاً وإخلاصاً من هذه الأصوات النشاز المطالبة باعتزال أفضل نجوم النادى الأهلى والكرة المصرية ؟!

أيها السادة .. أليس أهل مكة أدرى بشعابها ؟!

من تراب الطريق

(٤٩٩) التقديم للخلف
أو للوراء !! (*)

كنت أتصفح في الموسوعة القومية للشخصيات المصرية البارزة ، والتي بحسب هيئة الاستعلامات أنها طبعتها طبعة ثانية عام ١٩٩٢ ، وإن لم تحدثها منذ هذا التاريخ رغم مضي قرابة عشرين عاماً ، رحل من المسجلين فيها أعلام ، واستحق أن يُضاف إليها من فرضوا أنفسهم أعلاماً على الساحة في خلال هذه المدة الطويلة ، فضلاً عن احتياجها الضروري إلى ترتيب أدق للفهارس حتى يعثر الباحث على بغيته دون عناء ، سيما وهي تأخذ مرة باسم الشهرة ، وتأخذ مرة بالاسم الرسمي ، ولا يجدى في هذه الحالة أن تضيف أمامه اسم الشهرة ، لأن الباحث الذي قد لا يعرف الاسم الرسمي سيشق عليه الوصول إلى من يبحث عن المعلومات المسجلة عنه ، مادام اسم الشهرة غير موضوع في ترتيبه الأبجدي ولو بإشارة تهdy إلى مكان العثور عليه .

أعود إلى ما قصدته من هذه السطور .. كنت أتصفح في الموسوعة عندما وقعت عيناي على المسجل عن الإداعي الشهير طاهر أبو زيد ، شفاه الله من الكسر الذي أصابه من أيام بالحوض وجعله طريح انتظار التحام طبيعى سيستغرق أمداً لأنه في الثامنة والثمانين ، أمد الله في عمره ، ليواصل إمتاعنا بعبثاته المتميز الذي عشقناه منذ أن كان يقدم منذ خمسينيات القرن الماضى برناجه الشهير «جرب حظك» على موجات البرنامج العام .

وجدت في المعلومات المسجلة قرين هذا الإذاعي الفذ، أنه بعد أن حصل على ليسانس الحقوق، عمل بوزارة العدل، ثم بالإذاعة المصرية منذ عام ١٩٥٠، ولكنه استقال من الإذاعة عام ١٩٥٧ لعضويته بمجلس الأمة تبعاً للنظام الذي كان لا يزال متبعاً في ذلك الزمان، حين لم يكن يجوز الجمع طبقاً للدستور بين الوظيفة العامة وبين عضوية البرلمان، لحكمة لا تفوت البصير، وهي تلافي التعارض بين موجبات الوظيفة وما تستلزمه وتفرضه على الموظف، في ظل تبعيات رئاسية مفروضة وواجبة، وقد تجاوز العرف والواجب لتلاحقه بل وتطارده أو تفرض عليه ما تريد أن يتبناه، وهو لا يملك الفكك منها أو من تبعاتها أو تبعات رفضه أو عدم استجابته، وبين ما تقتضيه وتفترضه وتحرص عليه النيابة البرلمانية من حرية تتيح للنائب أن يسأل الحكومة وأن يستجوب مسئوليتها بمن فيهم الوزراء، مما لا يجوز معه تكيله بأثقال وتوابع ومنظورات ومطالب رئاسته، أو تزعزع نفسه نهياً بين واجبه في البرلمان، وبين ما قد تتعرض له أوضاعه ومصالحه وطموحاته في الوظيفة إذا أعطى ظهره ولم يستجب لما يُراد منه أن يتبناه في البرلمان!

على أن هذه الحكمة البالغة التي اعتدنا الالتزام بها منذ دستور ١٩٢٣ وما يسمى بالعهد البائد، وظللنا نلتزم بها لسنوات بعد ١٩٥٢.. حتى رأينا الإذاعي الفذ طاهر أبو زيد، وغيره، يستقيلون من وظائفهم اتباعاً للدستور والنظام والأصول والقانون، فور انتخابهم أعضاء في البرلمان.

هذه الحكمة قفزنا عليها ووطأناها ودسنا عليها بالأقدام.. حين نجحت الضغوط على أنواعها، في العصف بها وحجبها في أضاير المحفوظات، لنرى رؤساء هيئات وشركات ومؤسسات عامة، وشاغلي وظائف ومرافق

عامة صغيرة وكبيرة وكبيرة جدا ، يدخلون البرلمان ويزدانون بعضويته ومكانتها وحصانته ، ويحتفظون في الوقت نفسه بوظائفهم الصغيرة أو الكبيرة أو الكبيرة جدا ، ولنشاهد في الأسئلة المطروحة والحوارات بالبرلمان ، أو في الاستجابات الموجهة إلى الحكومة ، ما يستحضر مشاهد التمثيليات المسرحية التي لا تنطلي على أشد المتابعين غباء وغفلة !!

نحن إذن نتراجع ولا نتقدم ، حتى أدمنّا التراجع وصرنا نمارسه ونلتذّ به ونقبل عليه ونستزيد منه ولا نبالي ، بل وصرنا نقاوم من يحاول إيقاف عجلة الانهيار، ونتندر على وزير التعليم وإن لم يرقّ لى تسرعه أو اندفاعه حين يحاول رد التعليم إلى تقاليد وجديته ومعالمه ، وتكتأف ضده مع أصحاب المصالح أو الرجوات !!

هذا محض مثال ، والأمثلة بالآلاف ، فإن شئت فخذ عني مثالا آخر . أعرف الصديق الأستاذ الدكتور المهندس العالم أمين مبارك منذ تزامننا زمالة وصداقة عمر من أيام الدراسة بالروضة ثم المرحلة الابتدائية ثم الثانوية بالمساعي المشكورة بشبين الكوم حتى السنة الرابعة أو الثقافة العامة حسب المسمى آنذاك ، حين انتقل مع الأسرة لوفاة الوالد المرحوم الدكتور محمد مبارك إلى الإقامة بمنيل الروضة بالقاهرة ، والالتحاق بالمدرسة الإبراهيمية الثانوية التي حصل منها على الشهادة التوجيهية ، حيث التحق بكلية الهندسة جامعة القاهرة ، بينما التحقت بالحقوق ، وتخرج فيها أمين بقسم الهندسة الميكانيكية ليستكمل دراساته العليا ويحصل بتفوق على الدكتوراه من ألمانيا ، ويعود أستاذاً وعالماً قديراً متمكناً بقسم الهندسة الميكانيكية الذي شغل من بعد رئاسته ، محوطاً في كل المجالات بالتقدير البالغ لعلمه العريض

وإمكانياته المتميزة التي اقتحم بها أيضا مجال الطاقة الشمسية ، حتى صار عالما متمكنا فيها إلى جوار الهندسة الميكانيكية .

ظنى أن أحدًا لم يجامله حين اختير لأكثر من دورة رئيسًا للجنة الصناعة بمجلس الشعب ، فلما انقطع عنها لعدم توفيقه في انتخابات مجلس الشعب بالدورة الماضية ، شغل رئاسة اللجنة السيد محمد أبو العينين ، وكان ظنى أنه مع نجاح الأستاذ الدكتور أمين مبارك في الانتخابات الأخيرة للمجلس ، أن يشغل مكانه الطبيعي في رئاسة لجنة الصناعة ، وليس هذا تقليلا من شأن السيد محمد أبو العينين ، وإنما فقط من زاوية مفاضلة موضوعية جدًا ، ولذلك فإن الأنباء الصحفية كادت تجمع على أن الدكتور مبارك سيشغل رئاسة لجنة الصناعة ، ولكنى فوجئت بعد فترة بأن الترشيحات زحزحته إلى لجنة النقل والمواصلات ، فقلت لنفسي لا بأس .. فهى بدورها تحتاج إلى خبرة هندسية ميكانيكية ، ولكنى فوجئت بالجولة الأخيرة بأن الأوضاع قد استمرت الانقلاب ، فمضت على ما كانت عليه ، وزُخِرَح الأستاذ الدكتور العالم عن لجنة النقل والمواصلات لتمنح رئاستها إلى المهندس طارق طلعت مصطفى ، ودون أى تقليل من شأنه ، فإن مجاله هو الإسكان وليس النقل والمواصلات !!

ولأن الأستاذ الدكتور أمين مبارك قد ضُرب كتفين غير قانونيين على التوالى ، فإنه قد اختير لرئاسة لجنة الثقافة والإعلام والسياحة .
وأمين مبارك صديق عمرى ، ولكنى لم أستطع أن أراه فى لجنة الثقافة والإعلام والسياحة . هو مثقف . نعم . ولكنه ليس خير من يشغل رئاسة هذه اللجنة من أعضاء مجلس الشعب الذى يسيطر عليه الحزب الوطنى سيطرة كاملة !

ظنى ولا يزال أن الخطأ لا يجوز أن يصحح بخطأ آخر !
كان خطأ ولا يزال حجب الأستاذ الدكتور أمين مبارك عن رئاسة لجنة
الصناعة بمجلس الشعب !
وكان خطأ آخر ولا يزال حجبه بعدها عن رئاسة لجنة النقل والمواصلات ،
وإعطائها لخبرة إسكانية !
وهذا الخطأ المركب ، صار للأسف ثلاثي الأبعاد ، لأن أمين مبارك نُزِعَ
لأسباب غير مفهومة ! من موضعه الطبيعي ، ليوضع ترضيةً في غير مكانه !!!

من تراب الطريق

(٥٠٠) قيم الثورات (*)

(١)

إن الحديث عن القيم والثورات ، قد يبدو حديثا غريبا بحكم معنى الثورة وخروجها للتغيير عن المألوفات ، وبحكم التاريخ الذى حمل أحداثا دامية صاحبت ثورات سفكت فيها الدماء بغزارة ، وحصدت الأرواح بغير حساب ، وتحولت الإصلاحات إلى انتقامات دفعت إلى السجون بمئات الآلاف ودون تمييز بين المذنبين والأبرياء .. ولعل ما صاحب الثورة الفرنسية وتلاها فيما سُمى عهد الإرهاب أبرز الأمثلة على ما قد يصاحب الثورات من ممارسات تجعل الحديث عن قيمها حديثا غريبا إن لم يكن شاذًا !

ومع ذلك يبدو لى أن الحديث عن قيم الثورات ضرورى وواجب ، لأنه الضمان الحقيقى الوحيد لحمايتها من نفسها وصيانتها عن الانحراف عن أهدافها التى قامت من أجلها ، ورعاية خطواتها لتمضى فى أمان وبلا مظالم لتحقيق غاياتها .

وقيم الثورات إن أرادت مسئولية قياداتها ، لأن التاريخ وعلم النفس يقولان لنا أن الكتل لا عقل لها ، وأنها فى اندفاعاتها المتحمسة كثيرا ما يخالطها روح القطيع ، فيرتكب المجموع ما يأباه كل فرد منه إذا وقف وقفة مع نفسه ونجح فى استخراج حركته من اندفاعات المجاميع .. كان من قيم ثورة ١٩١٩ وكانت لها قيادة الضرب فى قوات الاحتلال لأن الجلاء والاستقلال كانا الغاية ، وتحقيق هذه الغاية يصطدم اصطدام لزوم بقوات

(*) المال ٢٠١١/٦/١٣

وآليات وإدارة الاستعمار الجاثم على البلاد .. ولكن لم يكن من أهداف ثورة ١٩١٩ ، وبالتالي مناف لقيمها ، تدمير الممتلكات المصرية .. ففيما عدا ما تختلط فيه الأهداف حين تكون الغاية مثلاً تعطيل مواصلة أو طريق أو خط حديدى للحيلولة بين قوات الاحتلال وبين حركة مقصودة لإجهاض الثورة ، فيما عدا ذلك فإن التخريب الصرف للممتلكات المصرية بلا غاية وقد حدث أحيانا يغدو عملاً ضريراً اندفعت إليه المجاميع بروح القطيع فخرجت دون أن تعى عن أهداف وعن قيم الثورة !

الثورة كل ثورة ، ينبغى إذن أن تكون لها قيم مرتبطة بأهدافها وغاياتها ، وتسير خطى الثورة وطيدة ما التزمت بهذه القيم والغايات ، وقد كان لثورة يوليو ١٩٥٢ قيادة ، نجحت وأخفقت ، أنجزت وفشلت ، ولكنك تستطيع أن تلاحظ أن نجاحها وإنجازاتها اقترنا اقترانا واضحا بقيم الثورة وغاياتها ، وتستطيع أن تلاحظ أيضاً أن إخفاقاتها كانت فى حالات ابتعدت فيها الممارسة عن قيم الثورة وغاياتها .. كان من قيم الثورة تحقيق الجلاء وضرب الفساد وإنهاء الاحتكار الأجنبى للاقتصاد والقضاء على الإقطاع .. وفى كل ذلك وغيره نجحت الثورة وأنجزت لأن الغاية والأداء التزما بقيم الثورة ، بينما أخفقت حين حادت عن رعاية حق وكرامة الشعب مجموعاً وأفراداً ، ووقع ذلك حين ظنت أن تأمين الثورة سبيله تقييد حرية الشعب التى قامت الثورة من أجل تحقيقها وكفالتها ، وفتحت السجون والمعتقلات بلا ضوابط وامتهنت أمان وكرامة الشعب الذى انتفضت لرد حقوقه إليه لا لامتهانها .. فأنت ترى أثر القيم إيجاباً وسلباً وتراه واضحاً فى مردوداته على كل ثورة .. تتم الإنجازات والنجاحات ما التزمت الثورة بقيمها ، وتواجهها الإخفاقات إذا جافت هذه القيم وأهملتها !

من قيم الثورة أن تكون بنية حية لتحقيق الأهداف التي قامت من أجلها ،
ومن واجبها أن تحمي نفسها وقيمها من أن تتحول في ممارسات البعض الى
«حالة» فوضوية للاعتراض أو التمرد على كل أو أى شيء !!

واعتقادي أن البحث في قيم ثورة يناير ٢٠١١ واجب .. هو واجب
للزومها بعامة لكل ثورة ، وهو أوجب لهذه الثورة لأنها قامت وأنجزت
بغير قيادة .. وغياب القيادة التي اعتقد أنها لا تزال غائبة للآن بسبب تكاثر
تكوين المجموعات أياً كانت المسميات .. وهذا الغياب للقيادة يحرم هذه
الثورة الرائعة غير المسبوقة من آلية تكفل رعاية قيمها والالتزام بها .. زاد
من أهمية ذلك ، أن أجنداث متعددة دخلت الساحة موازية أحياناً ومزاحة
أحياناً ومقاطعة أحياناً لتحقيق أهدافها هي ، وهي أهداف قد تختلف بل قد
تتناقض مع قيم الثورة .. وغياب قيادة للثورة الأصل يحرمها من أن تحافظ
على خصوصيتها بل صورتها إزاء الأجنداث المختلفة التي استغلت الثورة
فاقتحمت الساحة كل منها بأغراضها هي وأهدافها هي .. ثم زاد على ذلك
أن قطاعات مختلفة قد اتخذت الثورة «حالة» مستمرة ومن ثم أسلوباً دائماً
يخلط بين الثورة كحركة لغاية محددة ، وبين الفوضى كأسلوب ممارسة أو
تعبير أو ضغط لأغراض شتى فيها الصحيح وفيها الباطل وفيها المشبوه !
وهذه المتداخلات التي ظهرت بالساحة لم تكن من قلب الثورة الأصل ، ولا
تحمل بداهة ذات غاياتها وقيمها !!

وحين تتعدد الأجنداث والأهداف ، تبدو الحاجة لتحديد قيم الثورة
ورعايتها أوجب وأمس .. ويبدو أنه في غياب قيادة للثورة شبابية الأصل ،
وتعدد الأجنداث المتوازية والمتعارضة والمتقاطعة التي اقتحمت الساحة صار

استخلاص قيم للثورة غاية بعيدة المنال ، وهذا الغياب ينذر بخطر شديد على الثورة ذاتها ، لأنه يحرمها من روحها ويحرمها أيضا من تماسكها بل ومن شرعيتها ، ويحول المشهد من ثورة رائعة قامت لأهداف نبيلة وغايات محددة يحولها إلى فوضى يختلط فيها الحابل بالنابل لتعدد الأجندات والأغراض ومن ثم غياب القيم وغياب القيادة أو الآلية المعنية برعاية هذه القيم والمحافظة عليها حتى لا تسرق الثورة وتؤخذ بعيدا عن أهدافها وغاياتها .

من

تـراب

الطريق

(٥٠١) قيم الثورات (*)

(٢)

تعدد الأجندات واختلاطها ، وانبهام قيم واحدة تنبع منها أو تصدر عنها ، يضع القائمين على شئون البلاد في هذا الطرف الدقيق أمام صعوبات جمة ، وهى صعوبات تتزايد وتتعدد حين تصير الثورة «حالة» ، وحين تتحول الحالة إزاء تعدد الأجندات إلى فوضى أو هوجة ، يختلط فيها الحابل بالنابل ، وتتقاطع الخطوط والأغراض !!

وأخطر ما تقع فيه الثورة أى ثورة ، أن تفقد الصدق .. مع نفسها ومع الغير ، فتتحرف حينذاك بوصلتها للخلل الذى أصاب رؤيتها.. هذا الصدق مهم جداً لأن الثورة أى ثورة قد تقوم دون أن تكتمل رؤيتها لنوعيات وحدود المراد ، فتوالى مع الأيام والتجربة إن كانت القيادة لها توالى استكمال أجندتها من واقع القيم التى أنهضتها .. ولا بأس فى هذا الاستكمال أو فى إضافة أهداف جديدة كشف عنها التأمل ما دام الاستكمال والإضافة نابعين من ذات قيم الثورة ، وفى مقدمتها صدق الثورة مع النفس ومع الغير .

وحين تتعرض الثورة لتداخل أجندات لا تتفق مع قيمها ، أو تنحرف ممارسات بعض أفرادها عن أهداف وقيم الثورة ، فإن وقايتها مما يأتيتها من الخارج ، وتصحيح ما قد يصيبها من داخلها ، تتكفل به قيادة الثورة ، فتتخذ من الخطوات ما يحميها من الرياح أو الأجندات التى تتداخل من الخارج

(*) المال ١٤/٦/٢٠١١

معها أو تسعى لسرقة الثورة منها ، والخطوات اللازمة لتصحيح بوصلتها هي وتقويم ما عساه يخرج من ممارساتها هي عن أهدافها وقيمها .

ومن الضروري الالتفات إلى أن غياب «قيادة» عن ثورة الشباب في يناير ٢٠١١ ، يحرمها من هذه المعطيات التي أشرت إليها ، ويصدر مشكلة تتسع دوائرها كدوائر الماء الملقى فيه بحجر !

غياب هذه «القيادة» عن الثورة قد ألقى بالعبء كله على «مصر الدولة».. وخلق ذلك المزيد ومزيد المزيديت من الصعوبات واجبة الحل أو المواجهة ، لما تطرحه مصر الثورة (متعددة الأجندات الآن) .. وبدت الصورة وكأنها مواجهة بين مصر الثورة ومصر الدولة .. وهذه المقابلة ضارة وظالمة لكل من مصر الثورة ومصر الدولة !

حالة السيولة التي أدت إلى تعدد الأجندات ، وهي غير متطابقة في أهدافها ومن ثم في قيمها بل فيها ما يتقاطع أو يتعارض مع أهداف وقيم الثورة الأصل هذه الحالة من السيولة تستوجب عملية فرز ضرورية يجب أن تجرى بصدق بلا حساسيات .. فالشرعية الثورية التي استندت إليها الخطوات الرئيسية التي غيرت النظام بدءًا برحيل الرئيس ومرويًا بتعطيل الدستور وحل مجلسي الشعب والشورى وتشكيل لجنة أنجزت تعديلات دستورية للمواد الأكثر إلحاحًا ، وعرضها للاستفتاء ، ثم إصدار الإعلان الدستوري وما اقتضاه من تعديلات لقوانين الانتخابات الرئاسية ومباشرة الحياة السياسية والأحزاب كل هذه الخطوات التي استندت للشرعية الثورية إنما كانت ثمرة الثورة شبابية الأصل ، لا الأجندات التي تداخلت أو تقاطعت معها .. وهذا الفرز الواجب والضروري لحماية الثورة الأصل

ومنجزاتها لا يعنى مصادرة الأطياف الأخرى أو حقها فى التعبير عن نفسها وبرامجها وأفكارها ، ولكن خارج إطار الثورة الأصل وليس استلاباً لها !!!
وظنى لاعتبارات عديدة لا تفوت ، أن عملية الفرز ستم فى غياب قيادة موحدة محددة للثورة شبابية الأصل لن تمضى بسهولة ، بل ستصادف صعوبات جمة إن لم تكن مقاومة ممن يرون أن مصلحتهم فى اللحاق بركاب الثورة !!!

إن كثيراً من الأحداث التى طفت فى الفترة الأخيرة ، لا تتمى لقيم الثورة الأصل ، وغياب القيادة التى تقي هذه الثورة من التيارات المتداخلة المتقاطعة يوجب لمصلحة مصر الثورة ومصر الدولة ، الاحتكام إلى القانون واحترامه والتزام جميع الأطراف بسيادته والخضوع له .

ليس يخفى ، ولا عاد من المقبول أن ندارى أن الفارين من السجون ، ولا يزال آلاف منهم مطلقى السراح ، وبعضهم من غلاة الجانحين ، قد أطلقوا لأنفسهم الحبل على الغارب فى ترويع الوطن والأمن ، يتوازى معهم باتفاق أو توافق أو بالمصادفة أصحاب أغراض غلبتهم أغراضهم ومآربهم على مصالح الوطن وأمانه وأمنه ، واستباحة البعض الآخر الخروج على الشرعية إلى حد التمرد عليها ، وكل ذلك فضلاً عن أنه يضرب فى قيم الثورة ، فإنه يهدد بالدمار والإفلاس حاضر ومستقبل مصر ، ويؤدى إلى عراقب وخيمة ستحتاج مصر إلى سنوات طوال لمداواة أثارها المدمرة ، ما لم نسارع إلى وقف هذا التزيف ، وتضميد الجراح ، وحماية الدولة من الانهيار .

كان من قيم ثورة الشباب ، تغيير النظام وقد نجحت فى ذلك بامتياز بيد أنه لم يكن من قيمها أن تنهار الدولة .. انهيار الدولة يأتي على الأخضر

واليابس ولا يرتضيه أو يقبله أحد !!!

آن الأوان أن نلتفت لحماية الدولة ، فهي حقنا جميعًا .. وحق أولادنا وأحفادنا .. واجب علينا أن نسلمهم الراية خفاقة ليتابعوا مسيرة إصلاحية بناءة نرسم لهم خطوطها ونخطو غير وجلين ولا مترددين عليها ، لتبقى مصر المحروسة حقيقة لا شعارا ، ولنعوض السنوات العجاف ونعيد الدماء إلى الشرايين التي جفت !

من تراب الطريق

(٥٠٢) قيم الثورات (*)
(٣)

وإذا اتفقنا أن قيم الثورات ، تستمد من أهدافها ، فإن هذه الأهداف تترجم عن الاعتراض على واقع كان موجوداً ، اعتراضاً مقروناً بالرغبة في جبره وإصلاحه .. ومع التسليم بأن الأهداف قد تتعدد وقد لا تتفق اتفاقاً تاماً بين كل الفصائل المعنية بالوطن ، الأصلية في الثورة والمتداخلة معها أو لحاقاً بركابها إلا أنه يمكن مع ذلك الإشارة إلى أهداف رئيسية لا يقع عليها خلاف .. ومن واجبنا ونحن نريد أن نحمل الثورة من الأجندات المتقاطعة أو المتنافرة معها ، وأن نعوض غياب قيادة ملموسة لها أن نساعد بموضوعية وتجرد وإخلاص في التنويه إلى هذه القيم العامة المستمدة من الأهداف التي تغيت وتتغيا هدم القديم وإقامة بناء صالح جديد .

كان من عيوب بل كوارث النظام السابق ، أنه أضمر الالتفات عن الديمقراطية وإهدار ما تقتضيه من احترام وإعمال رأى الأغلبية من خلال مؤسسات تشريعية وتنفيذية تلتزم باحترام المبدأ ، وتلتزم معه باحترام الإنسان وحقوقه المتعارف عليها في كل دساتير العالم ، واحترام سيادة القانون وتنفيذه على الحاكم والمحكوم ، وكفالة العدالة بعامه والعدالة الاجتماعية بخاصة ، وحفظ حق المواطن قبل السلطات والهيئات ، وفيما بين الأفراد ، في ظل منظومة للعدالة لا تفرق ولا تميز بين المواطنين ، وتحترم حقوقهم وتكفل

حرياتهم وتضمن عدم المساس بها أو التعرض لها إلا من خلال إجراءات قضائية ينص عليها الدستور ويكفل التزام القانون والسلطات بها .

ويبدو لمن يستقصى أسباب الغليان وقيام الثورة ، ومن ثم أهم أهداف الثورة وقيمها ، أن النظام أعطى ظهره للقانون ، مثلما أعطى ظهره لقيمة وكرامة الإنسان .. ولأن النظام أراد أن يقدم واجهة للعالم وللناس خلاف ما يضمرة ويمارسه ، فقد عنى باستكمال الشكل ، والعبث في صلاته وعلاقاته ، دون احترام المضمون ، فكان أن تكرست ظاهرة التآمر على القانون بالقانون ، ونهض على ذلك ترزية للقوانين أجادوا التطريز والصياغة على هوى السلطة ، ليبدو في الظاهر أن السلطة تحترم القانون ، بينما القانون نفسه قد صار بالتطريز مهيباً لا يعبر عن المجتمع وصالح الناس . واللعب بالقانون أخطر من إهدار القانون ، لأن الإصلاح بعد ذلك يتطلب جهوداً مركبة من خلال تعديل القانون المطرز والرجوع إلى القانون الواجب ، ثم معالجة الأوضاع التي تنشأ في فترة تطبيق هذا الجنوح التشريعي !!

وكان من الطبيعي الذي لم يلفت السلطة في الحقبة المنقضية ، أن إهدار كرامة وحقوق الإنسان قد صار تبعاً ملازماً لعدم احترام القانون احتراماً حقيقياً ، وإباحة التآمر عليه باستيفاء الشكل والعصف بالمضمون .. فكان العصف بالحرريات قاسماً مشتركاً في أداء الإدارة بكل سلطاتها وهيئاتها وأجهزتها وأفرادها .. تجلّى ذلك في زيادة الاعتقالات وطول مدتها زيادة غير مسبوقه ، حتى امتلأت السجون بآلاف المعتقلين الذين وصلت مدد اعتقال بعضهم إلى ما يصل بل يجاوز العشرين عاماً ، وعمّت المظالم ، وصار التزام الصمت هو سبيل الأمان والزلفى أيضاً .. حتى قلنا : « إن نكتم ينشق

الصدر ، أو ننطق يفتح القبر .. وعلينا أن نختار !! وإذا كان هناك من اختاروا الإفصاح ، وهرينا بمقالاتنا الكاشفة إلى بعض صحف المعارضة لنشر ما تضيق به الصحف التي تحت سيطرة الدولة ، فإن الجو العام صار خانقا ، وعز التنفس على كثيرين ، وصار النظام مغلقا في وجه أصحاب الرأي والفكر ، مفتوحا للنفاق والمنافقين وأرباب الأهازيج والطبول ، وصار المشاركون أتباعا لا رأى لهم إلا ما يراود منهم أن يبدوه .. وغابت العدالة وعمت المظالم ولم ينبج إلا من وجدوا الحماية في جانب النظام الذي أجرى مصاهرة متينة وثيقة بين السلطة وبين الثروة ، حتى أمست السلطة في خدمة الثروة ، وصارت الثروة داعمة للسلطة ، واختلط العام بالخاص اختلاطا هائلا لم تشهده مصر في أى عهد من العهود !!

من تراب الطريق

قيم الثروات (*) (٥٠٣) (٤)

في هذه المصاهرة العريضة التي عقدها النظام السابق مع الثروة ، تغوّلت الثروة في شئون الوطن واغتالت مقدراته و ثرواته اغتتالا متنوعاً باركته السلطة وحتمه وسترته عليه ، ونحن نرى في التحقيقات والمحاكمات الجارية الآن ، بعض جوانب هذه الصورة البشعة التي أميط عنها اللثام وسبق أن حذرنا مراراً من توابعها في عشرات المقالات التي نشرت في الصحف المستقلة أو المعارضة ، وسنعود إليها حتى لا نقطع السياق هنا .. على أن زواج السلطة بالثروة ، وتبادلها التخديم والمنافع ، لم يخل من شر مستطير آخر ، فلم يلتفت النظام بجناحيه : السلطة والثروة إلى استئراء الفقر و وصوله إلى حدود مفزعة واتساع الهوة بشكل مخيف بين الفقر المدقع وبين الثراء الفاحش الذي بلغ حدوداً ومظاهر مستفزة ، غاب عنها العقل ، ما بين الأفراح الباذخة التي تنفق عليها الملايين ، وبين العيشة غير الآدمية التي يعيشها الفقراء في العشوائيات والمقابر ويتغذى عليها أطفال الشوارع في مقابل الزبالة .. قلة قليلة تنتعم بالذخ والترف وتلاعب بمئات الملايين ، وبالمليارات ، وكثرة كثيرة عز عليها الطعام والشراب واللباس .. أما العلاج فهذا ترف لا يجوز أن يأمله الفقير ولا أن يلتفت إليه أحد ، ولا تعنى به المستشفيات الحكومية التي فقدت أبسط مظاهر الاستشفاء والعلاج ناهيك عن استحالة توفير الدواء .. والعجيب أنه مع هذه الفوارق الضخمة المفزعة التي لم تتب عليها

العيون الضريفة مع أننا قرعنا الأجراس مرارًا !! من العجيب أنه فات أيضًا أن الثروة والفقر متجاوران في بر مصر .. جيرة يستحيل معها على الفقير ألا يرى مظاهر الثراء المستفزة التي تعابير فقره وجوعه وعريه وتعاسته وبؤسه .. فعشش الترجمان كانت قبالة الزمالك ، وكثير من العشوائيات على مشارف الأحياء الناعمة ، والعربات الفارهة تجرى بالشوارع بجوار العربات الكارّو وعربات الزباله المتهالكة التي يتساقط منها ما لا يلذ ولا يطيب ومع ذلك تسقطه أفواه الأطفال الشاردين في مقابل الزباله .. عن هذا الجوار القريب بين الثروة والفقر كتبنا في المال ١٢ / ٢ / ٢٠٠٩ ، وعن المصاهرة بين السلطة والثروة ، وبين المال والسياسة ، كتبنا في المال ٥ / ٢ / ٢٠٠٨ ، وعن المال ووظيفته الاجتماعية التي أهملتها الإدارة المصرية ، كتبنا في الأهرام ٨ / ٦ / ٢٠٠٨ ، وعن مخاطر تراكم الثروات ، كتبنا في المال ٢٦ / ٣ / ٢٠٠٨ ، وعن الإثراء بلا سبب ، كتبنا في المال ٤ / ٣ / ٢٠٠٨ ، وعن الاقتصاد الذي صار يغدق فقرًا ، كتبنا في المال ٢٢ / ٥ / ٢٠٠٨ ، وعن مصر التي سرقناها ، كتبنا في المال ٢٣ / ٦ / ٢٠٠٨ ، وعن العشوائيات الانتحارية ، كتبنا في الجمهورية ٢٨ / ١٠ / ٢٠٠٢ ثم في المال ١١ / ٩ / ٢٠٠٨ ، وعن لعبة السلطة والمال والنفوذ ، كتبنا في المصري اليوم ٣ / ٦ / ٢٠٠٩ ، وعن استحار الثروة بهذه الغفلة ! كتبنا في المال ٢٧ / ١٠ / ٢٠٠٨ ، وعن وجوب التطبيع مع المصريين ، كتبنا في المصري اليوم ٧ / ١ / ٢٠٠٨ !!!

ومع ذلك لم تتفطن الثروة ولا تفطن السلطة (المال ٢٦ / ١١ / ٢٠٠٨) ومضت الأمور على حالها ، حتى الإعلام أصابه العماء ، فجعل دون أن يدري يعرض في برامج خصصت للمطبخ ما لذ وطاب من أنواع المأكولات

الشهية والحلويات التي يسيل لها لعاب الشبعانين ، فكيف بالذين لا يرون اللحم إن رأوه !! إلا في المواسم والأعياد ، أو ما يتسرب إليهم عفواً في مقالب الزبالة من بقايا مأكولات المترفين في القصور والأفراح !!!

ووسط هذه المفارقات الصادمة ، لا تجد من تظهر يومياً على شاشات قنوات التليفزيون لا تجد بأساً أن تخرج على الناس في كل يوم ، وربما مرتين في اليوم الواحد ، بطاقم من أفخر الملابس ، فضلاً عن الحلي ، لا يتكرر ولا يعاد ارتداؤه ، على مدار ثلاثين عاماً رصد المراقبون أن ما ارتدي بأمس ، لا يمكن بعد ذلك ارتداؤه قط !! ولا يلتفت من يصورون هذه الصور والمشاهد اليومية إلى الناس ، أن الناس ترى وتلاحظ وتتعجب ، ولا يتبهون أن ما يعتلج في الصدور تتبادلهمهمسات وإن كتمت الإفصاح تحاشياً للتوابع والويلات !!

تستطيع أن تستخلص من ذلك ، وببساطة بلا عناء ، أن الحرية والديموقراطية والمساواة والعدالة الاجتماعية كانت ولا شك من أهداف ومن ثم قيم الثورة التي تفجرت في الخامس والعشرين من يناير ٢٠١١ ، يوم الاحتفال بعيد الشرطة ، وفي اختيار للتاريخ والمناسبة لا يفوت مغزاهما ، مثلما لا تفوت أهداف وقيم أخرى أرجو أن يمتد حديثنا عنها إلى المقال القادم إن شاء الله .

من تراب الطريق

قيم الثورات (*) (٥٠٤)

(٥)

كان مشروع التوريث ، ولحق به التشكيل الكارثي المزيف لمجلس الشعب في الانتخابات الأخيرة ٢٠١٠ ، والتي زورت تزويرا عنيفا على رؤوس الأشهاد كانا في مقدمة الأسباب التي فجرت الثورة .. عن مشروع التوريث والتحذير من عواقبه الوخيمة ، كتبت سلسلة مقالات للأهالي اعتباراً من ١٧/٨/٢٠٠٥ ، كانت الأولى بذلك التاريخ تحت عنوان : « رفقاً بأموال الفقراء !!! » تناولت فيه « الوهبة » أو « الهبة » التي تدفع لكل مرشح لرئاسة الجمهورية وقيمتها نصف مليون جنيه ، تدفع لكل مرشح من أموال الفقراء الكادحين لإعطاء صورة خادعة لانتخابات فارغة من المضمون ولا طحن لها ولا فائدة منها ، إلا أن تكون ورقة توت لستر انتخابات معروفة النتيجة سلفاً ، بعد أن حالت المادة ٧٦ التي عدلت في الدستور بمعرفة المطرزين ، لتقييم جداراً مسلحاً مصمماً إزاء الترشح فيما عدا الأحزاب الهشة التي سمح لمرشح كل منها بخوض الانتخابات ، وبشروط أيضاً ، وهي أحزاب هشة لأنها لو كانت أحزاباً حقيقية لما احتاجت إلى « وهبة » من كد وأموال الفقراء بزعم الصرف على حملة مرشحها المعروف سقوطه الذريع سلفاً .. لم يكن المقصود في تلك الانتخابات الرئاسية التي أجريت ٢٠٠٥ تحت مظلة لجنة ما أنزل الله بتشكيلها من سلطان ، لم يكن المقصود إنجاح الرئيس (السابق) محمد حسنى مبارك ، فلم يكن هناك منافس له ، وإنما كان المقصود هو الانتخابات

(*) المال ٢١/٦/٢٠١١

التالية المزمرع فيها ٢٠١١ ! تمكين الوريث من الركوب !!! كان المؤسف ولا يزال أن تدفع هذه الهبات لستر العورة ! من أموال البؤساء الذين يعيشون تحت خط الفقر في القرى والنجوع والداكر ، وفي العشوائيات والقبور .. هؤلاء الذين كانوا يتقيأون دمًا من جوع البطون ، ويستعيضون بالعظام عن اللحوم .. الذين يعانون من سوء التغذية ، وانعدام الغطاء ، ويقضون حاجاتهم حيث يأكلون وينامون ، ويشربون من حيث تشرب الكلاب والبهائم ، وتختلط أجسامهم بأجساد الموتى في سكنى القبور ، ويتلامس لحمهم وأنفاسهم في زنقة وتلاحم العشوائيات حيث ترتد النفوس إلى «الحيوانية» فينموزنى المحارم في رحم هذا التلاحم الحيوانى !

وفي الأسبوع التالى : ٢٤ / ٨ / ٢٠٠٥ ، كتبت مقالاً للأهالى أيضًا تحت عنوان : «مفارقات الانتخابات الرئاسية» ! تحدثت فيه عن الرقابة الاستباقية التى أعطيت للمحكمة الدستورية العليا لتمرير وتحسين قانون الانتخابات الرئاسية الذى صدر برقم ١٧٤ لسنة ٢٠٠٥ ، وهو يضع عينه أى القانون على الانتخابات التالية فى أكتوبر ٢٠١١ لترتيب الأوضاع لركوب الوريث ، ولم تفلح الرقابة الدستورية الاستباقية فى رتق أو ستر كل عيوب هذا القانون العجيب . وكانت النتيجة لهذا القانون الذى تعانق مع التعديل الشيطانى للمادة ٧٦ من الدستور كانت النتيجة الحيلولة بين القامات العالية وبين الترشح ، ولم يمر من «المصفاة» الشيطانية سوى مرشحي الأحزاب التى ضرب معظمها أو اتفقَ معه قبل إعداد وتنفيذ هذا السيناريو المستفز ! قلت وقتها إن المقصود هو انتخابات ٢٠١١ ، والمصادرة بحسبة برما على أى مرشح يمكن أن ينافس الوريث الذى ترتب لتركيبه الأوضاع !

لم يكن هذا هو كل الحصاد المر لمشروع التوريث ، فقد اقتضى إخلاء الساحة للتوريث بتبديد القامات المصرية ، سواء بتجميد الأوضاع حتى تتساقط القامات تباعا بمضى الزمن كما تتساقط أوراق الخريف ، أو الاختزال عند إجراء التغييرات التي أجريت آنذاك ، بالنزول بالأعمار في الاختيار من سن السبعينيات إلى سن الثلاثينيات وأول الأربعينيات ، لتسقط أجيال ثلاثة أو أربعة وتعدم كما تعدم خيول الحكومة ، لضمان عدم وجود أى منافس عليه الطلى للتوريث الجارى على قدم وساق تهيئة الأوضاع وترتيبها لركوبه . عن هذا كتبت مقالا مطولا للأهالى نشر فى ٣١ / ٨ / ٢٠٠٥ ختمته بصيحة قالت بحصر اللفظ :

«الاختزال الجارى هو اختزال لمصر، يبدد أغلى ثرواتها ، ولا يخدع أحداً أو يخفى سراب المرام المقصود ! .. ماجرى ويجرى بأباه العقلاء وتأباه الدول ذات الحضارات .. ليس يصح فى عقل عاقل ، ولا فى دولة عاقلة أن يقفز الاختيار لإدارتها هذه القفزة الهائلة من جيل الخمسينيات والستينيات والسبعينيات ، إلى جيل الثلاثينيات وأول الأربعين ؟! .. وكيف يجرى هذا ويصح فى عقل عاقل بينما رئيسها القادم يبدأ فترة رئاسته القادمة وهو فى السابعة والسبعين ؟! .. ألا يرينا هذا ويرى من لا يرى أن القفز عبر أربعة أجيال قفز غير مفهوم وغير آمن ، ويحرم مصر من «عصارة » و«زبدة » خبراتها ؟! إن ما يجرى الآن من تبديد الثروة البشرية من القامات العالية القيمة والمقدرة هو جناية على مصر قبل أن يكون تجنيا عليهم ! هذه الجناية لا يرتضيها مصرى يتقى الله فى أمانته ووطنه !

من تراب الطريق

قيم الثورات (*) (٥٠٥)
(٦)

استأنفت في ٧ / ٩ / ٢٠٠٥ في جريدة الأهالي أيضا سلسلة المقالات التي طفقت أكتبها عن التوريث والسلطة . فكتبت تحت عنوان : « عشق السلطة : من الذين يدفعون الثمن ؟ » !

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي كتبت فيها عن عشق السلطة ، فقد أرسلت رسائل من تحت الماء عبر معالجة ما تم في حكم معاوية بن أبي سفيان من مبايعة ابنه يزيد في حياته ، وكيف أحدث هذا شقاً لا تزال توابعه موجودة للآن . إلا أن الرسالة التي كتبتها في مقالات للجمهورية وروزاليوسف . هذه الرسالة لم يلتفت إليها المعينون أو تعالوا عليها ، فكتبتها واضحة صريحة في مقال نشرته الأهالي ٧ / ٩ / ٢٠٠٥ ، أعدت نشره بكتابي : شجون وطنية ط ٢٠٠٦ .. تحدثت فيه عن عشق السلطة ومظاهره وعيوبه وآفاته ، ثم تحدثت عن عشق الامتداد في الأبناء ، وأعدت رواية معاوية وبيعه في ولايته لابنه يزيد ، وتداعيات ما حدث في الحروب التي دارت بين بنى أمية وعبد الله بن الزبير بن العوام ، والذي تسلم قيادة المعارضة بعد مقتل الحسين بن علي في كربلاء ، ثم مع المختار الثقفي بعد ابن الزبير ، واستعرضت الدماء التي سالت بسبب عشق فكرة التوريث التي راققت لمعاوية ثم من جاءوا بعده ، والدماء التي سالت على جدار طلب السلطة

(*) المال ٢٢ / ٦ / ٢٠١١

حتى قتل الأب ابنه ، والابن أباه ، والأخ أخاه .. ولم يكن آخرها مصرع الأمين الذى قتله أخوه المأمون وعلق جثمانه نها للعيون ولتنهشه جوارح الطيور . لأختم بما جرى من تعديل شيطانى للمادة ٧٦ من الدستور للتهيئة لركوب الوريث تحت زعم أنها انتخابات لا تعيين ولا توريث . يومها كتبت أنهم يعلمون أن استحکامات التعديل الشيطانى للمادة ٧٦ من الدستور ، سوف تجعل الاقتراع على « واحد وحيد » - وأن هذا هو « التوريث بعينه » مهما اختلفت المسميات ومهما علت الأهازيج والطبول وأسدت الستائر على ما وراء الكواليس وأطلت بالونات الخداع !

تابعت بالمقال الذى نشرته الأهللى ١٤ / ٩ / ٢٠٠٥ تابعت طرح مخاطر قضية التوريث ، وكشفت العبث الشيطانى الذى جرى فى المادة ٧٦ من الدستور . ووصفته يومها بأنه « كالتريص » الذى يلجأ إليه لاعبو الكرة ، ولكنه هنا فى مصير وطن .. يومها ذكرت بأنه بينما تعلقت عيون الشعب بالانتخابات المرتقبة التى وُعدوا فى خطاب ألقى فى شبين الكوم بالمنوفية بأنها ستنتهى نظام الاستفتاء ، وتستبدله بالاقتراع الحريين أكثر من مرشح .. فى هذا الوقت الذى تعلقت فيه الأنظار بالأمل الموعود ، كان « الرقاصون » - « المطرزون » يعدون لشيء آخر ، أفرزوا فيه نصا شيطانيا ! استلزم عدة صفحات على خلاف النصوص الدستورية فى العالم كله !!!

يومها (١٤ / ٩ / ٢٠٠٥) كتبت فى المقال : التعديل الجهنمى التريصى للمادة / ٧٦ من الدستور ، يشترط فيمن يرشح فى الانتخابات الرئاسية القادمة التى قد تكون بعد عام أو عامين أو ثلاثة أو أربعة أو خمسة أعوام أن يكون عند الترشيح عضوا من عام متصل على الأقل فى الهيئة العليا

الحزب مضى على تأسيسه خمسة أعوام متصلة على الأقل قبل إعلان فتح باب الترشيح (لاحظ حكاية الخمسة أعوام متصلة على الأقل) ويشترط أن يكون هذا الحزب قد حصل فى الانتخابات الوشيكة (٢٠٠٥) وبالنظام الفردى على نسبة (٥ ٪) على الأقل من مقاعد المنتخبين فى كل من (لاحظ فى كل من) مجلس الشعب ومجلس الشورى !!

كتبت يومها أننى لست أحسب أن أحداً مهما كان تواضع فهمه يمكن أن يتوه منه التحريض المراد من سدنة التعديل مهما أطلقت البالونات وأساليب التمويه والترقيص والخداع !!!.. لن يكون ومن المحال أن يكون على المسرح إلا الحزب الوطنى ومرشح الحزب الوطنى «الوحيد» الذى يلح اليعاقبة على الدفع به دفعا لا يوجد فى بر مصر من لا يجزم به ويعرفه ويحدده من الآن ، ولا يدعون وسيلة لترويج التحريض إلا طرقوها ، باذلين فى نشاط جم كل الإمكانيات والترتيبات التى يراها الأعمى والبصير ، ويرى فيما يراه أن أخطر ما فيها وفى عملية «الاختزال» الجارية بهمة ملحوظة فى تحالف مع المال ولغته ورجاله ومصالحهم ، أنه يجزّ إلى تفجير صراع أجيال حين نقرب الموازين والمعايير ، ويركب الأبناء فوق الآباء ، ويُسَيِّع المعارض أو المستعصى إلى القبر حياً أو ميتاً ، فمقبرة الاستبداد والتكيا تسع الأموات والأحياء أيضا !!!

رب طيب حسن النية يقول ، دعنا من مخاطر ومحاذير التحالف مع رأس المال ولغته ومصالحه، ومن صراع الأجيال غير المغفور إثارته ، ودعنا من الأحزاب ، وشرط العضوية فى هيئتها العليا من عام على الأقل قبل الترشيح ، وشرط مضى خمسة أعوام متصلة على تأسيسها ، وشرط الحصول على الـ ٥ ٪

من نسبة مقاعد المنتخبين في كل من مجلس الشعب ومجلس الشورى .. دعنا من الأحزاب وشروط الأحزاب ، وليستخدم من يشاء حقه الدستوري كمستقل ، فالمواطنون بنص الدستور لدى القانون سواء .. فنكل مستقل حق الترشح ، ودعنا من الأحزاب وهم الأحزاب وحوائط انصد العالية جدا التي أقيمت أمام الأحزاب في الجولة القادمة التي انصرف إليها معظم عملية «الترقيص» !!

فليكن ، ولكن كيف ؟!! إن التعديل الجهنمي التعجيزي غير الدستوري للمادة ٧٦ من الدستور ، يشترط للمستقل المتقدم بغير حزب ، أن يتحصل على ٢٥٠ توقيعاً مؤيداً في تفريدة عجبية وحسبة أعجب كحسبة برما لا سبيل البتة للوصول إليها .. يلزم لقبول الترشيح أن يحصل المتقدم على ٢٥٠ توقيعاً مؤيده (لاحظ تؤيده لا أن تزكيه أو توافق على ترشحه) ، ويشترط في تفريدة هذه التوقيعات «المؤيدة» ألا تقل عن : ١ (٦٥) توقيعاً على الأقل من أعضاء مجلس الشعب المنتخبين ٢ (٢٥) توقيعاً على الأقل من أعضاء مجلس الشورى المنتخبين ٣ (١٠) أعضاء على الأقل من كل مجلس شعبي محلي للمحافظة ، ومن أربع عشرة محافظة على الأقل ، وبما مفده ألا يقل عن ١٧٠ توقيعاً مؤيداً ، اللهم إلا إذا حصل المتقدم على توقيعات تأييد لعدد أكثر من الحد الأدنى المقرر لأعضاء كل من مجلس الشعب ومجلس الشورى ، فيخفض عدد التوقيعات المؤيدة المطلوبة من المجالس الشعبية المحلية عن الـ ١٧٠ بقدر الزيادة في توقيعات أعضاء مجلس الشعب أو الشورى ، ولكن بشرط ألا يقل عدد توقيعات المؤيدين من المجالس الشعبية المحلية عن عشرة من كل محافظة ومن أربع عشرة محافظة على الأقل !!

ياقوة الله !

من تراب الطريق

قيم الثورات (*) (٥٠٦)
(٧)

ما هذا كله الذى دبجه يعاقبة التحريض والترقيص ؟! ، إنهم لم يكتفوا بهذه الترسانة وحوائط الصد لضمان «التعجيز» عن الترشح ، فجاوزوها إلى فرض «الاستحالة» بإخلاء الساحة لمقدم من يريدون ويحرضون على فرضه فرضاً ، فيضعون بالنص شرطاً جهنمياً يضمنون به للممة وتجميع كل التوقعات للمراد فرضه ، وإخلاء وإفقار الساحة من أى توقيع شارد يستطيع أى راغب ترشح آخر أن يحصل عليه ، فتورد المادة المحرضة وهى أطول مادة فى دساتير العالم إضافة للتوقعات المؤيدة وتفريدها وحسبة برما الموضوعية فيها بعناية شديدة .. تورد شرطاً آخر بالغ الغرابة والعجب والتعقيد والتعجيز والاستحالة ، فتنص نصاً على أنه : « فى جميع الأحوال لا يجوز أن يكون التأييد لأكثر من مرشح »!!.. فمن يوقع لشخص ، لا يجوز أن يوقع لغيره ، وهنا ينكشف المستور وتسقط آخر أوراق التوت ، وتتضح ألعيب هذا الدهاء والتمويه الترقيصى الذى يصادر مصادرة مكشوفة على أى راغب آخر فى الترشح ، ولا يحترم بهذه المصادرة حق المصريين فى المفاضلة والانتقاء ، بل ولا يحترم حق ومصير الوطن ولا عقول وأفهام المصريين !!! إن اللاعبين المهرة الذين حدثتك عن دورهم فى صياغة تعديل المادة ٧٦ دستور سنة ٢٠٠٥ ، المزيين المحرضين المتقنين لفنون «الترقيص»

(*) المال ٢٣/٦/٢٠١١

و«التحريض» كانوا يعرفون كما نعرف أن هذا الترتيب الجهنمي ، قد وقع في العديد من المخالفات الدستورية ، ويعرفون كما نعرف أن محكمتنا الدستورية العليا خليقة أن تعريها وبأن تحكم بمخالفة النص الدستوري والقانون المخدم عليه للمبادئ الدستورية العليا فهل كان من مصادفات المقادير ، أو تصاريف حسن النية ، السعى لاستبعادها أو المصادرة الاستباقية على رقابتها ، بإشراكها خلافا للدستور والقانون ولبدء الفصل بين السلطات في العملية التشريعية لقانون تنظيم الانتخابات الرئاسية رقم ١٧٤ لسنة ٢٠٠٥ المخدم على المادة ٧٦ المعدلة بالدستور ، وجعل رئاسة لجنة الانتخابات الرئاسية لرئيس المحكمة الدستورية العليا المنوط بها الرقابة الدستورية (اللاحقة) على القوانين وعلى التعديل الدستوري ذاته ، هذه اللجنة التي قضى النص المعدل للمادة ٧٦ من الدستور بأن تكون قراراتها نهائية ونافذة بذاتها وغير قابلة للطعن عليها بأى طريق ومن أى جهة ، كما لا يجوز التعرض هكذا قضى النص لقراراتها بالتأويل أو بوقف التنفيذ !

لقد أصدرت محكمة القضاء الإدارى ، فى سبتمبر ٢٠٠٥ ، ثلاثة أحكام يؤذن إصدارها بذاته بغض النظر عن الحكم فى كل منها يؤذن برباح أزمات قادمة فى الطريق نتيجة «هذه المصادرات» غير الدستورية التى جرت سنة ٢٠٠٥ ورامتها الصياغة التى لجأ إليها اليعاقبة المحرضون على دفع الأمور فى هذا الاتجاه الخطير الذى يمكن أن يؤدى إلى كارثة .. أحكام محكمة القضاء الإدارى الثلاثة ، قضى أحدها بأحقية منظمات المجتمع المدنى المصرية فى مراقبة الانتخابات سواء فى داخل اللجان أو خارجها خلافاً لما ارتأت له لجنة الانتخابات الرئاسية ، وقضى الحكم الثانى باستبعاد مرشح حزب مصر من

بين مرشحي الرئاسة لوجود نزاع جدى على رئاسة الحزب ، خلافاً لما ارتأته ثم أصرت عليه رغم الحكم لجنة الانتخابات الرئاسية ، وقضى الحكم الثالث الصادر مساء ليلة الانتخابات بقبول طعن عشرة مستشارين وقضاة شكلاً على قرارى لجنة الانتخابات الرئاسية بإلغاء نديهم واستبعادهم من الإشراف القضائى على الانتخابات رغم سبق نديهم من مجلس الدولة ، وإلغاء هذين القرارين للجنة الرئاسية ، وبوقف تنفيذهما بصفة مستعجلة بما يترتب عليهما من آثار وهو ما قضت به محكمة القضاء الإدارى مؤكدة فى مدونات حكمها اختصاصها بالنظر فى الطعن على القرارات المطعون عليها .

هذا القضاء الثلاثى ، بغض النظر عن مضمونه ، ينطلق من مبدأ أقرت به محكمة القضاء الإدارى لنفسها صلاحية النظر فى الطعون فى قرارات لجنة الإشراف على الانتخابات الرئاسية وإعمال رقابة المشروعية عليها !

على أنه يبقى ، هكذا كتبت فى ١٤ / ٩ / ٢٠٠٥ وسوف يبقى ، السؤال المثار الواجب الإجابة عليه عن أثر المصادرة الاستباقية التى صيغت بدهاء سنة ٢٠٠٥ فى تعديل المادة ٧٦ من الدستور وفى القانون ١٧٤ / ٢٠٠٥ ، حين أشركت المحكمة الدستورية كلها فى التشريع الذى تباشره السلطة التشريعية ، بينما موكل إليها الرقابة اللاحقة بأن تنظر فيما قد يُطعن به على هذه النصوص من عدم الدستورية ، وحين جعلت أى الصياغة رئاسة لجنة الإشراف على الانتخابات الرئاسية إلى المستشار الجليل رئيس المحكمة الدستورية العليا المنوط به وبها الرقابة اللاحقة على دستورية النصوص القانونية أو الدستورية !

حاول اليعاقبة إجراء بعض الرتق فى المادة ٧٦ من الدستور التى فاحت رائحة ما أجروه فيها سنة ٢٠٠٥ ، فأجروا فى ٢٦ مارس ٢٠٠٧ تعديلاً

للفقرتين الثالثة والرابعة للمادة المذكورة ، فاشترطت الفقرة الثالثة في الحزب أن يكون قد مضى على تأسيسه خمسة أعوام متصلة النشاط على الأقل قبل فتح باب الترشيح ، وأن يكون قد حصل في آخر انتخابات على نسبة ٣٪ على الأقل من مجموع مقاعد المنتخبين في مجلسي الشعب والشورى ، وأن يكون مرشحه من أعضاء هيئته العليا من سنة متصلة على الأقل ، وللتجميل ساقط الفقرة الرابعة «استثناء» يميز الترشيح للأحزاب التي حصل أعضاؤها بالانتخاب على مقعد على الأقل في أى من المجلسين بآخر انتخابات !

ليس بوسع منصف عاقل أن يمارى في أن المراد الذى صيغ ووضع ، غير الدعوة التي أطلقت وفرح ورحب بها المصريون ، وأن الأمور قد فارقت الواجب الذى تعلقت به الدعوة وأفئدة وآمال وحقوق المصريين ، وفرضت شيئاً آخر لا يخطئه الأعمى والبصير ، خلاصته وفحواه ومؤداه المصادرة التامة على أى ترشح لأى مصرى خلاف من سيرشحه الحزب الوطنى في الانتخابات الرئاسية التالية ، والتمويه لإسباغ صفة «الانتخاب» و«الاقتراع» على ما سوف يكون رغم أنه بمرشح واحد وحيد لا منافس له ، تهرباً بمنطق النعامة التي تدفن رأسها في الرمال ظانة أن أحداً لا يراها ! من «المسمى» و«الوصف» الحقيقى لما يجرى الترتيب له !!

من تراب الطريق

قيم الثورات! (*)
(٨)

من الطبيعي أن تكون مقاومة التوريث ، في مقدمة أهداف ومن ثم قيم ثورة ٢٥ يناير ٢٠١١ .. وقد تجلّى هذا في محاولات التهدئة والامتصاص التي بُذلت قبل ترك الرئيس السابق لمنصبه يوم ١١ فبراير ٢٠١١ . بيد أن هذه المحاولات لم تفلح لأن حجم تراكمات المشروع قد أقام جبلاً ضخماً من سوء الظن لم تعد تجدى في إزالته وعود !! وساهم في سوء الظن وعدم تقبل الوعود الانتخابات الأخيرة لمجلس الشعب ، وهي فريدة في نوعها ، لا لأن التزوير جديد على أسلوب الإدارة المصرية في إجراء الانتخابات ، وإنما لأن التزوير هذه المرة كان فاضحاً جهيراً وزاعقاً ولازمه عنف يعلن عن التزوير بالقوة والإكراه .. فلم يعد هناك حياء لا خشية من التزوير وعواقبه ، وعزّ على النظام أن يعلن بوضوح حقيقة ما جرى ، وأن يسلم ببطلان تشكيل مجلس نيابي أحاطه البطلان من كل جانب ، ولم تعد لديه البصيرة التي انطفأت شمعتها من زمن ، ليدرك آثار هذا التزوير الفاحش ، ولا تداعيات من أسقطوا كرهاً وردود أفعالهم التي تحولت إلى حراب تضرب بقوة ولها كل الحق في النظام .. ولكل هذه الأسباب التي يعانيتها الشعب برمته ويتجرعها من سنوات ، فإن ثورة الشباب لاقت تأييداً من كل طوائف الشعب وأطيافه ، ومن كل الأعمار والمهن والحرف ، ومن النساء والأطفال ..

(*) المال ٢٧/٦/٢٠١١

وبدأت أهداف الثورة تتجلى من الأيام الأولى ، وتلتقى مع مطالب وآمال الشعب .

إن التزوير الفاحش الذى حصل فى انتخابات مجلس الشعب ، ومن قبله مجلس الشورى ، طرح ويطرح بشدة واحداً من أهم أهداف ومن ثم قيم الثورة ، وهو رعاية الديمقراطية لتكون واقعاً حقيقياً يلزم الحكم والحكومة والإدارة التى استسهلت على مدار عقود تزوير إرادة الناخبين والعبث بها وتزييفها .. ومن البديهي أن تطرح هذه القيم المأمول فى تحقيقها وجوب وضع دستور جديد وصالح للبلاد ، يتلافى ما كشف عنه دستور ١٩٧١ من ثغرات استغلت أسوأ استغلال ، وتقيم بناءً دستورياً يوافق ويتفق مع آمال مصر ويكفل توازن وحقوق السلطات وحقوق شعبها التى اغتيلت طويلاً !!

وغنى عن البيان أن وضع دستور جديد للبلاد مهمة دقيقة ليست من العلم العام ، وتحتاج فضلاً عن استقراء اتجاهات الشعب إلى متخصصين ليس فقط فى القانون أو الفقه الدستورى بخاصة ، وإنما تحتاج إلى تخصصات مختلفة تتضافر وتجمع بين القانون والسياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم ، وأداء هذه المهمة يستلزم اختياراً دقيقاً خالصاً متجرداً يتتقى أفضل العناصر فى كل تخصص ، ويوافق اطمئنان الشعب إلى توجهات كل منهم ، ثم يستلزم توفير الوقت والإمكانات والظروف لحسن القيام بالمهمة ، وهى تستلزم أولاً وضع الخطوط العريضة متضمنة المبادئ التى تعبر عن النظام الدستورى الذى يستقر عليه الرأى ، هل البرلمانى أو الرئاسى أو مزيج من النظامين ، مرعى فى كل اختيار الظروف والأحوال المصرية ربما تحتاجه وتستلزمه .. وهذه المبادئ أو الخطوط العريضة ينبغى طرحها للنقاش

العام وينبغي أن تمر على الشعب أولاً في استفتاء لا يأخذها جملة أو حزمة واحدة، وإنما يجب التفصيل لتأتى نتيجة الاستفتاء معبرة عن الرغبة الشعبية في كل عنصر .. فهل الأفضل مثلاً نظام المجلسين البرلمانين أو المجلس الواحد، وحدود مهمة كل منهما في حالة ترجيح نظام المجلسين، وهل مثلاً يكون نائب الرئيس بالتعيين أم بالانتخاب، وهكذا .. ثم يلي بعد الاستفتاء والاتفاق على النظام الدستورى وخطوطه العريضة، ترجمة ذلك في نصوص، وصياغة النصوص عمل فقهى لغوى له أربابه، فإذا انتهت الصياغة توجب أن تعرض في استفتاء بذات النظام التفصيلى الذى يتيح بيان الرأى في كل عنصر، ويضمن اتفاق النتيجة مع الرغبة الشعبية المنوط بلجنة وضع الدستور التعبير عنها .. وكما ترى فإن هذا العمل يحتاج بالضرورة إلى أهله، وذلك يستوجب التقاء الإرادة الشعبية مع الجهد التخصصى الفنى والفقهى، فى اتساق لا تربص، ويأتى الاتساق حين يكون اختيار اللجنة موافقاً للإرادة الشعبية معبراً عن مجملها ..

لقد طرحت فى البداية أن ثورة الشباب أنجزت مهمتها الرئيسية بلا قيادة، ساعد على ذلك فى ظنى أن الشعب كله قد التقى على الأهداف ومن ثم القيم العامة للثورة، ولكن الحرص على الثورة وقوة دفعها يستوجب الفرز الدقيق بين قيمها وبين الأهداف التى تداخلت معها أو أرادت ركوب الظرف لسبب أو لآخر .. فلم يكن من قيم الثورة وأهدافها حرق مجمع محاكم الجلاء وسراى الحقانية بالإسكندرية أو مبنى الشهر العقارى ومبنى النيابة الإدارية بالأزبكية، ولا مdahمة واقتحام سبعة سجون ولييانات فى توقيت واحد وإطلاق ما يزيد على ٢٣ ألف سجين بعضهم من الخطرين جداً على

أمن الوطن ، ولا كان من قيم الثورة وأهدافها مهاجمة وحرق وسرقة سلاح
قراية أربعين قسم ومركز شرطة ، أو السطو على المتحف المصرى فى ميدان
التحرير ، أو الاستمرار فى مهاجمة بعض المراكز والأقسام لتهريب سجين ،
ناهيك عن حرق الكنائس وأعمال البلطجة التى طفقت تضرب أمن مصر
والمصريين .

وإذا كان فرز وتنحية هذه الجنوحات سهلاً ، لأنها ظاهرة التنافر مع
أهداف الثورة وقيمها ، وقد يكون واضحاً بالنسبة لمطالب بعض الطوائف
وخلطها عمداً أو استغلالاً بالثورة ، إلا أن الأمر يدق بالنسبة للمظاهرات
والاعتصامات الفتوية . فظاهرها أنها تتفق مع أحد أهداف الثورة وهو
تحقيق العدالة الاجتماعية ، بيد أن هذه العدالة الاجتماعية لا تؤخذ جزءاً
جزءاً ، وإلا انتهت إلى مظالم أو مفارقات أخرى تعطى للأعلى صوتاً أو
الأكثر ضغطاً على حساب الأخفض صوتاً أو الملتزم بالنظام حماية للثورة
وأمن الوطن . تحقيق العدالة الاجتماعية يستلزم نظراً عاماً يرى الصورة
بأكملها ، شاملة إمكانيات البلاد ، وما يمكن تدبيره ، وشاملة خريطة عامة
لكل الفئات ، يجرى عليها تسكين يتفق مع العدالة الاجتماعية المأمولة ،
وهكذا فإن قيم الثورة غاية بالغة الأهمية يجب أن يتضافر الجميع ويتعاونوا
فى كفالتها وتحقيقها .

كيف ؟ هذه مسألة تحتاج بدورها إلى تأمل وبيان .

من تراب الطريق

قيم الثورات ! (*)
(٥٠٨)
(٩)

المتابع للأحوال منذ ٢٥ يناير ٢٠١١ ، حتى الآن ، يلاحظ تداخل
أجندات متقاطعة وبعضها متنافر مع الثورة الصافية الخالصة التي قامت
لأهداف وقيم اتفق عليها مجموع الشعب المصرى الذى غلبَ انتماؤه لمصر
الوطن ، على الانتماءات السياسية أو المذهبية أو الطائفية أو الحزبية أو
الفتوية . دخلت هذه الأجندات بخرائطها استغلالاً لحالة الثورة ، فارتدت
بقصد أو بغير قصد عليها ، وجعلت تعرقل مسيرة خطواتها التي أنجزت
جزءاً كبيراً من مهامها تجلّى في سقوط النظام ، وبقي أن تحتفظ بقوة الدفع
لتحقيق الإصلاح المنشود وما يستلزمه من بناء متعدد الجوانب .. لقد قامت
الثورة لإنصاف الإنسان أو إن شئت المواطن المصرى ، وكفالة حقوقه مع
تنظيم واجباته في إطار يكفله الدستور ويرسمه القانون . بيد أن الثورة لم
تقم للتحيز لأحد قبل أحد ، ولا لنصرة مسلم على مسيحي أو مسيحي على
مسلم ، أو مهنى على حرفي أو العكس ، ولا لدعم حزب في مقابل أحزاب ،
أو طائفة إزاء طائفة ، أو مذهب في مقابل غيره من المذاهب .. وهذا الموقف
جناحه العدالة والمساواة ، فغيرهما تتسرب الانحيازات وتعم المظالم التي
قامت الثورة لمواجهتها والقضاء عليها بالعدل والقسطاس . لم تقم الثورة
لتستبدل الظلم بالفساد .. فكلاهما مكروه .. من عانى الظلم وكابده يأبى

(*) المال ٢٨/٦/٢٠١١

إيقاعه بغيره ، فالقيم والمبادئ لا تتجزأ ولا تتبضع ، والمتهم برىء حتى تثبت إدانته بحكم قضاء لا يصدر إلا بعد تحقيق الدعوى وسماع دفاعه إزاء أدلة الاتهام .. والترجيح بينهما للوصول إلى شاطئ العدالة التى دونها الضياع .. هذه العدالة قاسم مشترك بين الدساتير والقوانين الوضعية والأديان السماوية .. هذا العدل لا يُجب ولا يجوز أن يُجب عن أحد .. يعرفه المسلم ويعرفه المسيحي ، وتحض عليه المسيحية كما يحض عليه الإسلام .. فالله عز وجل من أسائه العدل ، وهو يأمر بالعدل والإحسان ، وينهى عن الظلم ، ولا يخص أحداً بالعدل مهما كانت قرابته ، أو يجرمه من آخر أيا كان شأنه .. العدل قيمة فى ذاته يُضفى على الضعيف قبل القوى ، والفقر قبل الغنى ، والمحكوم قبل الحاكم ، والمتهم قبل الشرطى ، والمريض قبل المعافى .. لا يحول بين الشاهد أو القاضى وبين الإقرار بالحق أن يكون هو المشهود عليه أو على أحد من ذويه وأقاربه الأقربين .. ﴿

﴿ [النساء : ١٣٥] ..

بل إن إنصاف الشانى واجب ، ولا يسقط جنوحه أو شأنه واجب معاملته بالعدل ، فيقول الحكم العدل فى كتابه العزيز : ﴿



[المائدة] .

من المظاهر المتقاطعة الآن مع العدالة ، وهى من أهم أهداف الثورة وقيمها فوضى البلاغات .. ولست أعنى البلاغات الصادقة ، فتقديمها واجب ، وتحقيقها أوجب ، والمساءلة عنها لا ترخص فيها .. ولكن إلى جانب

البلاغات الصادقة ، توجد بلاغات كاذبة ، وتوجد بلاغات ثأرية أو انتقامية أو كيدية ، وتوجد بلاغات مجهولة المصدر ، مع أن الأصل أن يكون المبلغ واثقا في موضوع بلاغه ، وهذه الثقة لا تبرر له التخفى وحجب نفسه وبث ما يريده من وراء ستار .. إن التجهيل بالمبلغ هو دليل الأدلة على الكذب والكيدية ، وكنا قبل الثورة لا نلتفت إلى البلاغات المجهولة ، فكذبها واضح ثابت من عنوانها .. ولم يعد حسب البلاغات ما داخل بعضها ونسبته للأسف ليست قليلة من كذب وكيدية واصطناع وتلفيق، وإنما صارت تجد طريقها بعلمها إلى صدر الصحف .. مع أن الأصول ومواثيق الصحافة والإعلام لا تبيح النشر إلاّ للأبناء القضائية .. وهذه الأنباء تكون قد مرت قبل إخراجها إلى الناس «بمصفاة» تتمثل في التحقيقات وما تفرزه من حقائق هي فقط التي يجوز بثها ونشرها، أما البلاغات فهي لا تعدو ادعاءات أو اشتباهات لا يجوز تصديرها من فم أصحابها إلى الناس .. إلاّ بعد أن تخضع للتمحيص والبحث والتحقيق وفرز الصادق من الكاذب والصحيح من الباطل .. غير ذلك نار تأتى على الجميع ، لأنها تقذف بأعراض وكرامات وشرف واعتبار الناس إلى أتون التدمير النفسى والمعنوى والمادى ، وقد يكون المضرور بريئاً بما قذف به البلاغ كذبا ! فى حقه .. إن القرآن الحكيم ضرب مثلاً لوجوب التيقن قبل قبول الروايات أو الادعاءات فقال إن بعض الظن إثم .. وفى قصة مشهورة ، نزل قول الحكم العدل تبارك وتعالى : ﴿

﴿الحجرات﴾ .

من ينشد العدل ، لا يقبل الظلم ، ولا يضيق بالإجراءات التي ترعى حق المتهم أو المشتبه فيه فى أن يبدى دفاعه ويحققه ، فإن كان بريئاً فهذا حقه لا

يضيق به العادل ولا ترفضه العدالة أو تأباه ، فإن ثبت العكس فحق العقاب قائم لا خوف ولا خشية عليه ، وتكون الضمائر قد استراحت بما بذلته من فرصة عادلة لتحقيق الدفاع قبل القضاء بالعقوبة . العدالة في مقدمة أهداف الثورة وقيمها .

من تراب الطريق

قيم الثورات ! (*)
(١٠)

هل هو مبكر أو متعجل ، أن يطرح الآن تناول قيم وأهداف الثورة والسييل إلى كفالتها ؟ ربما كان هذا السؤال صحيحا لو اتحدت الثورة والإدارة من خلال قيادة محددة للثورة معنية بها وموكل إليها في ذات الوقت إدارة الأمور . عند ذاك يتسع الوقت والفرصة للتصحيح أو التعديل أو المداركة أو التطوير ، لأن رؤية الثورة هي رؤية الإدارة . وقد اتسعت الفرصة والوقت لمثل ذلك في ثورات تاريخية معروفة ، مثلما رأينا مثلا في ثورة يوليو ١٩٥٢ . ولكن ثورة يناير ٢٠١١ أدت وأنجزت دون قيادة ، وتعذر لاعتبارات عديدة لا تفوت والمحن إلى بعضها تعذر أن تتشكل لها قيادة محددة متفق عليها ، فصار من المهم أن يبقى جسر للتواصل بين أهداف وقيم الثورة ، وبين الموكل إليهم إدارة شئون البلاد .. وهذا الجسر ينبغي أن يحمل الأهداف والقيم الحقيقية الأصلية لا الدخيلة أو الملموسة أو المدعاة ! ونحن في هذا أشد ما نكون حاجة إلى التفكير والتأمل والبحث ، لا إلى الاندفاع والمزايدات !

من أخطر ما تواجهه ثورة يناير ٢٠١١ ، محاولة الركوب عليها بدعوى الاهتمام بتنفيذ ما تحدده قيادتها وقد كان يمكن بل ويجب أن يكون هذا مقبولا بل ومطلوبا ، إذا كان لهذه الثورة قيادة قائمة ومحددة متفق على أنها القائدة والمعبرة عن الثورة . بيد أن هذه الثورة كانت زخما عاما من المستحيل

تعيين قيادة محددة متفق عليها لها ، ومن ثم تنحل هذه الدعاوى المطروحة الآن إلى محاولات للركوب على الثورة وسرقتها بزعم التعبير عنها !
وحماية الثورة من هذه الدعاوى أو محاولات الركوب والسرقة ، لا يعنى أن الثورة قد باتت هدرًا بلا طحن .. فقيم الثورة المستقاة من أهدافها قائمة وظاهرة ومتفق عليها ، والالتزام بإعمالها متاح وواجب دون حاجة إلى وصاية يدعيها أحد !!

لا مرأى في أن الأداء الأمنى كان في مقدمة أسباب ثورة يناير ٢٠١١ ، بل ولعل اختيار يوم ٢٥ يناير لبداية الثورة ، كان اختياراً مقصوداً لتوصيل رسالة ذات مغزى . وحين يكون أداء الأمن من أسباب الثورة ، فإن مواجهته بما يقتضيه من علاج وإصلاح ينضوى في أهداف ومن ثم قيم الثورة .
وفي ظنى أن مراجعة الأداء الأمنى لا تعنى إلغاء الأمن أو مقتضيات الحفاظ عليه ، فالأمن ضرورة للجميع : الوطن والشعب .. لا غناء عنه للاستقرار ، وهو إذا استقام أداؤه ضمان أمان الحياة والأحياء . فالاعتراض كان على الجنوح والتجاوزات لبعض الأجهزة الأمنية أو لبعض أفراد الأمن ، ولم يكن اعتراضاً لدور الأمن ما التزم بالحق واحترم حرية وكرامة وأدمية الإنسان .

كان أفدح ما وقع فيه الأداء الأمنى ، أنه في تجاوزاته المتكررة التى صارت أصلاً فاته الخيط الرفيع للتوازن الواجب بين أمن الوطن وبين أمن وكرامة المواطن فليس يجوز أن يطغى جانب على جانب ، ولا أن يحتج بأمن الوطن أو النظام !!! للجنور على كرامة المواطن وأمانه الشخصى الذى يحفظ احترام حريته وحقوقه وإنسانيته .. وقد ضخم آثار غياب هذا التوازن أن الأمن

أكثر «إدارات» الوطن احتكاكا بالمواطن في شتى شئون حياته من الميلاد حتى الوفاة .

هناك خيط رفيع ، كتبت عنه للأهرام ٥، ١٢/ ١٠/ ٢٠٠٦ بين حماية الأمن وتقويض الأمان ، فتزايد الأعباء الأمنية التي لا يبارى أحد في عراضتها ، قد يدفع أو يغري بتجاوزات تقوض الأمان الفردي بدعوى تحقيق الأمن بتعقب الإرهاب والجنوح تعقبا غليظا ! وقد يبدو هذا المنطق مريحا لمن يتبناه ، لأنه يعفيه من أعباء الالتزام بأصول التحقيق والاستدلال وبحث واستقصاء أدلة الجريمة طبقا للأصول التي تحفظ للأبرياء كرامتهم من أن تطولهم إجراءات ثقيلة لا يقرها القانون . وقد دعوت في مقال الأهرام إلى وجوب التفات الإدارة الأمنية ومراعاة الخيط الرفيع بين حماية الأمن العام وتقويض الأمان الشخصي ، وحذرت من أن التجاوزات الأمنية التي كانت كثيرا ما تطول أسرا برمتها بحثا عن واحد منها تؤدي إلى تراكم تلأل ثم جبال من الغضب والحقد والثورة المحتبسة التي تتلمس فرصة للانفجار ، طاوية في حناياها وهذا نص عباراتي آنذاك ضغنا إزاء التجاوز وأصحابه ، وكراهة للمحيط كله الذي يرى ويسمع ولا يعارض ولا يحاسب ! وهو ما كان ، ولم يلتفت إليه أحد حتى فجأت الثورة حكام البلاد بما لم يكن في الحسبان !

إصلاح الأمن كهدف ، لا يعني أن يكون صاحب الهدف قادرا بالضرورة على اختيار الكيفية وتحديد الأسلوب والوسائل ، فهذه المهمة تحتاج إلى خبرة وتعامل دقيق بحسابات وموازين وإمكانات ، ويستحيل أن تكون أرضا لتعامل عشوائي غير مدروس ، وغياب قيادة عن ثورة يناير ٢٠١١ ، وتعدد

أطياف أو أجندات ما تلاها ، قد اقتضى أن تضطلع الدولة بعد سقوط النظام السابق بالتصدي للإصلاحات المرجوة مع استلهاهم روح الثورة وأهدافها العامة وقيمها وزخمها ، وفي معتقدى أنه يتوجب ابتداءً تحديد دور الشرطة تحديداً لا يخلط بين الدولة والنظام .. فلا خلاف على أن حماية الدولة تدخل في حماية الوطن والمواطن ، وأن النظام داخل ضمن عناصر الدولة ، ولكن ذلك يجب أن يكون في إطار الشرعية مع التيقظ لعدم استغلال الأمن استغلالاً يتحول إلى فرض شوكة للنظام على حساب الشعب . واعتقادى أن التباس هذه المنطقة هو الذى أدى طوال قرابة قرن ، إلى تجاوزات الشرطة والموقف النفسى الشعبى منها ، برغم شعار أن الشرطة فى خدمة الشعب فلم يقتنع الناس قط بأن هذا الشعار واقع أو يمكن أن يكون واقعاً ، بسبب بسيط واضح هو تعارف الجميع على أن الشعار مطروح فى إطار التجمل وليس الالتزام !

من تراب الطريق

(٥١٠) قيم الثورات ! (*)

(١١)

إن استخلاص رؤية موضوعية صافية للإصلاح الأمنى خالصة من الشوائب قد صار مهمة صعبة ، وأقول « صار » لأن الأمر لم يعد مقصورا على الميراث غير المحبوب لتعاملات شتى تجاوزت وجنوحات ليس فقط في الثلاثين سنة الأخيرة ، وإنما من قبلها بكثير حتى هرب العمار بين الناس وبين الشرطة برغم الإقرار بلزومها لتحقيق الأمن والأمان . وقلت « صار » لأن التعامل مع ثورة يناير ٢٠١١ قد صاحبه من البداية عنفٌ شرطى مفرط ، أدى إلى مواجهات دامية ، ثم انفلتت المواجهات إلى دهس المتظاهرين بالسيارات والانزلاق إلى القتل العمدى الذى اشترك فيه قناصة متخصصون أدوا دورهم من على أسطح المنازل حول ميدان التحرير . ومن الصعب إذن إزاء هذا الرصيد المر الذى كان للأداء الشرطى فى مواجهة الشعب، استخلاص رؤية صافية خالصة من هذه المرات .. وزاد من الالتباسات ليس فقط ما صدر من المتظاهرين فى دفاعهم المشروع عن أنفسهم من ردود أفعال صاحبها قلب وحرقت عربات مدرعة للشرطة ، وإنما تداخلت أجنادات من خارج الثورة قامت بالهجوم على قرابة الأربعين من مراكز وأقسام الشرطة وحرقتها ونهب وسرقة أسلحتها ، فضلا عن مdahمة هذه الأجنادات غير المنتمية للثورة لسبعة سجون ولييانات فى وقت واحد وإخراج مساجين وصل تعدادهم إلى ما يزيد على ٢٣ ألف سجين لا يزال نحو تسعة آلاف منهم فارين .. يمارسون

مع غيرهم ممن انفلت عيارهم كل أنواع البلطجة وترويع الناس والتعدي عليهم بالقتل والسرقة والاغتصاب ، في الوقت الذى اختفى فيه دور الشرطة تمامًا فيها بعد البداية اختفاء أثار ولا يزال يثير كثيرًا من الالتباسات ، ولم تعد التفسيرات بمنأى عن الشوائب المتخلفة عن المواجهات التى جرت في دفاع الشرطة عن مقار وأسلحة الأقسام والمراكز ، أو ما قيل ويقال عن أن تهريب المساجين كان مقصودًا لإشاعة الفوضى وإفشال الثورة ، وهو افتراض صعب التصديق وتناقضه شواهد ، ومع ذلك بقى الظن واحدًا من الالتباسات التى تزيد الاستخلاص الموضوعى صعوبة ، ولم يعد بوسع كثيرين التسليم بأن إحجام الشرطى الآن عن المواجهة حين تكون واجبة يمكن أن يكون مرده إلى الخوف من المسؤولية بعد أن غاب لفترة الإقرار بواجب الدفاع الشرعى للشرطى سواء فى صد الاعتداءات أو فى الدفاع عن الشرعية ، وهو واجب الشرطى الفرد البعيد بداهةً عن التنظير الذى يمارسه أهل الرأى . فالإقرار لجندى الشرطة أو القوات المسلحة بحق التنظير والمراجعة ، يؤدى إلى انفلات الشرطة أو الجيش ، لأن كليهما يقوم على هبة القائد ووجوب تنفيذ الأوامر . ومع ذلك فإن المواجهات التى تمت فى الدفاع عن مقار وأسلحة الشرطة أو الليمانات والسجون والمرافق العامة قد وصلت إلى حد وقوع قتلى من الجانبين ، وبرغم حجة المدافعين أنهم يقومون بالواجب بخلت المعالجات وأحجمت عن وصف قتلاهم بالشهداء لمجرد أنهم ينتمون للشرطة ، فى الوقت الذى فاز بوصف الشهادة ليس فقط شهداء الثورة وهذا حقهم وإنما جانحون هاجموا وحرقوا فضلا عن السجون ومقار الشرطة مجمعات محاكم ونيابة إدارية وشهر عقارى وبنوكًا ومرافق عامة ولم ينبج منهم المتحف المصرى .

لا جدال في أن تقييم ما جرى يحتاج إلى بحث وتحقيق ودراسة ، ويحتاج بالتالي إلى وقت ، ولكن ما أعنيه هنا هو أثر هذه الالتباسات بشوائبها على صعوبة استخلاص رؤية صافية خالصة لدور الأمن الآن وبعد الآن !

ومع ذلك فمن المهم أيضاً الاتفاق على مبدأ لا يقع عليه خلاف ، هو أهمية الأمن والأمان للوطن ، ولزوم وضرورة الشرطة مع غيرها في تحقيق الأمن والأمان للوطن وللناس . فإذا اتفقنا على ذلك ، فإن مقتضاه ينقلنا إلى كيف . يدخل في هذا نظرية الأمن بعامة ، ودور الأمن وعدم الخلط فيه بين الدفاع عن الدولة ككيان وهذا واجب ، وبين ممالأة الحكومة والحكام حتى مع ظهور تجاوزاتها وتجاوزاتهم ، وخروجها وخروجهم عن الشرعية . ومقتضاه أيضاً مراجعة تأهيل وتدريب الشرطى بعامة ، فنيا وبدنيا ونفسيا ، وهو تأهيل تقتضى الموضوعية أن يواكبه وفي إطار مصالحة واجبة اقتناع المواطن بدور الشرطة وأهميته لأمنه هو وأمن المجتمع والبلاد .

ربما عدت إلى تناول هذه الأمور بتوسع أعرض وأعمق ، ولكنى لا أريد هنا والآن أن أفلت وجوب إيضاح أن «ضرب الأمن» ليس ولم يكن من أهداف الثورة وقيمها ، وأن ما حدث كان بفعل الظروف أحياناً ، وبفعل تداخلات غريبة عن الثورة في أحيان أخرى ، وأنه من المهم لنا وللوطن أن نجلى أن المصالحة بين الشرطة والشعب واجبة ، وأن دور الأمن لازم ، ولازم معه احترام حرية وكرامة وحقوق المواطن ، وأن كلاً من الشرطى والشعب في خدمة الوطن ، وأن نعيد إلى الساحة وبوضوح الإقرار بمبدأ حق بل واجب الدفاع الشرعى ، فلا غناء عنه لضبط الأمور ، وتحقيق الأمن والأمان ، لأن من لا يضمن احترام وتطبيق مبدأ الدفاع الشرعى ، يتراجع عن حقه بل واجبه ، ويفرط فيها إثارةً للسلامة !!

إن الارتفاع بالمستوى الإنساني للملاحقة والتعامل والمعالجة ، ليس ضد حماية الأمن ، وليس انتقاصاً من مقدار هذه الحماية أو فاعليتها . فهذا الارتفاع بالمستوى يتزاوج مع التقنيات والأساليب الحديثة ، بعقلية ذات بُعد إنساني مواز للبعد الفني في الرصد والتعامل وجمع الأدلة ، فضلاً عن واجبات تخفيف ينابيع الشرود ، وهي لا تتحقق بكفاية كما قلنا في الأهرام أكتوبر ٢٠٠٦ إلا بتعاقب روافد عديدة منها الرافد الأمني مع تحديث للوسائل والأساليب تلتقي فيه الأهداف الأمنية مع الاعتبارات الإنسانية دون تقويض للأمن الفردي للمواطنين .

من تراب الطريق

قيم الثورات! (*) (٥١١)

(١٢)

لامراء في أن شيوع الاستبداد مهما تفننت أستار الإخفاء وأساليب التمويه والخداع كان في مقدمة تراكمات الغضب التي أدت إلى ثورة يناير ٢٠١١ وانضمام كل أطراف الشعب إليها .. ومن ثم كانت الديمقراطية وما توجهه في شتى المجالات في مقدمة أهداف ومن ثم قيم الثورة .. وأول قيم الديمقراطية أن يصادق باطنها ظاهرها ، فقد طالت المعاناة من أساليب التزييف التي ظن الاستبداد أنه يستطيع أن يتوارى وراءها ، ما بين إفقار الانتخابات البرلمانية مصداقيتها بالتزوير ، والسيطرة بأساليب التحكم أو الترغيب والترهيب على الصحافة مع امتلاك إعلام الدولة ، وتبادل الأدوار والخدمات ! بين مدة رئاسية ست سنوات ، ومدة برلمانية خمس سنوات ، على نظام سلم واستلم ، وامتلاك الدولة من خلال لجنة الحزب الحاكم مفاتيح أو إن شئت مغاليق تكوين الأحزاب ، لتصير محض «فتارين» توحى بحياة حزبية لا وجود لها ، وبديمقراطية مكبلة في الحقيقة بكل الأغلال التي تجعل الواجهة بلا مضمون ، والفرقة بلا طحن ، وصاحب هذا كله أسلوب «الإقصاء» إلا لمن ينصاع ويمشى في الركاب ، أو يقبل على الأقل بقواعد اللعبة .. وضرب هذا وأهدر دور الشعب وحقوقه في الصميم .. وطالت الأشواق إلى أنسام الحرية التي هبت مع رياح الثورة .

(*) المال ٢٠١٠/٧/٤

على أنه بالنسبة لنبذ «الإقصاء» بالذات كمعلم أساسى من معالم الديمقراطية ، فإنه يقف دونه ثارات إن جاز التعبير من باب المجاز .. فقد أنشأت تجاوزات النظام السابق على مدى ثلاثين عاماً ، أنشأت غضاضات وحزازات وخصومات صارت فى نظر من مستهم ، وفى النظر العام ، أشبه بالثرات ، أدت وتؤدى إلى مطالبات جهيرة بإقصاء كل من انتمى للحزب الوطنى ، واقتصر بعضها على إقصاء الرموز وأصحاب المواقع المؤثرة ، ولم تجد كثير من المطالبات حاجة إلى اتخاذ أى إجراء قضائى أو ما يشبه القضائى للفرز والتجنيب ، راثين أن مجرد الانتفاء أو اللافتة كافٍ بذاته لترتيب هذا الأثر دون حاجة إلى أى إجراء .. بينما طرح البعض نظراً لعقد مساءلات تقيس على قانون الغدر الذى كان قد صدر فى بدايات ثورة يوليو ١٩٥٢ .. وتعددت الكتابات والرجوع إلى المحاكمات التى تمت فى القرن الماضى تحت مظلة هذا القانون ، وجرى الحديث عن العزل السياسى ، بينما ارتأى البعض أن من عُزلوا سياسيا فى بدايات ثورة ١٩٥٢ ، رفع عنهم العزل بأحكام قضائية سبقها رفع العزل السياسى عن إبراهيم (باشا) عبد الهادى بقرار من الرئيس السادات أقر فيه بتاريخه الوطنى وبخطأ توقيع العزل عليه ، وأنه من ثم ليس من المستحب التسرع إلى قرارات تنبئ التجارب السابقة أن مثلها كانت لاحقاً محلاً للمراجعة والعدول ، وأن منطق «المصالحة » هو الأولى بالشعب حتى لا تذهب أطيافه بدداً فى خصومات لا طائل .. منها إلا إشفاء غليل سوف يخلف بدوره ثارات تدخلنا فى حلقات لا تنتهى من الخصومات التى ليست فى صالح الوطن ، ولا هى تتفق مع الأهداف الأصيلة للثورة .

ذلك أن من أهداف ثورة يناير ٢٠١١ ، ومن ثم قيمها ، تعميم المشاركة فى إطار ديمقراطى ، والقضاء على الإقصاء بشتى صوره ووسائله ، سواء

كان بالتزوير الذى لم يكن يسمح بمرور إلا المراد مروره ، أو بالاعتقال السياسى ، أو بتغليق قنوات التعبير أمام غير المقبولين . ومع أن هذا الهدف كان ولا يزال مطروحا ضمن أهداف وقيم الثورة ، إلا أنه يتناقض معه دعاوى الإقصاء التى ظهرت تحت أشكال وصيغ مختلفة . قد يكون هناك منطق وراء إقصاء شخص أو آخر بضوابط يجب أن يحددها القانون وتلتزم بمبدأ شخصية المسؤولية والعقوبة إلا أن الإقصاء الجماعى ، أيا كانت تعلّاته ، يناقض وينقض كل المبادئ الدستورية ، ثم هو يناقض وينقض أحد أهم مبادئ ثورة يناير ، وهو المشاركة لا الإقصاء !

المسألة كما نرى تحتاج إلى تفكير لا إلى اندفاع أو مزايدات . ولا يشفع لمنطق المغالاة فى الإقصاء بلا فرز التشبه أو التعلل بثورات فى التاريخ امتزجت بأقصى أنواع الإقصاء الذى بلغ حد الإعدام وأحيانا بلا محاكمات ، أو الاستشهاد بأن مقصلة الثورة الفرنسية أطاحت بمئات بل آلاف من الرءوس . فذلك ليس فى ذاته سُنّة واجبة الاتباع ، وقد ظلت ثورة يوليو ١٩٥٢ تتباهى بأنه عدا إعدام خميس والبقرى والأستاذ سيد قطب والستة الذين كان منهم الأستاذ عبد القادر عودة نجحت الثورة فى تجنب إراقة الدماء . فلم يكن ذلك ولا يمكن أن يكون هدفاً فى ذاته ، وهو ما ينطبق وإن كان بقدر مختلف وصورة مختلفة على تجنب الخصومات أو التوسع فيها ، فهى بدورها ليست هدفاً فى ذاتها ما لم تكن لا مندوحة عنها ، ومن ثم فإن الفرز والتجنب واجب ولازم حتى لا يدخل الوطن فى اشتجارات تفتت نسيجه ، سيما إذا كان لا يوجد داع مُلح لها .

هذا النظر ، وحتى لا يساء فهمه ، لا يقصد المساءلات القضائية الجارية والمزمعة لمن تغولوا على حقوق الوطن وأمواله وتعدّوا على أرواح المواطنين

وحقوقهم وسلامهم ، فمساءلة هؤلاء واجبة في إطار القانون والقضاء ،
وأحكام القضاء بالإدانة ترتب في ذاتها الإقصاء طوال مدة تنفيذ العقوبة
ولمدة تحددها الأحكام أو نصوص القانون تبعاً للإدانة والعقاب بعقوبة
الجنايات . وهذا بذاته يضع الضوابط التي لا تتوافر إذا ما أبيع الإقصاء
لمجرد الانتماء للحزب الوطني ، وهو ما يمتد إلى مئات الألوف بلا تمييز !!
لا يوجد ما يلزم ثورة يناير ٢٠١١ بأن تحذو حذو ثورات سلفت في
التاريخ ، فلكل ثورة أهدافها وقيمها ، وهي التي تحدد من واقع ذلك
مسيرتها وغايتها .

سبقت ثورة يناير ٢٠١١ بخير ، ما التزمت بقيمها وأهدافها ، ودرأت
عنها الوصاية والأوصياء .. فهي ثورة فريدة حقاً ، وخلصت مصر من وطأة
نظام جثم عليها سنين طويلة ، ووضعت مستقبل الوطن على بداية طريق
صحيح نحسن صنعاً إذا التزمنا صراطه واستمسكنا بغايته برؤية صافية
تستلهم مرادها بالتفكير والتأمل لا بالمزايدات والوصايات !!

من تراب الطريق

قياس مع الفارق (*) (٥١٢)

قرأت في الصحف أن المجلس القومي للرياضة ، أصدر لائحة للأندية صادرت حق من أمضى دورتين متصلتين في رئاسة أو عضوية مجلس الإدارة في معاودة الترشيح مرة ثالثة ، وعادت إلى فرض نظام «الكوتة» أو «الحصص» ، فقرضت في المجلس مقعدين للشباب يتعين لزماً أن يدخلوا المجلس أياً كان مقدار ما يحصل عليه كل منهما من أصوات بالقياس إلى باقي المرشحين ، وحسبها أن يكونا في مقدمة الحاصلين على أصوات من بين الشباب !

وظني أن هذه اللائحة معطوبة المنطق والأساس .. فقياس المديتين بحد أقصى بما يجري به الحديث عن مدة رئيس الجمهورية ، قياس مع الفارق الشديد .. فعلة القيد في مدد الرئاسة أن رئيس الجمهورية يملك سلطات عامة في مجالات عديدة ، تمكن له مساحة لدى السلطات والأفراد تجعل من إطلاق مدة الرئاسة فرصة لدوام الوجود بفرض الشوكة التي تتحول إليها المكانة بطول البقاء في السلطة .. فضلاً عن خطورة موقع الرئيس لما يملكه من سلطات ، وما يباشره في إدارة سياسة وشئون البلاد .. وهذا كله وغيره لا مجال له في رئاسة أو عضوية مجالس إدارات الأندية .. فمجلس الإدارة لا يملك شوكة ، ولا يباشر شيئاً من ذلك على الأعضاء ، وهو إن كان يضع الخطوط العريضة للإدارة ، فإن مدير عام النادي هو المتوط به التنفيذ

(*) المال ٢٠١١/٧/٥

والإدارة ، وطبيعة النوادي وقماشة جمعياتها العمومية لا تسمح لعضو أو رئيس مجلس الإدارة بأن يشكل قوة أو شوكة يستطيع بها أن يفرض نفسه إلى ما شاء . فضلاً عن خصوصية قماشة الجمعيات العمومية للأندية ، المشكلة من أعضائها ، فإن الأندية خالية من الأحزاب ، وخالية من السلطات التي تشكل بطانة الحكم في الدول .. ومن ثم ركائز يتساند إليها الحاكم بفرض استمراره في السلطة بتكرار الترشح للرئاسة بلا حساب .

كل ذلك لا مجال له في الأندية ، مما يغدو معه هذا القيد الذي تفرضه اللائحة ، وصاية على الجمعيات العمومية للأندية ، وهي وصاية لا تراعي القماشة الخاصة لهذه الجمعيات ، ولا تراعى ما قد توجهه دواعى الاستقرار في إدارة الأندية إذا ما صادف الاختيار محله وحسنت الإدارة واستقامت دفة الأمور ، فإذا حدث العكس فإن الجمعية العمومية كفيلة بلا وصاية بحجب أصواتها عن من لم يحسن الإدارة أو فرط في الأمانة أو انحرف في سياسته عما يستحسنه المجموع .

أما منطق الكوطة أو الحصص بفرض شريحة معينة ، شباب أو غير شباب ، كحواء مثلاً ، فإنه يصطدم بالمبادئ الدستورية التي جرت عليها كافة الدساتير المصرية ، والإعلان الدستوري المؤقت ، مثلما جرت عليها دساتير العالم .. تخصيص حصص للمرأة مثلاً أو للشباب ، في تشكيل المجالس البرلمانية أو الشعبية أو إدارات الأندية أو الجمعيات وغيرها .. يصطدم بمبدأ دستوري هو مبدأ «المساواة» الذي اتفقت عليه كافة دساتير العالم .. فالكل أمام القانون سواء ، متساوون في الحقوق والواجبات العامة ، لا تمييز بينهم بسبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة . هكذا نصت المادة

٤٠ من دستور ١٩٧١م وما قبله ، وهو هو ما تضمنه الإعلان الدستوري الذي صدر مؤخراً بعد تعطيل العمل بدستور ١٩٧١ :

وتخصيص « حصّة » للشباب أو للمرأة بأى مجلس نيابى أو نقابى أو بالجمعيات والأندية ، هو فى حقيقته « حجز » أماكن لإعطاء « مزية » للمرأة أو للشباب مما يدخل فى باب التمييز الذى يهدر مبدأ المساواة الدستورى ، ومسايرة هذا المنطق تفتح الباب على مصراعيه لتزايد منطق « الحصص » ونسف مبدأ المساواة ، وتفتح أبواباً لا تغلق للتمييز مستقبلاً على حساب « الجنس » أو « الأصل » أو « الدين » أو « الفئة » وغيرها !!

لقد سبق حل مجلس الشعب مرتين بناء على حكم المحكمة الدستورية العليا بعدم دستورية أى تخصيص لمقاعد بالمجلس التشريعى أيا كانت مرجعية التمييز الذى يُبنى عليه هذا « التخصيص » وأوضحت فى حكمها الصادر ١٩/٥/١٩٩٠ فى الدعوى ٩/٣٧ ق دستورية أن الدستور حين كفل للمواطنين حق الانتخاب والترشيح وجعلهم سواء فى ممارسة هذين الحقين ولم يميز بينهما فى أساس مباشرتهما ولا تقرير أفضلية للبعض على البعض فى أى شأن يتعلق بهما .. أى بالانتخاب والترشيح .. إنما أطلق هذا الحق للمواطنين الذين تتوافر فيهم الشروط المقررة دون ما نظر إلى اختلاف انتماءاتهم أو تصنيفهم أو آرائهم أو أصلهم أو جنسهم أو دينهم ... إلخ . لضمان أن يظل العمل الوطنى جماعياً لا امتياز فيه للبعض على البعض ، وذلك مقتضاه أن يكون للجميع ذات الفرص المتكافئة وبقدر متساوٍ وهو ما يهدره نظام « الكوتة » أو « الحصّة » !

وفرض « حصّة » للشباب فضلاً عن إهداره مبدأ المساواة الدستورى ومصادرته على حق الجمعيات العمومية فى اختيار من تراه جديراً بلا

فرض ولا وصاية ، فقد يكون اختيارها لكامل المجلس من الشباب ، ولا تثريب عليها ، فإن هذا الفرض يبدو بلا منطق ولا حكمة .. فمن العلم العام ، وطبقا للقاعدة الهرمية ، أن شريحة الشباب ، والأصغر سنا على وجه العموم ، هى أعرض الشرائح عددا فى الجمعيات العمومية للأندية .. وهم بذلك أعرض الكتل امتلاكا للأصوات ، وهم خليقون بلا وصاية تتذرع بحمايتهم بأن يختاروا من يشاءون .. من الشباب وغير الشباب ، ومن ثم لا حكمة ولا غاية ولا منطقى لفرض « كوته » أو « حصه » لهم .. إلا أن يكون ذلك من باب الرياء وطبعا للزلفى والتلويح .. المغالط بمنصرة الشباب ! بينما لا يحتاج الشباب إلى مناصرة وهم الأعرض عددا والأكثر امتلاكاً لأصوات الجمعيات العمومية للأندية .

بقى بعد ذلك كلام كثير يقال ، عن حق المجلس القومى فى مخالفة القانون ذاته فى لائحته ، وهى مخالفة تدمغ اللائحة بعدم المشروعية لمخالفتها للقانون وهو أعلى ، فضلا عن مخالفتها للدستور !!

ظنى أن هذه اللائحة التى أصدرها المجلس القومى للرياضة قد انطوى قرار إصدارها على مخالفة القانون والدستور ، فضلا عن التعسف فى استعمال السلطة ، وأن مآل القرار الصادر بها إلى الإلغاء !!

من

تراب

الطريق

(٥١٣) هل التفتنا

إلى سوق النخاسة؟! (*)

أعرف من حال الفقر المدقع في مصر ، ما دفعنى إلى كتابة نحو مائة وخمسين مقالاً عن مخاطر هذا الفقر ، ومخاطر اتساع الهوة الضخمة أصلاً بين الأغنياء المتنعمين ، وبين الفقراء الذين لا يجدون ما يقتاتون به ، وينامون حيث يقضون حاجاتهم ، ويشربون من حيث تشرب الكلاب والبهائم ، تتلاحم أجسادهم وأنفاسهم في المقابر والعشوائيات حتى ارتدوا إلى ما يشبه الحيوانية وتفشى بينهم زنى المحارم !!!

وأعرف من حال أطفال الشوارع ما دفعنى إلى كتابة عدة مقالات عن الطفولة المشردة الهائمة بين الخرابات ومقالب الزبالة ، نشرت تباعاً بالأهرام ، وأعدت نشرها بكتاب : « الهجرة إلى الوطن » (كتاب الهلال العدد ٦٨٣ نوفمبر ٢٠٠٧) !!

جدد الأحزان ، مع رنين قرعات الأجراس ، عنوان صافع حملته بعض صحف الأربعاء ٢٩/٦/٢٠١١ ، نقلا عن تقرير للخارجية الأمريكية .. يقول المانشيت : « مليون طفل مصرى يتعرضون للإتجار بغرض السخرة والجنس والتسول » !!! ويضيف المانشيت نقلا عن تقرير الخارجية الأمريكية : « الاضطرابات السياسية زادت معدلات الاتجار بالبشر » !!!

أورد التقرير الأمريكى السنوى عن « الاتجار بالبشر » أن هناك ما قد يصل إلى مليون طفل مصرى من « أطفال الشوارع » ، من الفتيان والفتيات ،

(*) المال ٦/٧/٢٠١١

الذين يتعرضون للاتجار بالجنس والتسول القسرى ، الذى تمارسه كما جاء
بالتقرير بعض العصابات المحلية ، حتى صارت مصر «مقصداً» أو «سوقاً»
إن شئت الصراحة !.. للنساء والفتيات والأطفال الذين يتعرضون لظروف
العمل القسرى والاتجار بالجنس !

ربما يُظن أن الأطفال الذين يعملون بالمزارع والبيوت ، وتحت السن
التي يسمح بها قانون العمل ، أسعد حفظاً أو آمن انتهاكا من أطفال الشوارع
والخرابات ومقالب الزبالة ، ولكن التقرير الأمريكى الصاف يكشف عن
أن من يتم دفعهم للخدمة فى البيوت أو العمالة الزراعية ، يواجهون قيوداً
حادة وانتهاكات متعددة ، ما بين تقييد التحرك فيما يشبه الأسر ، أو عدم دفع
الأجور ، أو اغتيال ذويهم لها ، فضلاً عن الاعتداءات والتهديدات البدنية ،
أو الاعتداء الجنسى !

ويتحدث التقرير عما بات معروفا للجميع ، ونغض عنه الطرف خجلاً
أو عجزاً ، يتحدث عن قيام الرجال الأثرياء من دول الخليج بالسفر إلى
مصر لشراء .. نعم شراء ! زوجة مؤقتة من الصبايا ، أو ما يسمى بالزواج
الصيفى ، لفتيات صبايا لا مانع من أن تقل أعمارهن عن الحد الأدنى للزواج
مع تسهيلات من باعوا ضمائرهم من الموثقين أو محررى الزيجات العرفية
وعصابات تزوير شهادات الميلاد لزوم صفقات الزواج .. هذه الصفقات
التي دخل فيها الآباء والأمهات بائعين بالدرهم والدنانير والدولارات
لبنائهن اللائى يعدن إلى مصر بعد شهور وقد حملت بعضهن أجنة فى
أرحامهن ، ثمرة للمتعة التي حصل عليها الشيوخ من الصبايا لقاء الدنانير
والدولارات ، ثم تتحمل مصر إعطاء الجنسية المصرية لهؤلاء المواليد الذين

يُدفعون للضياع ، بينما مصر التي تنن أصلاً بأحمالها وتضيف إليها أحمالاً جديدة بلا عقل ولا منطق جرفنا إلى ذلك قانون الجنسية الجديد تحت ضغط هوة لا يحسنون شيئاً وفرضوا كلمتهم في كل شيء ، ومر القانون بالمجلسين البرلمانيين رغم ما أطلقته وبعض القلة من صيحات التحذير على هذه الكارثة التي تشجع الآباء والأمهات على بيع بناتهم وقد أعفاهم القانون ، كما أعفى شيوخ الثراء من تبعة ما تقذف به هذه النخاسة اللاإنسانية من مواليد لا يبالى بهم الأب المتمتع ، ولا تحسن الأم التي يبعث كالبهائم تربيتهن وتنشئتهن !!

هذا الجو الفاسد الموبوء ، قد شجع على اتخاذ مصر المنكوبة بالعديد من الكوارث سوقاً لترويج النخاسة والاتجار بالجنس وبالأطفال .. أورد تقرير الخارجية الأمريكية أن مصر أُمست بلد المقصد للنساء «العراقيات» لممارسة الأساليب غير المشروعة ، كما صارت «معبرا» للاتجار بالنساء من أوزبكستان ومالدوفيا وأوكرانيا وروسيا ، وغيرها من بلدان أوربا الشرقية ، وكشف التقرير لمن لا يعلم !! أن إسرائيل تقوم بممارسة تجارة البشر ، وتقدم على تهريب «العاهرات» من خلال الحدود المصرية المشتركة معها ، لاستغلالهن في التجارة الجنسية .. وسكت التقرير الأمريكي عن الإشارة إلى مهام أخرى يضطلعن بها في اختراق الأمن القومي لمصر والمصريين !!

ولكن التقرير الأمريكي في المقابل تحدث عما نتحرج نحن من الحديث فيه مخافة الاتهامات الجائرة .. فقال التقرير الأمريكي إنه ساهم في تدنى معايير مكافحة الاتجار بالبشر في مصر الاضطرابات التي عمت البلاد في أعقاب ثورة يناير ٢٠١١ وما لابسها من انتشار فوضى اختلط فيها الحابل بالنابل ، وتداخل الأغراض والمآرب ، ونحن لاهون عما يجري لأطفالنا وفتياتنا اللاتي عضهن الفقر والجوع فصرن سلعة في سوق الجنس والنخاسة ..

فهل استيقظنا لنواجه هذا الواقع المر بما يستوجبه من تفكير وتدبير !!!؟

من تراب الطريق

(٥١٤) الخطوط الحمراء (*)

الخط الأحمر تعبير مجازى عما لا يجوز عبوره أو تخطيه أو تجاوزه أو إهداره أو المخالفة عنه أو الضرب فيه .. يسرى ذلك فى قواعد المرور ، ويسرى فى سلوكيات الأفراد والمجاميع ، ويسرى حتماً على قرارات الدول والحكومات وكافة السلطات المخولة فى الحكم أو الإدارة أو التشريع .. وقرينة البراءة ، مبدأ مقدس فى شرائع السماء ، وفى كافة الدساتير ، وكل المواثيق الدولية ، ثم هو مقدس فى منطق البدهة الذى هو حصيلة ما تعارفت عليه الشرائع السماوية والدساتير والقوانين والمواثيق الدولية .

كانوا ولا يزالون يعلموننا فى قاعات الدراسة ، أن المتهم .. أى متهم برىء يتمتع بقرينة البراءة التى ولد بها على الفطرة ، وأن هذه القرينة لا تنحسر عنه إلا بحكم قضائى نهائى يخلص وينتهى من واقع محاكمة عادلة إلى ثبوت إدانته بجرم ما .. قبل هذه الإدانة القضائية هو برىء فى حكم القانون ، وفى نظر الناس ، لأن الناس ليست مخولة فى إصدار الأحكام ، ولا فى محاكمة بعضها بعضاً ، وإلا ارتدوا إلى منطق الغابات !! لذلك علمونا فى مقاعد الدرس أيضاً ، وفى أحكام القضاء أنه خير للعدالة لأنها قانون السماء ، أن تبرئ مائة مذنب ، من أن تدين بغير حق بريئاً واحداً .. هذه البراءة التى هى الأصل فى الإنسان ، مهما كانت الشكوك أو الريب أو الظنون .. فالضن ليس قانوناً ولا قاعدة لحكم ، حتى حذر منه القرآن المجيد ، ونبه إلى أن بعضه بعض

هذا الظن إثم كبير ، وأكبر من بعض الظن ، الكثير من الظن ، وكلاهما يورد موارد التهلكة ، يقول الحكم العدل في كتابه المبين : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَجْتَبَا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢] ، وحذر من أن الندامة هى عاقبة مجاراته مجارة الظن ، فقال عز من قائل : ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكَ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنْ أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا يَحْطِلُونَ فَنُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَذِيرًا ۖ ﴾ [الحجرات: ١٠] .. لا يعنى هذا أن كل حامل نبأ فاسق أو كاذب ، فقد يكون صالحاً وصادقاً ، ولكن النبأ أو الاتهام ينبغى أن يبقى فى دائرة الفحص والبحث والمراجعة لمعرفة كنهه ، وهل يتفق من عدمه مع الصدق وموجباته أم أنه كذب مقصود ، أم أنه اتباع لظن لم يخضع للتححيص والدراسة !

القرارات السياسية أو الإدارية ، عرضة كالقرارات والسلوكيات الفردية ، لأن تخطئ الصواب أو يفوتها التوفيق فى وجوب الالتزام بمبدأ قرينة البراءة ، فتهدرها أو تتجاوزها أو تتخطاها أو لا تلتفت الالتفات الواجب إليها ، ولكن الأخطر من خطأ القرار السياسى أو الإدارى ، شطط النخبة الموكلول إليها قيادة عقل الأمة .. الجمعى والفردى .. إذا دعت غافلة أو غير مدركة لنقض هذه القرينة المقدسة التى دونها الفوضى والضياع وشيوع المظالم وسيادة قانون الغاب وتحويل الناس إلى وحوش يقتل بعضها بعضا ، ويفترس بعضها بعضا ، ويدين بعضها بعضا ، ويحل من يشاء نفسه محل القاضى والقضاء ، فيسن القانون الذى يشاء ، ويطلق الحكم الذى يشاء ، ويسرع به مادام قد شاء إلى ساحة التنفيذ ، فيقتل ويسفك الدماء ، ويهدر حقوقا لعلها لأبرياء لم يرتكبوا ذنبا ولا خطيئة ، مدفوعا باعتقاد واهم أنه هو العدل ، وأن ما يفعله إرساء للعدل الذى نصب نفسه رقيبا عليه وقائما به دون القضاء !

ليس صوابا ، وليس حميدا ، ما تضمنه بيان رئيس الوزراء من إصداره تعليمات بالمبادرة إلى إنهاء خدمة ضباط الشرطة المتهمين بالقتل .. فليس كل متهم مذنباً في الجريمة المنسوبة إليه ، بل هو في نظر القانون ، وينبغي أن يكون في نظر الكافة ، برىء إلى أن تثبت إدانته إن ثبت بحكم قضائي .. لذلك فإن قوانين الدولة ، للشرطة وللجيش وللمدنيين ، تحترم هذا المبدأ ، فلا تجيز إنهاء خدمة الضابط أو الموظف لمجرد الاتهام ، ولا تبيح ذلك إلا إذا ثبتت إدانته وقضى بعقابه بحكم نهائي صادر من المحكمة القضائية المختصة ، ولذلك لم يكن غريبا ، بل هو محمود ، وواجب ، ولازم أن يفصح وزير الداخلية عن أنه لن ينهى خدمة أحد إلا طبقا للقانون .. فالقانون هو واجب الاحترام في شتى قرارات الدولة .. ومصر حتى لا ننسى دولة .. تلتزم سلطاتها بالدستور والقانون .. فإذا جاوزنا القانون قدنا بغير وعى إلى انهيار الدولة ، وهى نتيجة مخيفة لا أحسب أن أى عاقل يريد لها أو يسمح بها أو بتداعياتها التى سوف تأتى على الأخضر واليابس !!!

أخطر الأخطار في هذا المنطق الضريع غير المتبصر ، أنه ينطوى ضمنا على إرهاب للقضاء ويمكن أن يدفع إلى التعجل في التحقيقات والمحاكمات ، والتعجل غير السرعة ، وهو عدو البحث الواجب والتمحيص الدقيق ، وباب واسع للأخطاء ، ومهدد وقاتل للعدالة ، ويؤدى إلى شيوع الظلم والمظالم .. فماذا نحن قائلون لربنا وهو سبحانه وتعالى الذى حذرنا من الظلم ، فقال فى كتابه الحكيم : ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونََ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴾ [يونس: ١٣] .. وقال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [يونس: ٤٤] .. وقال سبحانه محذرا : ﴿ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ

مَعْدِرُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٥٢﴾ [غافر] .. وقيل في الحديث :
« إياكم والظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة » .

من الغريب المؤسف ، أن بعض النخبة ولا أريد أن أسمى أحداً ، قد جعلت تزين ذلك بل وتطلب المزيد ، بدلا من أن تحتكم إلى العقل والمنطق والدستور والقانون ، وتبصر بمحاذير ومخاطر هذا الإهدار الخطير لقرينة البراءة ، وما يتضمنه الإنهاء الضرير للخدمة ، بغير ضابط ، إلى انهيار الأمن انهياراً تاماً . بتخلي كل ضابط وجندى ، في الشرطة بل والجيش ، عن القيام بواجبه في حماية أمن الوطن ، ما دام مجرد توجيه أى اتهام إليه ، كفيل بذاته بلا محاكمة !! بتدميره ونسف حاضره ومستقبله بقرار ضرير ينهى خدمته !!!

إن الرجوع إلى الحق فضيلة ، وإذا كان يُحمد لوزير الداخلية ما أعلنه من إيضاح واجب ، يتوخى الحق والقانون ، ويحمي جهاز الأمن الذى يقوده من الانهيار ، فإنه واجب على السيد رئيس الوزراء أن يصحح مفهوم ما صدر عنه ، وواجب على النخبة أن تؤدى واجبها وتوجه وتبصر لا أن تنقاد لنداءات ضريرة لا تعقل ما تقول أو تنادى به !!!

من تراب الطريق

(٥١٥) كبة جواد ! (*)

كبة ولا شك ، الأسلوب المقيت الجائر غير المتبصر الذى تعاملت به إدارة النادى الأهلى مع اللاعب وكابتن المنتخب المصرى : أحمد حسن .. ليس فقط لأنه لاعب ماهر لا يزال قادرا على العطاء المتميز ، وإنما لأن هذا اللاعب عنوان للخلق والالتزام والسلوك الحميد الجدير بالتنويه والاقتراء ، وذلك أوجب احتراماً فى قلعة النادى الأهلى الذى أحبيناه من نعومة أظافرنا لتقاليده وأعرافه الراقية التى احتضنت مسيرته منذ أنشئ من نيف وقرن من الزمان !

تستطيع إدارة النادى الأهلى أن تخطط وتنفذ سياسة للنزول بأعمار اللاعبين ، وبغض النظر عن أن ذلك لا يبرر التفريط فى لاعب متميز أدى التزامه الصارم إلى امتداد قدرته للآن ، على غير ما يحدث لغيره من تراجع ، مبكر أحياناً ، نتيجة عوامل كثيرة التفت هذا اللاعب الخلق إلى تلافيتها وحرص على احترام نفسه وكفاءته ومسيرته فى الملاعب ، فإن أسلوب فك الارتباط معه دون تجديد ، له أصول وقواعد كانت محل احترام فى منظومة النادى الأهلى منذ كان .. ذلك أن توجيه الشكر إليه ، بما يعنى أن مسيرته مع النادى قد وصلت إلى فصل الختام ، كان ينبغى أن يكون قبل شهرين على الأقل من موعد انتهاء تعاقدته ، لبحث لنفسه إن أراد عن مسيرة فى نادٍ آخر ،

(*) المال ٢٠١١/٧/١٤

خارج أو داخل مصر ، لتتاح له فرصة مناسبة للتفكير وإمعان النظر فيما يستحسنه لمستقبله .. وهى اعتبارات ظنى أنها لا تفوت إدارة النادى الأهلى ! تابعت بإشفاق شديد ، واحترام أشد ، تماسك اللاعب وأداءه المتميز فى الشوط الثانى الذى أشرك فيه بمباراة النادى الأخيرة فى الدورى العام .. وتابعت بمرارة شديدة ، وأسف أشد ، جلالة الأسئلة التى وجهت إليه بغرفة الملابس وهو يجمع حاجياته ويضعها فى حقيبته ليغادر بعد أن أدى واجبه فى النادى ، وباحترام لافت ، إلى آخر لحظة ، وكان على رأس هذه الأسئلة التى فقدت الحصافة واللياقة ، الإشارة البلهاء إلى أنها ربما تكون آخر مرة له كلاعب للنادى الأهلى فى هذه الغرفة . انتهت كل حواسى ومعها إشفاقى وأنا أنظر إلى كل قسما وأسابير وتعبيرات هذا اللاعب الخلق ، خوفاً عليه من التضعضع النفسى فى هذه اللحظة الصعبة الفارقة ، وأمام هذه الإشارة غير المتبصرة ، فهالنى وأعجبنى تماسك هذا اللاعب النبيل ، وحسن انتقائه لعباراته انتقاءً قد لا يحسنه بهذا القدر الرفيع أخبر الدبلوماسيين وملوك الكلام .. ولم يكن ذلك ليتأتى له إلا أن يكون حصاد نسيج شخصى متميز مجدول بتنمية واعية لقدراته ، وتبصر فاهم لمستوى رفيع حرص على كفالته لنفسه ، ليبقى مثلاً وقدوة للجميع ، وفى مناخ ساد فيه الفساد السلوكى فى الملاعب وخارجها ، حتى ضُربت جميع التقاليد والسلوكيات الرياضية والأخلاقية فى مشاهد مؤسفة طالت حتى بعض المديرين الفنيين والإداريين !!

تابعت بمزيد من الإشفاق ، والاحترام ، تماسك اللاعب وإجاباته الواعية الخلوقة الملتزمة على كل ما وجه إليه من أسئلة اشتط بعضها فلم يراع

الحالة النفسية وصعوبة اللحظة والمعاناة العميقة التي لا بد كانت في وجدان هذا اللاعب وهو يُدفع إلى خارج ناديه الذي أحسن العطاء والسلوك والالتزام فيه ، فزاد احترامي ومعها محبتي لهذا اللاعب الذي أشعر بتعاطف عميق معه ، وحزن شديد على مفارقتة للنادى الأهلى ، ومرارة لا تقل عن مرارته للأسلوب غير اللائق الذى أنهيت به مسيرته فى النادى الذى عشقناه .. لا أغالى أن ألقى ومرارتي على ما كان معه ، قد أفسدت فرحتى ببطولة الدورى العام .. فكم أخذ النادى وسيأخذ ويحصل المزيد ومزيد المزيد من البطولات ، ولكن هذه الكبوة فى أسلوب التعامل معه ، تضرب فى المبادئ بعامة ، وفى تقاليد النادى الأهلى بخاصة !!

لم أشأ أن أتدخل لدى مسئولى النادى ، فقد لا يُرَحَّب بتدخلى ، ولكنى حاولت لأيام إدارة حوار موضوعي مع بعض الرموز الذين لهم قبول لدى الإدارة للتنبيه إلى خطأ التفريط فى هذا اللاعب القدير المتميز ، والخطأ الأكبر فى إنهاء مسيرته فى النادى بهذا الأسلوب الجاف الغليظ الذى لم تجربه التقاليد فى النادى الأهلى ، وظل الأمل يراودني وأنا أتابع على البعد ، أن تعلن إدارة النادى أو لجنة الكرة ، فى اجتماعها المرتقب صباح أمس الاثنين ، التمديد للاعب أو التعاقد الجديد معه لموسم أو موسمين ، وهو جدير بذلك ، وقادر على أن يملأ مكانه الذى أثق أن مغادرته سوف تترك فراغاً ملحوظاً فيه ، ليس فقط لتمييز أدائه وروحته العالية وتقانيه وحماسة ولياقته التي حافظ عليها ، وإنما بخبرته التي تنعكس فى الملعب على زملائه اللاعبين ، وقد كان أدائه للمباراة الأخيرة فى الدورى العام ، وتغيير شكل الفريق منذ نزوله بأول الشوط الثانى خير دليل على أثر هذه الخبرة العريضة والرؤية الواعية على سير المباراة .

سيظل الحزن مقيماً في قلبي على التفريط في هذا اللاعب المتميز الخلق وسأظل أراقب بإعجاب واحترام وتقدير مسيرته التي أثق أنها ستظل راقية متميزة في أي موضع سوف يضع رحاله فيه ، متمنيا أن يستكمل مسيرته الدولية ، وأن يحقق الرقم القياسي غير المسبوق ، ليبقى عميداً حقيقياً في عدد المباريات الدولية ، وفي الأداء والأخلاق جميعاً .

من تراب الطريق

عقلية الجماعة بين (*) التراجع والجمود والتطور (١٦٥)

تشابه عقول الأدميين ، ولكنها لا تتطابق قط .. وهذا التشابه بين العقول يسمح بالنقل والتسجيل والتحليل ، والمقارنة والمحاكاة والاعتیاد ، وبالاعتراض والرفض والمقاومة ، وبالملت والعداء ، وبالموافقة والموالة والانحياز والتعصب .

ذلك أن عقولنا متصلة بعواطفنا اتصالا داخليا عميقا .. تأخذ منها وتعطيها .. تخدمها وتستخدمها .. مهما زعمت من الحيدة وادعت التجرد .. وهذا واقع موجود في جماعات الأدميين في كل مكان وفي كل عصر .. في الغابر والقديم والحديث .. وقد نسمى ذلك حركة فكرية .. ضعيفة أو قوية .. تعبر عن نفسها باتصال العقول بالعواطف في أفكار وتصورات ومصداقات ، بل وفي معتقدات عامة لا تقتصر على فرد ، يرددها أغلب الناس ، ولا تناقش عادة مناقشة فحص واستكشاف وتحقيق .. وإنما تستعمل في التعامل وتكوين العلاقات إيجابا وسلبا .. وعليها تؤسس العلاقات والروابط الاجتماعية التي تنشئ أو توجد الجماعات البشرية صغيرها وكبيرها ، وإليها يحتكم الأدميون عندما يلوح أو يقع بالفعل خروج عليها أو انتهاك لها . لأنها بصيرورتها عامة بالاعتیاد على اعتناقها صارت ملزمة لكل فرد ولو كان مخالفا .. وهذا الإلزام يختلف قوة وضعفا بحسب فكرة الجماعة عن خطرها وأهميتها في زمن معين وظرف معين .

ذلك لأنها شئنا أم أبينا ، أردنا أم لم نرد ، متصلة اتصالاً دائماً بحياة الآدمي ككل ، ولا تنقطع صلتها قط بعواطفه وغرائزه ، ولا يحس الفرد بنصيبه الشخصي في نشأتها ووجودها ، وإنما يحس بنصيبه المتغير في المسؤولية عنها والحساب على أساسها .. نتيجة انتمائه إلى الجماعة انتماءً متوارثاً في الأغلب الأعم ، أو بسبب انتماء طارئ يحرص على إحساس الآخرين بوجوده لإظهاره أو لتأكيدِه .

وتلك الأفكار والتصورات والمصدقات والمعتقدات العامة ، التي كانت في أصلها نتيجة عقول قليلة العدد قابلة لدى أصحابها للمراجعة والتنقيح ، تبعد بتوالي الزمن عن أصلها ، وتفقد من ثم قابليتها السهلة للمراجعة والتنقيح ، نتيجة اعتناق الجماعة لها اعتناقاً يجعلها عامة .. إذ تصبح بذلك داخلية في تكوين الجماعة ذاتها .. الفكرى والعاطفى معا .. وتبعاً لذلك تتسم بنوع من الاستقرار والثبات في مواجهة التغير العمدى الصريح الملحوظ . لذلك نرى ، خاصة لدى المكلفين بالحفاظ عليها ، شدة التردد في المساس بها ، مهما كانت حجة التغير ودواعيه ، بل ومهما أحسوا هم بوجود مسايمة التطور والتقدم الفكرى الحادث في غيرها من نواحي وجوانب الحياة العامة التي لا يتوقف ما يطرأ عليها من دواعى التغير تبعاً لقابلية حياة البشر للتطور والتقدم ، أو للتخلف والتدهور ، ومن ثم استحالة ثباتها وجودها على حالة واحدة !

فحياة البشر نتاج ما يكتب به الأحياء في استخدامهم لمواهبهم واستعداداتهم في تصرفاتهم حسب ظروفهم وزمانهم ومكانهم ، وأثار ذلك لمصلحة جماعتهم أو عليها .. هى ومن يتصل بها أو يحاكيها أو يتأثر بها من الجماعات الأخرى !

وقد تسمى أو توصف هذه الأفكار والتصورات والمعتقدات العامة ، بأنها عقلية الجماعة أو عقلها الجمعى ، تمييزاً لها عن عقل ووعى الفرد ، وإشارة إلى أن أصلها الأول هو دائها ووعى وعقل آدميين قليلين .. فعقلية الجماعة حدث بشرى اجتماعى .. ومن ذلك التأثير الحتمى بالتغيرات طويلة العمر التى تطرأ على حياة الجماعة وتستقر فيها زمانا .. وهذه التغيرات قد يبدأها أفراد غير عاديين ، ولكنها لا تتم وتستقر إلا من خلال حياة أجيال من البشر تتواجد وتتشكل منهم الجماعات ويصير لها ماض وحاضر ومستقبل مأمول ، وهذه الصيرورة تنفصل عن حياة كل فرد كان ثم رحل أو يرحل أو سيرحل !

ونسبة هذا الوجود الجماعى الصرف إلى بدايته وإلى فرد معين أو أفراد معينين بالاسم هذه النسبة لا تنصرف إلى تمثيل حقيقة وقعت ، وإنما تمثل فى الغالب تمجيذا وإشادة وتخليدا لذكر ذلك الفرد أو هؤلاء الأفراد ، وتنويعا بما تم على يده أو على أيديهم مما صار بعد ذلك اعتقاداً عاماً تفتديه الجماعة التى اعتنقته بالأموال والأرواح .. هذا وبمجرد أن يصبح المعتقد أو المعتقد عامة للجماعة ، فإنها تستعمله فى ممارستها حياتها على أنه شىء تم وكمل واستقر بالنسبة لعصرها الذى تحياه بالفعل ، ولكن ليس بالنسبة للعصور المستقبلية التى سوف تحياها ذرايعها ، فتمام وكمال الفكرة أو المعتقد دائماً نسبى مقصور على أبناء هذا العصر أو ذاك .. إذ هو وإن مثَّل عصراً مضى وانقضى فيما سلف من الزمان ، فإنه لا يمثل الجماعة بالضرورة فى عصر تالٍ لم يحن بعد ولم يأت أوانه أو يوجد أهله !

وادعاء الثبات التام والاكتمال لكل عصر فى المعتقدات والمعتقدات والمصدقات وحدها بلا تفريق فى الفهم والتصور والزمان والمكان

والظروف ، ودون التفات إلى الجديد الذى حل محل القديم فى الاعتبار والمصادقية ، ينطوى على مصادرة تجمد حياة الجماعة بها كان فى الغابر الذى نسيته الجماعة أو لم يعد يوافق ظروف وأحوال زمانها وحاضرها .. وهو جمود أو تحجر يناقض ناموس أو نواميس الحياة الاجتماعية الجديدة وحتمية التغيير والتطور ، والتى يستحيل أن تثبت بشكل دائم متحجر على نفس الصورة والمعنى إلى الأبد !

من تراب (٥١٧) التراجع والجمود والتطور الطريق (٢) عقلية الجماعة بين (*)

إن المتأمل بوعي وفطنة ، في أحوال الجماعات ، يجد أن مضمون عقلية الجماعة يتغير بالزيادة أو الانتقاص مع درجة تطورها ومدى اتساع أو تقلص نطاقها وأهميتها ، ودرجة مشاركتها في تقدم أو تأخر عصرها ولا بد سوف يلاحظ أن كثيرا أو قليلاً مما كان يدخل في مضمون عقلية هذه الجماعة أو تلك ، وفي مصداقاتها قد خرج منها وانفصل الآن عنها بل وصار أغلبه منسياً .. وقد يكون ذلك لأن موضوعاته صارت من أبحاث العلم الوضعي الدقيق ، وهى أبحاث لا وزن ولا قيمة فيها للمصداقات ، ولا يرجع في شأنها لعقلية الجماعة في الجماعات الراقية ، وإنما يرجع إلى ما يحدده العلم الوضعي أو الفن أو التكنولوجيا في أحدث ما وصل إليه كل منها .

وليس معنى هذا أن البشر قد تخلصوا من الارتباط بعقلية الجماعة بتلك الروابط العاطفية الفطرية التى أشرنا إليها ، إذ لا رجاء في التخلص منها فى أى مستقبل قريب حتى فى الجماعات الأكثر تقدماً . لأن الجماعات البشرية كلها قد أسست حياة أفرادها ونظامها العام ، ومرافقتها وإداراتها ، وسياستها وسلمها وحربها على أساس قيام عقلية الجماعة والاستجابة إلى ما يرضيها ما أمكن ذلك . لأنها قاسم مشترك أعظم فى عقلية غالبية الناس ، يتناول حاجاتهم ومطالبهم وأغراضهم وجدهم وهوهم ومولدهم وموتهم وعلاقاتهم وروابطهم ومواقف بعضهم من بعض أحياء وأمواتاً !

إننا فى سعينا لذواتنا نحاكى فى الصور والأشكال أمثالنا ممن سبقونا أو وجدوا معنا أو من لحقونا من بعدنا . ولكننا لا نلتفت إلا نادراً فى أحوال المرض والشفاء إلى أن كلاً منا فرد فى ذاته ، لا يشاركه فى ذاته أو مصائرها سواء ، ولا يقدر على هذه المشاركة فى حقيقتها حتى أبواه أو أبناؤه .. مهما أرادوا .. وهذه لبنة الأساس فى حياة آدمى .. منها يبدأ ويستمر وجوده ، وبانقطاعها تنقطع حياته !

هذا وبغير الأديان ، لا نعرف الخالق جل شأنه معرفة مباشرة ، إذ لا تحسه حواسنا ولا يدركه وعينا وعقلنا إدراكهما للماديات والمعنويات ، وإنما نعرف بشيء من التأمل معرفة قسرية جبرية معطيات الخالق عز وجل إيانا ، التى منها ذات الحياة والحواس والوعى والعقل .. هذا ومعطيات الخالق لنا كلها مجانية أعطاها لنا سبحانه وتعالى عند إيجادنا من العدم . أعطاه تبارك وتعالى لكل آدمى بصفة عامة ، لكنها ليست على وجه التساوى . وهذه المعطيات الإلهية التى لم يطلبها أحد منا ، لا هو ولا ذوهه ولا من سيأتى من ذرائه ، ولم يدفع أو غيره مقابلها . وعلى هذه المعطيات قام ويقوم وسيقوم إلى آخر الزمان ، وجود آدمى وترتيب وتسلسل عمره أذواراً وأطواراً حتى نهايته . لم يؤخذ رأى أى منا فى وجوده ، لا يمكن أن يؤخذ ، لأنه لم يكن موجوداً قبل أن خلقه الخالق عز وجل وأوجده من العدم . وهذا الإيجاد الذى ينتهى حتماً إلى فناء وعدم ، بإرادة الخالق جل شأنه ، لولاه ما عرف كل منا وجوده ووجود أمثاله الطارئ الفانى المحدود ، ولا عرف ماضيه وخاتمته وأسرته وجماعته ووطنه ، وضالة نصيبه وحصته فى ذلك كله ، خاصة فى آتیه ومستقبله الذى لن يراه بعد غيابه واختفائه . ولولا هذا الإيجاد لما قرأ كل

منا ماضى الأحياء وحاضرهم ومستقبلهم بوسائله العرجاء التى يغشاها الغموض ، أو يقرأها بالخيال والأحلام والأوهام قراءة المسافر الراحل . ولولا هذا الإيجاد لما اعترف الإنسان بأن الأديان والأعراف والأصول والقوانين والعلوم والفنون والتاريخ الحضارة تسبقه حتماً فى الوجود وتبقى بعد زواله لكى تعيش بها الجماعات الآدمية ويستفيد بها أمثاله ممن يأتون من بعده ليكتسبوا بدورهم بها لديهم ثم يختفون ليحل محلهم خَلَفٌ يعالج زمنه وظروفه .. معتمداً على ما تركه له سابقوه مما بقى بعدهم لديه ، مع مواهبه هو واستعداداته هو التى لا آخر لها والتى أعطيت له مجاناً عند إيجاده .. وهكذا إلى غير نهاية يعلمها البشر ، تسير حياة الآدميين من ماضٍ عبر حاضر إلى مستقبل .. تمتلئ الحياة بالبشر لتفرغ ، وتفرغ لتملأ ، بلا توقف فى علمنا ونظرنا وخبرتنا الدنيوية .

وكل آدمى منا ، يستخدم مع وعيه وعقله الفردين يستخدم العقلية الجماعية السائدة فى محيطه دون أن يشعر باختلاف ، بل دون أن يلتفت فى الأغلب الأعم إلى أنها ليسا شيئاً واحداً ، وليساً من نفس الطبيعة ، وذلك لاندماجهما المعتاد فى مجرى حياته العاطفى .. وهما لا يتباينان إلاً خارج هذا المجرى حين لا يكون فى الأمر مجال لتحريك العواطف كما فى مسائل الرياضيات والطبيعات والكيمائيات وباقى المجرى والعموميات التى لا تتعلق بها أغراض الآدمى الخاصة أو العامة ، أو مصالحه الخاصة أو العامة . هذا وعقلية الجماعات بطيئة التغير إذا قيس بعقلية الفرد . لأنها تستغرق أجيالاً فى التكوين ، وقلما يلاحظ الحكام هذا التغير فى الإدارة وفى سياسة رعاياهم . وكثيراً ما يغالون فى الحماس للجديد من الأنظمة والمبادئ

والعقائد، ويجتهدون في حمل الناس على اعتناقها بكل حيلةٍ ووسيلةٍ ..
بما في ذلك التخلص من مقاومة المعارضين بالإبعاد أو الإغراء أو التهديد
أو الإفناء، وإلزام غيرهم بالطاعة والإذعان، وضمان ذلك كله بالمراقبة
الساخرة وإشاعة الخوف من العقوبة والبلاء، أو الإغراء بالمزايا والإشراك
في السلطة لمن يغيرهم أو يجتذبهم هذا الإغراء .. ليشتهى ذلك كله إلى مآسٍ
ونكبات وضياع وخسار .. تظل بعده عقلية الجماعة على حالها السابق القديم
من الالتصاق بعقائدها ومصداقاتها المختلطة بعواطفها وعواطف آبائها
المتوارثة والجمود والتحجر عليها !!

من تراب (٥١٨) التراجع والجمود والتطور الطريق (٣)

يبدو أن الاندماج في العواطف العميقة لغالبية الناس ، هو جوهر عقلية الجماعة ، وبدونه لا يمكن أن تتغير .. بدون هذا الاندماج العاطفي العميق الذي امتد أجيالاً وقروناً ما تركت الجماعات مللها ونحلها الأولى إلى معتقداتها الدينية التي تتمسك بها اليوم والغد ، تمسكاً لا يسمح على ما فيه من رخاوة وترخص لا يسمح بالنسيان والإغفال .

وبدئى أن مقصودنا من كلمة الجماعة وكلمة الجماعات ، بشأن عقلية الجماعة أو الجماعات ، مقصور على المجاميع التلقائية التي لا تحتاج إلى انخراط إرادي قصدى لتحقيق غرض ما أو أغراض معينة مشتركة ، كالجمعيات والفرق والمعاهد والنوادي والنقابات والاتحادات والأحزاب .. فمثل هذه المجاميع ينحصر تلاقحها على أغراضها وأهدافها من هذا التلاقح ، ولا يؤبه عادةً فيها لما يكون أو لا يكون بين المتممين إليها من تقليد عام مشترك يكون لها عقلية جمعية بالمعنى العام للمعتقدات أو المعتقدات التي تتشارك فيها الجماعة اشتراكاً تلقائياً يشكل العقل الجمعي على مدار الأجيال والقرون . بل إن هذه الفرق أو الجمعيات أو الأحزاب وما شاكلها أقرب إلى الفردية منها إلى الظاهرة الاجتماعية المبنية على الاندماج العميق للأفكار بالعواطف ، ويحدث ذلك لمجرد الاشتراك في وحدة الوطن أو وحدة الجنس أو وحدة الملة أو المذهب .

فعقلية الجماعة ، هى دائما من نواتج وعى الآدمى وعواطفه معا ،
بمزيج من الاشتراك والاندماج ، يمتص كل فرد حصته منه على قدر طاقته
واستعداده وتربيته وفهمه ومصادره المتاحة .. وذلك من دوام تبادل الواعى
وغير الواعى مع غيره من الأفراد فى محيطه بكل أدوات التبادل التى تمزج
بين رؤية الحاضر وما معها من آثار الماضى وما يتردد لديها من مخاوف وآمال
بالمستقبل .

فعقلية الجماعة ، أو عقلها الجمعى جماع دوافعها الواعية وغير الواعية ..
ترجع إلى سلوك مشترك واختيارات عامة تسير فيها أو تتجه إليها الجماعة ،
تؤديها غالبية الأفراد تأييداً مبنياً دائماً على اشتراك وامتزاج العواطف
والعقول فى الرؤية .. ومن هنا كانت قابليتها للتعديل والتقويم والتسوية
والتغيير والتبديل الجماعى قابلية مبنها الاستجابة لما تختاره الغالبية وتصر
عليه من أفكار أو معتنقات أو معتقدات أو مصدقات .

ولكن عقل الآدمى الفرد ، ليس كعقل الجماعة ، أو ليس هو هو عقلية
الجماعة ، وإنما هو هبة خلقية قابلة للتمدد إلى غير حد وقابلة أيضاً للتقلص
إلى غير حد . قد تسعى بالفرد إلى المزيد من الفهم والمقابلة والمعرفة ، ومن
الوصل والفصل ، والجمع والتفريق ، والتصنيف والافتراض والتصور
ومراجعة ما معها ، استجابة لداع أو لشك يدعوها للمراجعة لتصحيح ما
قد تجد أنه تسرب إليه الخطأ أو اللبس أو الوهم أو القصور أو الخلط فى
الملاحظة والمراقبة ، وترى أن عليها متى عثرت على شىء من ذلك ، أن تعلنه
للناس .. لأن هذا الإعلان هو المظهر الأمثل والأجدر والأكرم لتلك الهبة
الخلقىة ولما يلزمها من الإحساس بالأمانة والصدق على ما وهبت من نعمة

القدرة على رؤية الحقيقة بعيداً عن الغرض والمصلحة والعاطفة .
الجماعات لا تخلو في كل عصر ، من أفراد يستعملون صواباً أو خطأ هذه
النعمة ، ويعترضون صواباً أو خطأ على عقلية جماعتهم ، ويعترضون للأذى ..
تعلقاً منهم لإحساسهم بالأمانة في إعلان ما يعتقدون أنه حقيقة وصدق .
ويبدو أن هذا الصنف من الآدميين طليعة تشهد بحيوية النوع الإنساني .. لا
ينقطع وجوده إلا في المجتمعات التي تحللت وأوشكت أن تبيد .

وأنت ترى في الكتب المقدسة إشارات كثيرة إلى تلك الجماعات التي
كانت وانقرضت . وينبغي للعقلاء ألا ينظروا بعين القنوط إلى الجماعات
المتأخرة التي لا تزال تحتفظ حتى الآن ببدائيتها وتستسلم خاملة إلى ما هي
عليه من قديم ، مما لم يعد له الآن مكان أو معنى ! ذلك أن صحوة الجماعات لا
تحدث معاً ولا تبعاً ، حتى نفترض أن حال جماعة ما من الخمول لا أمل فيه .
فنحن لا نعرف إرهاصات وبشائر وتاريخ البشر المعروف لنا اليوم ، ولا ماذا
يجري تحديداً لهذه الجماعة أو تلك من اختلاف في الظروف وفي مواقيت هذه
الصحوة بين ما تم من آلاف السنين وبين ما لم يتم إلا من قرنين أو قرن واحد
وربما أقل من قرن ، وما هو الشاهد على انقضاء الصحوة وامتداد الإغفاء
واستمرار ذلك حتى تنقرض الجماعة وتندثر معالمها .. ولا ما هو الشاهد على
تداول أوقات اليقظة والغيوبة لتبقى الجماعة حية مزدهرة حيناً ومتدهورة
حيناً آخر .. لا ينقطع أملها في الازدهار ولا بحثها عن العودة إليه .

ذلك أن المهم هو بقاء فرص الجماعات في الوجود ومواجهة احتمالات
الحياة الاجتماعية بخيرها وشرها ، وبقاء وجود ذلك الصنف من الآدميين
الذين سلفت الإشارة إلى أنهم طليعة تشهد بحيوية النوع الإنساني والتمسك

بنعمة العقل وبالإحساس بالأمانة أو بالحاجة الداخلية إلى إعلان ما
يحتقدون أنه حقيقة وصدق ، وبضرورة اجتذاب آخرين إلى رأيهم وعقيدتهم
مهما كلفهم ذلك من عناء أو عرضهم للمخاطر والمشاق !

من تراب (٥١٩) التراجع والجمود والتطور الطريق (٤)

يبدو أن عقلية الجماعة ، وليس سحنة ومعالم أفرادها البدنية ، هي التي تميزها وتشخصها ، كما يبدو أن الجماعة أى جماعة تتغير تماما إذا تغيرت معظم أرسدها الفكرية والعقائدية .. أعنى مآثوراتها ومفاهيمها وعاداتها السلوكية والخلقية ومصداقاتها وعقائدها وتصير جماعة أخرى مختلفة تماما عما كانت عليه ، برغم احتفاظ معظم أفرادها أو جانب كبير منهم بمعالمهم البدنية المشتركة التي كانت لدى أسلافهم .

فالجماعة المصرية الآن ، لبست في مقوماتها هي الجماعة المصرية قبل الغزو البابلي أو الفارسي ، وليست هي الجماعة التي كانت موجودة إبان العصر المقدوني أو الروماني ، وغير الجماعة التي كانت في عصر الفتح العربي أو الفاطمي ، أو الحكم الأيوبي أو المملوكي أو التركي ، أو في القرن التاسع عشر ، أو خلال التغيرات التي طرأت في القرن العشرين .

وهذا لا يمنعنا ، كما لا يمنع غيرنا بالنسبة لتاريخهم وبلادهم لا يمنعنا من توقد عاطفة الاعتزاز والتعلق بأجداد من سبقونا من القدماء والافتخار بالآثار التي تركوها والشوق إلى إحيائها والرغبة في أن يرانا العالم في الإطار المجيد لتاريخنا .

والمهم أن نعى دائما عقلية الجماعة ، وأن ندرك أن ببطء هذا التغير ليس معناه ثباته ، وإنما لأن هذا التغير الدائم لا يشعر به معظم الناس لانشغالهم

بأمورهم وشئونهم ومصالحهم .. وذلك طبيعته أن الجماعة جماعة أحياء لا أموات وجماعة فاني لا خالدين .. يدخلون حياتهم إيجاباً من عدم ويغادرونها خروجاً من وجود ، تستمر ساقية حياة الأدميين في الدوران المتكرر والمتغير معا .

ومن أهم ما يتعرض للتغير في عقلية الجماعة أى جماعة إحساس أفرادها كبيرهم وصغيرهم بوجودها وضرورة انتباههم إليها واعتزازهم بهذا الانتماء والاستعداد والسرعة لتلبية متطلباته ، أى بالغيرة الجادة على الجماعة وصوالحها والإيمان بتقديم صوالحها على الصوالح والأغراض الخاصة بالأفراد ، وبالجماعات الأخرى . وهذا الانتماء احتاج تجميعه وتكوينه إلى زمن واعتياد طويل نسبياً .. قد يزول بسرعة مع المحنة الشديدة الشاملة ، وقد يفقد وجوده رويداً رويداً مع الاطمئنان إلى الرخاوة وإلى دوام الأمان والاعتياد على الالتفات المركز على الأغراض الفردية الذى يُنسى الناس معنى الانتماء إلى الجماعة وأنه يعنى تقديم حياتها على حياة الفرد .

وليس معنى هذا أن يقظة عقلية الجماعة لدى أفرادها تستلزم زوال أنانيتهم أو إضعافها .. لأنها لا تلغى قط هذه الأنانية قليلاً أو كثيراً .. وإنما تستلزم فقط الإيمان بتقديم صوالح الجماعة عند تعرضها للخطر ، وبالاجتهد فى ألا تتعارض معها صوالح الأفراد بل تتمشى مع ما فيه نمو واتساع مصالح الجماعة .

ثم إن هذه اليقظة أو الصحوة ، حين تشمل غالبية أفراد الجماعة ، تكون موجة عالية تجتذب ويتيه بها الأفراد عادة على الجماعات الأخرى . ويستحيل على الجماعة أى جماعة الاحتفاظ بعلوها ثابتاً عبر العصور .. لأنها تميل شأنها

شأن كل طاقة عالية إلى الفتور وإلى الهبوط بامتداد أوقات الرخاوة والطرادة والأمان ، أو بطول أزمنة الحرمان الذى كان ضريبة ما حققته من علو . ولذلك تعتمد ثقافة الجماعة حرصًا عليها بالحاح واجتهاد الدين والآداب والفنون في الإشادة والتذكير بها .. في محاولة لا تكاد تنقطع لتثبيت صورها حية في نفوس وعقول عموم الناس ، وقد تنجح في ذلك لبعض الوقت وبعض الظروف والأحوال ، وقد تنتهى بأن تطرب لها الأئمة فقط طربًا لا يحمل إرادة عامة أو إيمانًا قويًا مشتركًا ، ويصير مجرد مقولات حماسية أو وطنية كسواها من الأناشيد التى تتعزى بها الجماعات ، وتطرب لها حينًا ثم تنساها عقب الانتهاء من ترديدها أو سماعها !

هذا وربما نعيش الآن في عصر ابتعدت فيه عقلية الجماعة عن الخطوط التى عرضناها ، بل لعلها هي نفسها قد ابتعدت عن التأثير المحسوس في حياتنا الواعية .. أى حياة غالبية الناس .. فلا يكاد يشعر بها إلا قلائل غير عاديين ، ونكاد نقول إنها لم يعد يشعر بها أحد في حياته الواعية ، وإنما باتت فعالة فقط في حياة الناس غير الواعية في الغالب . المبنية على العادات والأعراف والتقليد والمحاكاة .

ربما كان ذلك بسبب إسقاط شأن عقلية الجماعة في البلاد المتقدمة ، ثم في البلاد المتخلفة المقلدة لها .. وقد حدث ذلك ، إلى حد بعيد ، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، بفعل نمو وسائل الإعلام نموًا سرطانيًا واتساعها اتساعًا هائلًا وتعدد وسائلها وأدواتها وتسلب الدعاية والإعلان والأغراض التجارية والنفعية والمذهبية عليها ، وضخامة الأموال والمصالح الدنيوية .. الدولية والمحلية التى تستخدمها وتوجهها .. وهى وسائل تلوك في كل

لحظة ذكر هذه أو تلك من المضامين التى هى أصلاً من أغلى مكونات عقلية الجماعة !!

وهذا الذى يؤدى إلى رخص هذه المضامين ، وأثره كأثر الجمود والتحجر ورفض التغيير والتطوير يجرى من أجل ترويج أية فكرة أو معلومة أو رأى أو قضية أو حركة أو اتجاه أو مشروع أو سلعة أو غرض .. بلا تقدير للمسئولية وبلا إخلاص فى تحمل التبعة ، مما كانت نتيجته تخلخل إيمان الأفراد بالجماعة ووهن حرصهم القديم على الانتماء إليها والعناية بها وتقديم صالحها المشترك على الصوالح والأغراض الخاصة ، ومن ثم تهاوى ووهن وفطور الاستعداد الفردى عند الضرورة ، لفداء الجماعة بالأموال بل بالأرواح .. والإقلاع بالوعى وباللا وعى عن العناية بالعقل الجمعى ، أعنى عقلية الجماعة ، والالتفات ولو لدى القلة إليه وإلى مقتضيات رعايته وتخصيصه لبقى حياً متطوراً يخرج من دوائر الجمود أو التخشب أو التحجر !!

من تـراب (٥٢٠) التراجع والجمود والتطور الطريق (٥)

ويبدو أن الخلل الذي أشرنا إليه ، وأصاب ويصيب بعض الجماعات ، ملحوظ الحدوث مع الترف والطراوة والرخاوة ، وملحوظ الحدوث أيضاً في الاستمتاع بالحريات العامة دون الالتفات إلى موجباتها ومقتضياتها .. ربما لأن شيوع هذا الاستمتاع المتحلل من التبعة يطلق العنان للأهواء والأغراض والمآرب والشهوات ، ويؤدي قصداً وبغير قصد ، إلى الترخص في القيم والمعتقدات ، وقد يسمح أو يؤدي إلى قلة المبالاة لدى الكثرة الكثيرة من الناس .

ومثل هذا قد لا يوجد في الجماعات المقهورة المغلوبة على أمرها ، المحرومة من الحريات العامة نتيجة استبداد الحاكم وبطشه واستبداد إداراته وبطشها ، وشيوع الفساد وتوابعه من انحصار الحكم في ذواتهم وفي مصالحهم ومآربهم وتوطيد دوام حكمهم أو ملكهم باستمرار التحكم في مصائر الجماعة المقهورة .. وقد يتشهى أفراد هذه الجماعة المقهورة فيما بينهم وبين أنفسهم ويتمنون انقشاع هذه الغمة ، وانقشاع القهر والخوف ، وانحصار أدوات ووسائل البطش ، وزوال الباطشين ، والأمل في مجيء اليوم الذي يُحترم الآدمي لأدميته وحدها .. من الحاكم وبطانته وأعدائه .. وأن تكون له مكانة وحقوق محل إقرار واحترام لدى الجميع .. لا يمكن أن تضيع أو تُضَيَّع أو تُتجاهل أو يتعدى عليها .

في مثل هذا الجو القاهر ، وقد عانيناه في مصر ربحاً طال من الزمان ، تعيش عقلية الجماعة محصورة مقهورة مغبونة .. لا تعيش من أجل ذلك على الواقع المر القاسي القاهر الذي تعانیه وتكرهه وتهرب منه ، وإنما تعيش على احتشاد الرجاء وتجمع الآمال وتمني أن تكون هذه الأمانى محققة لإنصاف المقهورين ، وأن تجيرهم من عجزهم للتغلب على الظلم والجور والقهر والإذلال والهوان !!

هذه العوارض الثقيلة ، صوارف تصرف تحت ثقل وطأتها شعور الناس بقيم الجماعة وقوتها وسبل إطلاق هذه القوة من عقلاها وكيفية الاستفادة منها بالاستناد إلى عقلية الجماعة للكفاح بها والاهتداء بقيمتها وبوصلتها من أجل الخلاص والحرية .

إن عقلية الجماعة هي زادها الحقيقي ، ومناطق فاعليتها ، تُضار بالجمود والتحجر ، كما تضار بالإهمال وبالالتفات عنها وعدم العناية برعايتها وتخصيها لتواكب الحياة التي في صيرورة دائمة ، لا تكف عن الحركة ولا عن موجباتها من التغيير والتطور والترقي ..

إن فضائل أي مجتمع ، تتوقف على عقليته .. وهي أي الفضائل من أهم مقومات تلك العقلية الجمعية .. ومهما حاول أو يحاول أي فرد ، أياً كان مركزه ومهما كانت قوته أو أدواته أو وسائله مهما حاول أو يحاول مقاومة جماعته أو قهرها أو معاداتها أو الجور عليها فإنه لا ولن يستطيع أن يصل إلى شيء دائم مستقر يحقق له أطماعه المريضة ، ومآله المؤكد إلى الانهيار مهما طال به الزمن ..

والشاردون شروداً وقتياً أو عارضاً ، غير نابع عن طبع أصيل وغرض مقصود ، لا يعدمون نهائياً هذه الفضائل التي تقوم عليها مقومات الجماعات

وعقليتها وحياتها .. ولا يستطيعون لذلك أن يتخلصوا نهائياً من نداء فضيلة أو أكثر من فضائل المجتمع المستقرة في ضميره وأعماقه . ومرجع ذلك فيما أبدينا ، إلى أن عقلية الجماعة مزيج من أثر العقول والعواطف المترسبة في الأعماق .. وربما يختلف قوام هذا المزيج لدى الأفراد .. شدة وضعفاً وكثافةً وضحالةً وصلابةً ورخاوة .. تبعاً لاختلاف الاستعدادات والظروف والأزمات والأمكنة .. بيد أنه لا توجد قط فضائل فردية صرفاً ، فهي من مقومات ومدد الجماعة ، لأن الآدمي كائن اجتماعي بفطرته .. فإذا انعدم ارتباطه بالمجتمع ، وهو ما يحدث للحكام حين يشتط بهم الاستبداد ويوغلون في عبادة الذات ومصالحها ، ينفصل الحاكم عن قيم مجتمعه وفضائله ، ويمسى شريداً منبتاً يعادى المجتمع ويعاديه المجتمع .. سراً إذا خاف بطشه ، وعلناً إذا تجاوز قهره !!

فإذا كانت الفضائل مردودة دوماً إلى المجتمع وعقليته وقيمه ، فإن المواهب والملكات دائماً فردية .. لأن مصدرها الخلقة والخالق عز وجل ، وليس الاجتماع والجماعة الإنسانية . ولذلك كان الأمل الدائم ، في كل عصر ، في هذه المواهب الفذة والملكات العبقريّة ، التي هيأت وتمهّئ للبشرية من وقت لآخر ، مقاومة الجمود والتخشب والتحجر وكسر شرائق الاعتياد ، والخروج من وهدة الظلم والإظلام ، وتحقيق الطفرات التي دلت شواهد التاريخ ، وبعض صور الحاضر على أنها نتاج تفاعل هذه المواهب الفذة مع جماعتها الإنسانية ، لتخرج بها إلى النور ، وتحقق أمانيتها في الاتصال الواعي الفاهم لسنن الكون وقيم وقيمة الحياة .

ماذا نعرف عن الكون

الهائل العظيم (*)

(١)

من

تراب (٥٢١)

الطريق

درج الناس ، قالوا أم لم يقولوا ، على افتراض أن الكون بأسره قد خلقه الخالق جل وعلا من أجلهم . فهل صحيح أن هذا الكون الهائل العظيم خلقه عز وجل خصيصا من أجل الآدميين ؟ أم أن تسلط الآدميين بما معهم من وعى وفهم وحيلة وذاكرة على الكائنات الحية الكبيرة الموجودة على الأرض ، هو الذى سَوَّغَ لهم أن الأرض التى يعيشون على قشرتها قد سخرت لنفعهم هم وحدهم ؟ وهل فاتهم أن يسألوا أنفسهم ما هو وضعهم بالنسبة لما ينالهم ويصيبهم ويفتك بهم من الكائنات الصغيرة والصغيرة جدا مثل الحشرات والطفيليات والميكروبات والفيروسات ؟ وأن يسألوا عن حالهم مع مفاجآت الجذب والقحط والأمواج والعواصف والأنواء والأعاصير والزلازل والبراكين والمجاعات والثورات والفتن والحروب ؟ وأن يتبهبوا إلى شدة قرب النعم من النعم والعلل من العافية والسخط من الرضاء والخراب من العمار والهلاك من الحياة ؟!

إن نعم الخالق عز وجل على كل حيّ : جاءت وتجيء دائما بلا طلب ومجانا بلا مقابل ، وأولها وأهمها الإنعام بالحياة قبل أن تكون ، وبالوجود والإحساس والاستمتاع به بعد العدم ، وتيسير الحرارة والضوء للحيّ بالشمس ، والقرار والغذاء له بالأرض ، والقدرة على الاستمتاع بالرؤية والهدوء بالسماء والأنس ليلاً بالنجوم والقمر ، والشرب والرى بالأنهار ،

(*) المال ٧/٩/٢٠١١

والسفر بالبحار ، والثمار والألبان والشهد بالنبات والحيوان والطير والنحل .. كل هذه ولا تحصى نوعاً ولا عدداً : هبات وعطايا مجانية لا يتسلط معطيها عز وجل على من أعطاها لهم ، ولا يقهرهم أو يذلهم بها ، لا يسمح لهم بأن يقهروا بها أمثالهم أو غيرهم .. بل ينتظر سبحانه من الجميع دائماً حثاً من المعرفة والشكر والحمد والمودة والسلام والأمان .. كل بطريقته وحسب مقدرته وما تتيحه له موهبته وإمكاناته التي فاز بها من الخالق مجانياً .. كرماً منه وعطاء وسماحة وفضلاً على من لا يستطيع لها تدبيراً ولا خافطاً وهو في لجة العدم إن كان للعدم لجة !!

والعجيب أن الأحياء لا يلتفتون قط إلى أن وجودهم أو حياتهم على اختلاف أجناسهم وأقوامهم وأعمارهم وأحجامهم هو في ذاته نعمة كبرى على الجميع .. يخفيها عن كل فريق انصرافه إلى أهله و!حصارهم في ذواتهم .. كأن الوجود بأسره مقصور عليهم دون سواهم !

كان ينبغي أن يفطن عقل الآدميين بعد تطوره إلى هذا التشتت الذي يحمل في طياته بذور وأسباب العداوات التي لا تهدأ بين الأحياء ، وأن يقودهم العقل الذي حُبِيَ به الإنسان إلى قيادة من يستطيعون قيادته من بنى جنسهم ومن غيرهم من الكائنات الحية إلى سلام وأمان جامعين مستقرين . لكن تطور الآدميين زادهم وهذا لافت زادهم اندفاعاً إلى الغرور والأثرة والترفع .. حتى على الكثرة من أبناء جنسهم ، وعلى الإمعان في استغلال الإنسان والحيوان واستعبادهما استغلالاً واستعباداً امتدا في الماضي إلى ما لا يبلغه الخيال ، وما زال يمتدان بصورة أو بأخرى في حاضرتنا وفي مستقبلنا إلى زمن لا نعرف مداه . وقد أدى هذان : الاستغلال أو الاستعباد إلى انقراض العديد

من أجناس الحيوان والنبات ، وإلى تدهور العديد من أجناس الإنسان بعد ضياع العديد منها ضياعاً بصورة نهائية لا رجعة منه !

والخالق عز وجل ، ولا يتقيد بالزمان والمكان .. فهو سبحانه وتعالى لا يتحدد ولا يرتبط لا ينفصل .. وقد تحار عقول البشر وهى فى أسر قيودها وشروطها وظروفها تحار فيما تشهده من شواهد الصبر التى تمهل ، أو ما تفاجأ به من مظاهر العجلة التى لا تمهل ، ثم تعود بعد أن ينجاب قلقها وحيرتها ، فترى حكمته سبحانه التى لا حدود لها وقد غطت وشملت كل ما كان ويكون من أجل وعاجل .. والله تبارك وتعالى لم يخلق جنسا من الأحياء من أجل جنس ولا نوعا من أجل نوع ، بل خلق عز وجل كافة مخلوقاته من أجناس وأنواع وحيوان ونبات وجما ، لينجلى إعجاز الخلق فى تنوعاتهم واختلاف استعداداتهم كبيرهم وصغيرهم .. ضئيلهم وهائلهم .. وليشهد الكل ثراء الحياة الذى لا ينفد فى كل طور من أطوار كائناتها وصورها .

كذلك ، لم يخلق الخالق غير الأحياء فقط من أجل الأحياء التى نعرفها .. بل إن غالب ما فى الكون الهائل غير حتى .. من ذلك السدوم والمجرات والنجوم التى لا عداد لها والكواكب والنيازك وما إليها .. أما الأحياء عندنا ، فلا تتجاوز قشرها أرضنا برها وبحرها وجوها .. وأرضنا كلها لا تتجاوز حجم ذرة فى الكون العظيم . وتبدو فى الفضاء اللا نهائى نقطة زرقاء لا حجم لها . وهى كوكب ثالث من كواكب الشمس فى ترتيب الصغر لا الكبر . تتوقف الحياة فيها على ما يصلها من ضوء الشمس بالقدر المناسب لهذه الحياة الموزعة بين اليابسة والماء . بل إن الشمس ذاتها ليست من كبريات النجوم ولا أواسطها ، ومنشأ طاقتها من استحالة عناصر الأيدروجين فيها

إلى عنصر الهليوم ، وتطلق طاقة نووية في درجة من الحرارة تبلغ شدتها في أعماقها ٢٧ مليون درجة فهرنهايت بكثافة تبلغ مائة وخمسين مرة كثافة الماء . وما تفوز به أرضنا من طاقة الشمس لا يجاوز واحدا على مليارين ومائتي مليون وذلك طوال مئات الملايين من السنين الجيولوجية كانت ولا تزال تزود أشكال الحياة كلها بزادها بما يلزمها من الطاقة عبر العصور والفصول . فالكائنات الحية في حدود ما نعرفه لا تتجاوز هامش هامش من الكون الهائل العظيم ، ونصيب الأدميين في هامش هذا الهامش ضئيل ضئيل .. ليس كبيرا لا من حيث القدم بالنسبة لخلق الكون ، ولا من حيث العدد الذي يملأ الكون ببلايين البلايين من الأفلاك والشموس والأقمار والنجوم والكواكب والمجرات والسدوم .

من **تـراب (٥٢٢) الهائل العظيم** **الطريق (٢).**

ربما كان منشأ ما نشعر به من أهمية أنفسنا ، أهمية مبالغاً فيها ، راجعاً إلى شدة العزلة التي تستغرقنا ولا نستطيع الفكاك منها منذ وجدنا على هذه الأرض .. فلم ولا يشاركنا في وعينا غيرنا من الأحياء الموجودة معنا ، ولا يفهم ما نقوله وما نرغب فيه وما نخاف منه سوانا ، لا يتفوق علينا فيما حولنا أحد فيما نصفه بالذكاء أو الفطنة أو الألمعية أو الخبث الواعي ، وفي ملكتي الاكتشاف والاختراع أو الإبداع ، وفي القدرات المتعددة على التعلم والتطور والتخيل والحفظ والتصور والاستحضار والاستشراف ، لاسيما القدرة على الحياة بمعونة الكليات والعموميات وحسن وسوء استخدامنا إياها في كل اتجاه نتجه إليه .

وربما كان وراء تلك العزلة وعمق شعور الإنسان بها ولعه الملحوظ في كل زمان ومكان باستئناس وتدجين بعض الطيور والحيوانات ، وإعزازها وبذل الوقت والجهد والمال في العناية بها ورعايتها .

على أن تيه الآدمي بقدراته ومواهبه منذ وجوده المسبوق بوجود آلاف غيره من الكائنات الحية بملايين السنين لم يفلح في ردع هذه الكائنات عن غشيان جسده من داخله وخارجه ما استطاعت ، ولا عن غشيان ملبسه ومسكنه ما استطاعت ، ولا عن غشيان ما زرع وما أصلح واستنبت وربى وأنشأ وأقام واخترع وابتكر وركب وركّب .. لأنه لم يستطع فرض وجوده

ودوامه عليها ثم هو فان مثلها ، ولم يستطع أن يعصم جثته من التهامها إياها بعد رحيله .. مدفونة كانت أو غير مدفونة .. ولم يختلف رد فعل الكائنات غير الحية على الآدمي في بدنه ونفسه وحياته كلها .. فهي تقاوم بلا انقطاع وجوده وتنهك أنسجته وتبلى قواه وتحدد أمد حياته وتحيل جديد ما معه وما يبدعه .. تحيله قديما ، وتحيل جميله قبيحا ، وسهله عسيرا وخفيفه ثقيلا .. ثم تهدم ذلك كله وتحربه وتعود به ترابا كما كان أول مرة !!

والآدمي فوق كونه حيا فانيا حتى كادح دائما ، شأنه شأن باقى الكائنات الحية ، لم تغلح الثروة ولا القوة ولا السلطة ولا السيادة ولا الفضيلة ولا الرذيلة ولا الصغر ولا الكبر ولا الأنوثة ولا الذكورة ولا العقل ولا الحكمة في إعفائه من الكدح ما دام حيا ، أو إراحته من السعى الدائب طوال وجوده على الأرض في التخلص من كدحه ، وإنما أعانه على إخفائه خارجيا في أحيان كثيرة ، ليستقر داخله ، أعانه على هذا الإخفاء المادى الخارجى المزيد من الكدح المضاعف أضعافا مضاعفة بصورة أقسى وأعتى وأصعب احتواءً ومعاناة .

ونحن بالفطرة ، نخفف عبء الكدح بحب اللهو الذى ينسينا إياه ، والإقبال عليه حين تتاح فرصته ، وهى لغاليتنا ضيقة قليلة العدد والأمد . ومعظم ما معنا مما ننسى فيه ثقل ودوام كدحنا خيال وأمان وتوقع لما لا يقع وأمل فى مستقبلات لا تتحقق .. فيها صورة أو صور لحياتنا خالية مما نعانيه أو نخاف معاناته التى كابدها فعلا آخرون غيرنا من أمثالنا .

ومع ذلك كله نحن نحب الحياة حباً غريزيا ، ونخاف من الموت ونفرّ منه ما استطعنا ، خوفاً وهرباً غريزيين .. لأن تعلقنا بذواتنا فيها يبدو أقوى من

كل شيء آخر .. وربما كان ذلك أجلى وأوضح لدى المريض المدنف والشيخ
القعيد .. وكل شقاء أو ألم يقابله الحى أهون عليه من مقابلة الموت ، إلا إذا
أنسى صاحبه قيمة شعوره بذاته وتمسكه بها . ويقع مثل هذا النسيان جماعيا
لدى العديدين من الخلق فى الكوارث الطبيعية والفتن وصور الدمار الشامل
أو الواسع الذى يفاجئ المجاميع فى البر أو فى البحر !

وما يلاحظ من تعلق عموم البشر العاديين بالبساطة والتبسيط فى الفهم
والأفهام ربما كان مرجعه لتعلق كل منهم بحياته تعلقاً يبعده عن التفتن
بإمعان .. لشدة وإحكام فى كيانه البدنى والنفسى من تركيب وتساند وتوازن ..
ومن التفتن لما يتعرض له هذا الكيان من كثرة الاحتمالات والظروف
والأحوال والمخاطر التى يزيد الالتفات إليها، والخشية منها ، مصادر وأنواع
القلق المألوف الذى يلزم حياة الإنسان والحيوان عادة . وهو ما قد يجعل
حياة الحى شاقة غير ممكنة فعلا للآدمى العادى .

ويبدو أن استمرار بقاء الآدميين واستمرار تطورهم أو تغيرهم كما
توقف ويتوقف على تركيبهم العضوى ، فإنه يتوقف أيضا ، وبدرجة أشد ،
على تركيبهم النفسى الذى من لطف الخالق سبحانه وتعالى ، أنه مرعى
فيه تلطيف وتبسيط وعيمهم مدى قابليته للاتساع من الرؤية المناسبة للنظر
للكون من أحياء وغير أحياء ، وصدق الحق سبحانه وتعالى إذ يقول فى كتابه
العزيز : ﴿ وَمَا أَوْتِيْتُمْ مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء] .

من تراب الطريق

(٥٢٣) رابطة العقائد(*)

(١)

العقيدة أو العقائد السائدة في أى جماعة من الجماعات ، عبارة عن رابطة بين معتنقيها .. وهى لا تكون عقيدة إلا إذا صارت رابطة بين فئة من الناس يشتركون في اعتناقها .. أى التقيد العميق بها والشعور القوى بأن تمسكهم بها يميزهم عن غيرهم ممن ينتمون إلى عقائد أخرى أو لا ينتمون إلى أى عقائد . وهذا الشعور هو العنصر الأهم الحاضر دائما في كل عقيدة وبدونه تصير مجرد فهم أو رأى أو وجهة نظر فردية في موضوع أو موضوعات قد يستجد لدى صاحبها ما يسمح له بتعديل موقفه منها أو تغييره ، أو تركه كليةً .. دون أن يحس بكبير حرج أو تخرج أو خوف أو خشية من اتهامه بالخيانة أو المروق . وقوة الشعور بهذه الرابطة ، لا تتأثر متى وجدت تأثرا كبيرا بشواهد صحة أو بطلان المفاهيم المتعلقة بالعقيدة التى تتداول بين المتؤمنين إليها . علما بأن تلك المفاهيم عرضة باستمرار للزيادة أو الحذف أو التحوير والتعديل وتغيير مركز التأكيد من عنصر إلى عنصر آخر فيها خلال توالى الأحداث والظروف وانتقال حياة آدمى من زمان ومكان إلى غيرهما بلا توقف .. وهذا كله لا سبيل إلى مصادرتة أو تفاديه أو منع وقوعه حتى مع الاجتهاد فى التمسك بأصل العقيدة والمغالاة فى محاولات التزام هذا الأصل والثبات عليه وعدم تجاوزه بتاتا .

والعقيدة الدينية شأنها فى هذا كله شأن العقائد بعامة .. تقوى أو تضعف تبعا لقوة أو ضعف الشعور بالرابطة التى تربط معتنقيها بها ، وتنفرد عادة

(*) المال ١٤/٩/٢٠١١

باتصالها الوثيق بالماضى وبالأباء والأجداد وبالتاريخ وأخباره عن أمجادها
ومآسيها ملونة بألوان العاطفة والخيال .

وقد مرت أزمنة طويلة كانت فيها مفاتيح عواطف الآدمى وسلوكه
مستمدة من عقيدته الدينية التى مدت تعاليمها وسلطانها إلى دنيا الآدمى
وأخراه بغير استثناء .. ثم تغيرت الحال تباعاً إلى انفصال المجتمع المدنى
بحكامه ومحكميه انفصاليا يكاد يكون تاماً عن الديانات ونظمها وتعاليمها
وتاريخها وأفكارها فى معظم بلاد العالم المتحضر .. واعتاد الناس ذلك سيما
من القرن الماضى .

وأدى ذلك إلى إضعاف قوة الفروق المبنية من قديم على الاختلاف فى
الدين أو فى الملة أو المذهب .. وذلك فى الأحوال العادية التى لا يشكو فيها
عامة الناس من الحاجة أو النقص أو البطالة أو الغلاء .. أو من الاستبداد
والظلم والاضطهاد والمصادرات وتكبير الحريات ومحاصرتها والتهجم
عليها .. وتضييق العالم على سعته على الآمال التى بدونها تنكمش وتضوى
الأرواح والعقول والأنفس .. وفى هذه البلايا يعود عامة الناس غالباً إلى
الدين أو الملة أو المذهب ، ولكن هذه العودة غالباً ما تكون مليئة بالتعصب
تبعاً لما تتخيله العامة بعد طول ترك وإهمال وجهل .. وتسلم زمامها لمن تجده
قريباً منها من رجال الدين الذى كثيراً ما يفرح بعضهم بالفرصة الطارئة
مع قلة حيلتهم وقصر نظرهم وارتيانهم فى معظم أمورهم إما إلى الغيب
وإما إلى الدسائس والفتن .. وفى مثل هذه الأحوال نشاهد كثرة اجتماعات
المتدينين حول كهنتهم أو مشايخهم ، وتحمسهم تمحس كهنتهم أو مشايخهم
لأمر بعيدة لا شأن لها بالأسباب الواقعية لأزمات البطالة أو الحاجة أو

الغلاء أو الاستبداد أو الظلم والاضطهاد .. ومن اللافت أنه سرعان ما يُصرف اهتمام العامة عن بلاياهم وضنكهم إلى الأفعال وردود الأفعال بينهم وبين الحكومات الظالمة ومع حفظة الأمن التابعين لها ، ويختلط في هذا كله ضرورات الثأر والانتقام ووضع الخطط لذلك والاستعانة بذوى الخبرة من الداخل والخارج في إطار ما يستطيعون الحصول عليه من المعونات والتكريسات ممن يحبون الاصطياد في الماء العكر ! حينذاك يحل القلق العام وعدم الاستقرار مع استفحال المشاكل وازدياد المغارم ، وفرض المزيد من القيود والأعباء ، وكثرة الضحايا والتضحيات بتوالى الاضطرابات والفتن .. مما يجعل الأزمات والشدائد الجديدة أفحش حجماً واحتياجاً للعلاج من السابقة عليها .. وذلك لغياب الصبر والتعقل وصعوبة ضبط الغرائز والعواطف واستحالة التساند والتآزر بين الجميع !

هذا والروابط المبنية على العقائد ، خاصة العقائد الدينية ، تشبه الجزر إذا لم تلاق من المحيط ترحيباً ويلقى منها نفس الترحيب والتعاون والمعايشة القائمة على الاحترام عند ذلك يحدث التعادى بسبب عُقدٍ لم تنحل مع المعاشرة والزمن ، ويصير الميدان ميدان سيطرة لفريق متفوق عملاً على فريق ، أو سيطرة لأغلبية على أقلية يلوك فيها الجانب المستضعف ضغائنه ويمضغ أحقاده باستمرار .. لأنه يواجه في كل ساعة مرارة هوان لا يستطيع ابتلاعها ولا نسيانها .. وقد شوهد شيء من ذلك إلى وقت قريب بين الأغليات البيضاء والعناصر الملونة ، أو بين الأغلبية المسيحية وبين البروتستانت والعكس . وهذا فيما يبدو شيء يصعب علاجه لأن قوامه تلقين البيوت والعائلات منذ الحداثة .. وهو تلقين شعبي عاطفي خالٍ من التحقق والتحقيق يجرى ويتنقل من جيل إلى جيل ولا يجد في الغالب واقعا معنيا به يكفكه أو يكذبه ويزيله ويمحوه .

من تراب الطريق

(٥٢٤) رابطة العقائد (*)

(٢)

لا غرابة في أن أول ما يفكر فيه المستضعفون ، هو الرد على العداوة بمثلها ، واستعجال اليوم الذي يستطيعون الرد فيه لغرمائهم على ما لاقوه ، أملين أن يردوا إليهم الصاع صاعين ، وقد يفكرون في ترك البلد الذي تعرضوا فيه للاحتقار والامتهان ، إلى بلد آخر ينفردون فيه بالسلطة والنفوذ ، ويشعرون فيه بكامل قيمتهم .. مصطنعين لأنفسهم وطنا خاصا بهم سواء بالشراء أو بالحرب أو بهما معا . ولكن أكثر ما يلجأون إليه هو استثارة الظروف التي تعرضوا فيها للاضطهاد غير العادى ، وللمحن التي صادفتهم ، والإلحاح في التذكير بها كيما توظف في بنى جنسهم أو جلدتهم الإحساس بالخطر العام المهدق بهم ، وكيما تقوى إحساسهم بقوة الرابطة العقائدية التي تربط بينهم ، سواء من تعرضوا منهم لهذه المغارم والأخطار ، ومن لم يتعرضوا لها .. وقد يؤدي ذلك في نظرهم إلى تكاتف في موقف جماعى يوقف الجانب المتسلط عند حده .

على أن هذا التكاتف لم يحدث تاما كاملا قط ، ولم يحصل إلا ناقصا وغير نهائى ولا يستمر قويا إلا لأجل محدود ، تعود بعده حالة الهوان أو الامتهان كما كانت عليه ، وقد تمتد لسنين أخرى طويلة ، تتكرر فيها المعالجة غير الناجعة ، ولا تنقطع فيها الشكوى لأن أسبابها قائمة لم تنقطع .. وهذا الاشتباك بكافة صوره المعنوية والمادية ، باق في الجماعات ما بقى الالتفات

(*) المال ٢٠١١/٩/١٥

إلى نداءات الماضي وأحقاده من جانب ، وإلى افتئات الماضي وغروره وغطرسته من الجانب الآخر ، وعدم الاقتدار على تركيز الالتفات والإرادة والجهد من الجانبين لاغتنام الفرص التي يتيحها الحاضر والمستقبل القريب لتجاوز هذا الاشتباك وتطوير الأحوال وترقية الأوضاع والعناية بتبادل المنافع والخدمات وإعطاء كل ذى حق حقه وازدراء ما كان من كبرياء كاذبة تجتر جراحها باستمرار ، أو تحذر غفلتها وغرورها بإيلاام الآخرين والتندر بإيماهم وأوجاعهم .

وهذا التركيز على الالتفات والإرادة والجهد لتطوير الأحوال وترقية الأوضاع يمكن بالتعليم والمثابة عليه ، وبالثقافة والتنوير ، ثم بالحرص على العمل والمثابة عليه فى خدمة معالجة وتخفيف العداوات التى تتقاسم المجتمع الواحد ، وهو علاج من شأنه أن يزيل التعصب والمغالاة ، وأن يجعل الفروق التى بين الديانات والملل والمذاهب فروقا مقبولة ، من واقع أن اختلافها من واقع الحياة ، وأن هذه الفروق ينبغى التعامل معها بسعة صدور تحترم العقائد الأخرى مثلما تحترم وتؤمن بعقيدتها ، وفهم أن هذه الفروق لا تحول بين هذا أو ذاك وبين ممارسة الحياة وأنشطتها والوصول إلى ما يتمناه كل منهم من الحياة المحترمة التى تسعد الفرد على قدر سعيه وعمله وصدق عزمته .

هذا ولا تزال توجد إلى اليوم ، بين أهل كل عقيدة دينية أو عنصرية أو جنسية لا تزال توجد هنا وهناك جيوب تعيش على التباكى والتشاكى وترديد الشائعات والتقاط وترويج المثيرات .. وقلما يوجد فى هذه الجيوب هيئات معنية بتوجيه بنى دينها أو عنصرها أو جنسها إلى اغتنام الفرص الحاضرة

والمستقبل التي ألمحنا إليها .. وهي فرص معروفة ومتاحة ليست في حاجة إلى أكثر من الالتفات إليها وحفز الإرادة والعزيمة لا غتنامها تحقيقا لغاية لا يختلف عليها العقلاء .

إن تنحية ومعاداة العقائد من غير العقيدة الدينية أو العنصرية أو الجنسية السائدة يعكس لدى الأقليات كآبة وصلابة ذلك الماضي الذي أفرز هذه العداوة والذي يأخذ بخناق الناس في حاضرهم ويغيم بسحابات مظلمة على مستقبلهم .. فهذه التنحية أو الفرز تعزلهم عزلة نفسية غائرة يشعر بها عامتهم وخاصتهم ، ولا يستطيعون أن يتغلبوا عليها إلا في حدود لا تريح ولا تستأصل أصل الداء ، سيما إذا كانت مصحوبة بموانع شرعية كالزواج والتوارث أو نظامية توزيع الوظائف العامة أو غيرها من المواقع .

وربما كانت الحاجة إلى العلاج أشد وأكثر إلحاحا لدى المتمين إلى الأغلبية في الجماعة إذا كانت السيادة والسلطة في يدها .. لأنهم يرون أن تميزهم بمزايا الأغلبية وتفوقها وتقدمها على الأقليات يرونها حقاً أصيلاً بديها لهم .. لا يقبل المناقشة بل تقضى به طبائع الأمور .. فهم يرون أنفسهم الأصل والأساس والكثرة ، وأن غيرهم فرع أو فروع تتبع الأصل وتستمد وجودها وثمارها منه ! وهذه أكثره خيال مبناه صولات العنف ومصادفاته .. وهو قليل الاعتماد على المواهب والقدرات والكفايات الحقيقية ، وإنما يستعين بما معه من الزهو والمبالغة والتهاجد مع ضعف الهمة وقلة اليقظة ، ومع غلبة الميل إلى الوهم واللهو وتضييع الأوقات والفرص ، مستغن بذلك عن منافسة الجادين في جدهم والأيقاظ في يقظتهم وسعيهم وفهمهم والتفاتهم ، ومنصرف عن تطلع النشطين المجتهدين إلى غدٍ أفضل نجاحاً وأوسع أفقاً وأسرع تطوراً !

من تراب الطريق

(٥٢٥) رابطة العقائد (*)

(٣)

غالبية الناس ما تزال شديدة الحرص على ما ورثته من الحقوق التي تكاد تكون خالية من الواجبات .. والأغلبية المتسيدة في عالم اليوم ، ما تزال حتى الآن شديدة الحرص على ميراثها من حقوق لا يقابلها واجبات والتزامات نحو الأقليات بمجتمعها .. ولا تريد أن تفرط ولا أن تفلت من يدها شيئاً كان لها أو لأبائها وأجدادها .. يملؤها الخوف على تميزها وتزعمها من أن يغلبها عليها الأذكىء النشطون العاملون الجادون الذين يمكن أن يتقدموا ويقتادوا من عاشوا على الغرور والكسل والغباء وقلة جدهم !!

ويبدو أن الأمور لم تعد الآن كما كانت عند الأولين .. لم تعد تسمح بأن يترك الأذكىء ذكاءهم والنشطاء نشاطهم وعملهم وجدهم وأن ينضوا تحت جناح الأغبياء المغرورين العاطلين من القدرة والعطاء .. ولم يعد أمام هؤلاء الذين ارتاحوا إلى أغليبيتهم وغرورهم ، ألا أن يخرجوا من شرنقة الخمول الذي اعتادوه وألفوه ، ويقبلوا المنافسة بقوانينها ومعطياتها ، أو أن يستسلموا لزوال القوة التي ظنوا أنها لا بد وأن تدين دواما للأغلبية مهما خملت وانطفت ، وأن يفارقوا ويرحلوا تاركين الأرض للقادرين على تعميرها وتطويرها ، أو أن يعملوا لديهم وتحت إمرة قيادة ذكائهم ونشاطهم ، لتتحول الأغلبية التي نعمت زمانا بالقوة والمزايا ، إلى سُخْرة أو ما يشبه السُخْرة لدى من تفوقوا بقوانين وأدوات الصراع !!

(*) المال ٢٠١١/٩/١٩

نعم . لم يعد الأمر كما كان ، خاصة في البلاد المتطورة المتقدمة .. اللهم
إلا في الطبقات الدنيا التي تعيش في تخلف تام معنويا وماديا .. تكرر ما كان
عليه أجدادهم فكريا وجسديا.. ومثل هؤلاء تقريبا تعيش أغلبية الناس
في أفريقيا وفي معظم آسيا وأكثر أهل أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية ..
يعانون من ذلك التضاد المقلق الذي يظهر ويختفى ليظهر ثانية بين الأغليات
والأقليات .. هذا التضاد الذي لا يريد أئى من الفريقين أن يفرط فيه ..
لأن كليهما يتمسك بياضيه تمسك المعتز أو تمسك الساخط الثائر عليه : هذا
بأحقاده وذاك بامتيازاه واعتزازه . وإلى أن تفارق هذه الملايين من البشر ما
اعتادت عليه وألفته من ذلك ، وأن تنظر إلى واقعها وحاضرها ومستقبلها
بعين العقل واتخاذ الأسباب ، لا بعين الغرور أو السخط واجترار الغيظ
وقلة الخيلة .. لا سبيل لهؤلاء للخروج من وهدة ما هم فيه إلا بأن تنسى
هذه المجاميع ماضيها نسيان اليقظ الذي استيقظ من سباته وتقفن لما يجديه
في محيطه .. وركز همه وجهده على إدراكه والوصول إليه والحصول عليه ..
وهذا يحتاج إلى إفاقة وإصرار ومثابرة ، وإلى سريان روح اجتهاد الصاحين
الواعين الفاهمين إلى طوفان الخاملين الغافلين الأغرار الأغبياء أو المتغايين ..
وبديهى فإن سريان هذه الروح وانتقالها في تيار متواصل قوى من المجتهدين
إلى الخاملين يستلزم عشرات السنين ، مع تغيير معالم المحيط إلى المزيد من
التذكير بالحاضر والمستقبل ، والتقليل ما أمكن من الإحالة على الماضى وسد
ذرائع الردة إليه والاتكال عليه !

وهذا يفسر ما يلاحظه المتأمل من بطء انتشار الفطنة بين البشر رغم سعة
انتشار الوسائل والأدوات والآلات والأجهزة والسلع ومظاهر العمران
وفيض المطبوعات والمسموعات والمرئيات من كل لون وصنف وامتداد

وسائل النقل والإعلام إلى أبعد بقاع الأرض والسرعة الهائلة في التقليد والمحاكاة في المآكل والمشارب والملابس وفي الزينة والزهو واللهو !!

أما ما هو داخلي جوهرى فلا يكاد يزيد ولعله يتقلص ويتخافت ويتعد .. يخفى تراجع نشاط ما هو خارجه بإغراءاته وبحركته ويسر تبادلته وعدواه وتبديله وتغييره تبعا للأمزجة والأهواء ودواعي الكسب لدى مراكز الصناعة والتجارة التى باتت إليها السيطرة في العالم .

إننا ضحايا دون أن نشعر .. ضحايا تركيزنا وإمعاننا في التركيز على كل ما هو عرضى بل هامشى .. لا فرق بين الرجل والمرأة ، ولا بين الكبير والصغير ، ولا بين العالم والجاهل ، ولا بين المجرب والسادج ، ولا بين العاقل والأحمق الطائش .

وهذا التركيز على العرضى الهامشى يغوينا ببعض المنافع العاجلة التى قد نتعود على إدمان تصيدها والغرق فيها .. فيتعطل أو يحتل تعاون وتساند أجهزتنا النفسية والعقلية حول وحدة ذاتنا .. هذان التعاون والتساند اللذان نتأمل بهما ونقرر ونعزم وننفذ ويكون لنا منهما مبادئ وأصول وأخلاق . وبدون ذلك نفقد دون أن ندري قدرتنا على الإخلاص والوفاء والالتزان والصداقة والمحبة ، وما تعنيه كلمة الحكمة .. أى نفقد معظم إنسانيتنا ونبادل بقية الأدميين الذين نخالطهم أو نتصل بهم أو نتعامل معهم نبادهم هذا الفقر الكئيب !

من تراب الطريق

(٥٢٦) رابطة العقائد (*)

(٤)

إن عالمنا الحاضر واسع المعارف الطبيعية والوضعية سعة غير مسبقة ؛ إلى حد أنها عمت الآفاق وغصت بمنتجاته الأسواق . لكنه على سعته الهائلة في ظاهر ما يحصله من علم وما يقدمه من إنتاج ومبتكرات وسلع من شتى الأصناف والألوان ، لا يكاد يمس أعماق آدمى . لأنه لا ينشد ابتداءً وانتهاءً ترقية داخل الإنسان كما كان يفعل عشاق وطلاب المعرفة في الزمن القديم .. برغم قلتهم آنذاك وقلة إمكانياتهم وقلة ما كان لديهم من الوسائل والأدوات والفرص ، بينما صار عالمنا الآن لا ينشد من معارفه في الدرجة الأولى إلا الشهرة والسمعة والرزق والمنفعة والاتصال برجال المال والأعمال وفتح منافذ الصناعة والتجارة على كافة مصاريعها وإفساحها بلا حد .. ويكاد اهتمامنا اليوم بالمعرفة والعلم والتعلم يكاد يتوقف عند ما هو محسوس وخارجي وعرضي وعملي وتكنولوجي ويسوقنا سوقاً شديداً باستمرار إلى خارج كل منا .. أى إلى ما ليس لنا عليه سلطان حقيقى .. سلطان يمكن لوعينا وفهمنا وإرادتنا وذات كل منا أن تحدد وتراقب خطواتنا فيه مراقبةً متأنية فعالة منظمة محققة لتوازن مطرد فعال بين داخلنا وخارجنا .. ونظراً لفقد ذلك التوازن بات كل تقدم أو تطور في عالمنا ينطوى على مكنون من المخاوف وإرهاصات التخلف تهدد بدمار توشك أسبابه أن تنفجر وتطلق من التداعيات ما لا قبل للآدميين بكفاحه والصمود في وجهه !

(*) المال ٢٠/٩/٢٠١١

ومن الملحوظ ، أن الروابط بين مجاميع الأفراد في جماعة معينة ؛ تميل إلى ترجمة نفسها إلى عقائد وأعراف فكرية ومادية ؛ لتعود فترجم نفسها إلى روابط اجتماعية أكثر تركيباً وتعقيداً .. وتكرر هذه العملية طرداً وعكساً بغير انقطاع ما بقيت الجماعة محتفظة بوجودها . ولذا كانت محاولات تفسير العقائد أو المعتقدات تفسيراً يردها إلى أصول بسيطة قابلة للفهم الواضح غير المشوب بالافتراض والخفاء والغموض كانت هذه المحاولات بالغة الصعوبة والتعقيد ، لكنها لم تثن الآدميين عن ممارستها بالقدر المتاح في كل عصر حسب ظروف الزمان والمكان والمحيط .. لأن البشر لا يكفون عن قلب النظر والفهم ولا عن تعديله وتغييره ؛ كلما رأوا الفرصة مهيأة أمامهم لذلك .

وجود عقل الآدمي ، مهما اشتد ، هو جمود نسبي .. لأن العقل البشري إنما يعيش على احتمالات يعايشها .. وهي كامنة ومتغلغلة في صميم يقينيته وثوابته .

ومعايشة الاحتمالات والاعتماد الدائم الهائل عليها ، جرى ويجرى بصورة معقدة دائبة التعقيد والتركيب .. وهي التي حفرت فيما يبدو تلك الهوة العميقة جدا بين الآدمي وبين بقية الأحياء ، رغم التماثل العجيب الذي بينه وبين الثدييات العليا في الجسد والغرائز .. وبرغم هذا التماثل ، لم تستطع أى طائفة أو فرد من هذه الثدييات العليا عبور تلك الهوة التي تفصلها عن الآدميين ومشاركة وعى الآدمي واحتمالات وعيه .. كما لم يستطع الآدمي إلغاء وجود هذه الهوة أو نسيانها على أى نحو في صلاته وتعامله مع كافة الأحياء الأخرى التي تسيدها بحكم ما له من عقل وذكاء وفطنة .

ويبدو أننا ندين إلى الاحتمالات التي ليس لها حد أو نهاية ؛ ومعاشتها
والالتصاق التام بها ، ومقابلتها ومواجهتها .. ندين لهذه الاحتمالات بكل ما
يكون معنا مما نسميه حضارة وتمدنا ومعرفة وعلمنا وفنا وذوقا وفكرا ورقيا في
آدابنا وسلوكنا وأخلاقنا ، وفي مساكننا وطعامنا ولباسنا ، وفي كل ما يخالط
حياتنا في عملنا وحركتنا وسعينا وراحتنا ولهونا ورياضاتنا . ولو توقفت
مسيرة هذه الاحتمالات غير المحدودة التي نعيش بها ونواجهها ونعيشها ،
لتوقفت تماما حياتنا التي نعرفها ، وتوقف معها كل ما نسميه آدميتنا وبشريتنا
وإنسانيتنا .

ودور العقائد ، والرابطة التي تربط بين أهل كل عقيدة ، بمثابة السقف
الذي يتطامن به وتحتّه معظم الآدميين في حركتهم وسعيهم في خضم الحياة
التي لا تبقى على حال ، وتجري أقدارها في صيرورة دائمة يتوقف الأحياء
عن الحياة إذا لم يفهموها ويلاحقوا حركتها .

من

تراب

الطريق

(٥٢٧) ملكة الخيال (*)

(١)

من يراقب صفات وأحوال الإنسان وسائر الأحياء ، يلاحظ أن أميز ما مُميّز به الإنسان إلى جوار العقل ملكة الخيال .. فإذا كان لبعض الخلائق قدرٌ ما من العقل ، ولو ضئيل ، إلا أن ملكة الخيال خاصية إنسانية صرف لم يمنحها الله عز وجل لغير الإنسان ...

والإنسان لا يتخلى عن الخيال في أية لحظة من حياته .. يقظا كان أو نائما .. ذلك أن الإنسان لا يستغنى قط عن الوعي ، والوعي لا يستغنى عن الإدراك البشرى ، والمركبة الأولى والأخيرة لهذا الإدراك ولما يصحبه من تفصيلات وأحكام واحتمالات هي الخيال الذى يزودنا باستمرار بالصور والعلاقات التى لا حصر لها ، والتى منها نسيج وعى حياة كل منا .. صغيراً كان أو كبيراً .. جاهلاً أو عارفاً .. بدائياً أو متحضراً . ونحن لا نستطيع أن نرى تلك الصور والعلاقات والأحكام والاحتمالات لا نستطيع أن نراها على أنها صادقة أو متوهمة إلا عن طريق ما يرسمه خيالنا لوعينا . وما نراه فى وعينا ليس هو الصورة الحقيقية الفعلية لما هو موجود مما يستطيع كل موجود آخر غير الإنسان أن يراه كما يراه الإنسان .

ونحن فى حال اليقظة نرتب عادةً على ما نراه وندركه أن ما معنا واقع ، مع جواز أن يتبين لنا فيما بعد أننا أخطأنا النظر أو الفهم ، ووقعنا فى وهم أو خطأ .

(*) المال ٢٦/٩/٢٠١١

وعكس ذلك يكون اعتقادنا لما نراه في النوم من الرؤى والأحلام .. فالغالب ألا نحفل به وأن نحمله على أنه أضغاث أحلام وأوهام . ولكن قد نعتقد لسبب أو آخر أحيانا أن رؤية ما في النوم ، تنطوى على إشارة رمزية سرية تحتاج إلى تفسير ، وتشير إلى واقع سيحدث . وهناك أشخاص يعتقدون أن بعض ما يرونه في النوم يتحقق برمته في الواقع ، بقضه وقضيضه ، وهذا نادر ولا سبيل للتحقق منه عند سامعيه أو قارئه .

والخيال يسعف الادمى لكى يعى ويدرك ما يمكنه وعيه وإدراكه بنجاح ليمارس حياته وتطوره في العالم الخارجى الذى يعيش فيه يسعفه بالألفاظ اللغة والمصطلحات المتعارف عليها وبالأرقام والرموز المتداولة ، وكل من هذه الفئات بصورة يمسك بعلاقة أو علاقات مجدية في العالم الخارجى ، وعلى جانب من الصحة يستخدمها خيال الادمى في رسم الصورة التى تتوالى مرئية أو مسموعة على لوحة وعيه بلا انقطاع ، وتستجيب لها أفعاله وردود فعله وفهمه للعالم الخارجى ، فهما يحقق تعايشه معه وفيه بقدر معقول من الإمكان والوقوف حسبما تسمح به أحوال وظروف الزمان والمكان ، وعلى ما وصلت إليه علومنا الوضعية وفنوننا وصناعاتنا .. وما إلى ذلك حتى الآن نسيجُ بالغ الكثافة والسعة من تلك الألفاظ والمصطلحات والأرقام والرموز .. ييسر لخيالنا ووعينا الإمساك بتلك العلاقات المجدية التى تربطنا بالعالم الخارجى ونواميسه غير البشرية .

والبشر عادة لا يلتفتون إلى الدور الرئيسى للخيال في حياة كل منهم ، وفي حياة جماعاتهم وجنسهم . ونحن لا نكاد نعرف أنه هو الذى يهيئ ويصور كل ما نشعر ونحس به .. لأننا لا نشعر ونحس دون تصوير لحالة من حالاتنا

ولمصدر داخلي فينا أو في خارجنا لهذه الحالة . وكل ما نعيه أو نفعله وراءه
حتماً خيالنا بصوره في وعينا .. وهذا الخيال هو الذى يعطى الشكل والملمس
والطعم والرائحة واللون لكل ما نرغبه ونحبه أو نرفضه وننفر منه .. وهو
الذى يخلع المهابة والإجلال على الأشخاص الذين نجلهم أو الرونق والجمال
على الأشياء التى نعتز بها .. كما يخلع الهوان أو الازدراء على من وما نرى أنه
يستحق الهوان والازدراء من الأشخاص والكائنات .. وهو الذى يثير بما
يصوره لنا أنواع ودرجات الخوف والفرع والتشاؤم واليأس ، وكذا أنواع
ودرجات البهجة والارتياح والتفاؤل والأمل والأمان .

ولو توقف خيال الآدمى عن عمله لتوقف عمل وعيه ، ولو فقد قدرته
على التخيل كلية لفقد الآدمى حتماً شعوره بذاته وحياته كلها وصار فى عداد
الأموات وإن كان جسمه فيه حياة أو بقية من حياة .. فهذه الحياة فى هذه
الحالة حياة تائهة ليس لها عنوان وليس لها صاحب يشعر بها .. لأن ارتباط
الخيال بالذاكرة ارتباط حتمى لا انفكاك له إلاّ مع فقد الحياة الواعية .. إذ لا
تسجل الذاكرة الحية ولا تستحضر إلاّ ما زودتها به المخيلة التى تنتمى إلى
ذات الآدمى وتصب ذكرياتها فى وعيه ابتداءً وانتهاءً من لحظة التسجيل ..
صغيراً كان الآدمى أو كبيراً .. بدائياً أو متطوراً . لأن كل ما تسجله الذاكرة
تشارك فيه المخيلة .. سيان أن يكون شكلاً أو رسماً أو لغة تُقال أو تكتب أو
اصطلاحاً أو رقماً أو علامةً أو رمزاً وذلك بصورته القابلة للتصور والإدراك
لدى عموم الآدميين .

من

تراب

الطريق

(٥٢٨) ملكة الخيال (*)

(٢)

نشاط خيال كل منا لا يهدأ قط .. وهو يتأثر بحاجاتنا وبعواطفنا وانفعالاتنا وغرائزنا وإراداتنا ، سيما بغضنا وكراهياتنا وشهواتنا وأحقادنا ، ويساق إلى وجهاته تارة دون وعي وإرادة ، وطورًا عن عمد وقصد إلى أغراض تقبلها جماعة الآدميين أو تتحملها ، أو إلى أى أغراض غير مقبولة أو مرفوضة أو غير مشروعة .. فالخيال هو الذى يصور طعام الجائع ورى العطشان وإشباع المحروم ، ونقمة الحاقد والحسود والمتعصب ، وخبت الكاذب والمتحل والمختلق والمزور ، وأمانى المغرض والمتفائل الواثق ، واجتهاد الباحث والمكتشف والمفكر ، وأشواق المحب والشاعر والفنان ، وقداسة القديس والولى وتفانيه فى خدمة الغير والعقيدة . لأن خيالنا دائما هو المعبر الأول عن كل ما نعيه مما يجرى داخلنا فقط أو مما يجرى بيننا وبين المحيط الخارجى فعلا أو وهما وأحاديث نفس !

ودور عقلنا مع خيالنا هو دور المصحح على قدر إمكانه حين لا يتعرض لضغوط العواطف ، أو دور المنقح فقط حين يرى نفسه أعنى العقل فى خدمة ما نشتهي أو نخشاه .. وهو فى الحالين يصحح أو ينقح خيالاً بخیال يرى أنه أصوب وأجدى .. لأن عقلنا لا يتعامل إلا فيما تقدمه قدراتنا من الخيال والتصور كأفراد مجاميع فى الماضى أو فى الحاضر .

(*) المال ٢٧ / ٩ / ٢٠١١

ولو تأملنا مقدار الغيب الذى يكتنف الآدميين فى داخلهم وخارجهم ،
لعلمنا حاجتهم الماسة إلى الخيال الواسع طوال حياتهم على الأرض فى
دنياهم .. وهى حياة ليست محصورة فى الضروريات كباقي الكائنات
الحية ، فإمكانات الآدمى أوسع وأبعد مرمى بكثير من ضرورياته ، ولذا
أُعينَ بالخيال لمسيرة هذه الامتحانات المتوقفة على صدق الاحتمالات التى
تعرض لها وتواجهها .. وهى تصدق تارة وتنفق أو تخيب تارات . هذا
وملاقة هذه الاحتمالات البالغة الكثرة نوعاً وعدداً وزماناً ومكاناً ، فيها من
أنواع الغيوب لغير خالقها ما لا يتأتى لمخلوق تصوره بدون الخيال الذى هو
رحم الاحتمال .

وخيالنا يساير نوعاً ودرجة وقوة وضعفاً وجنساً وعمراً وزماناً ومكاناً
وتطوراً يساير بالنسبة لكل فرد ولكل جماعة ولكل عصر ؛ أنواع الحاجة
والمطالب والرغبات والأشواق والأطماع والمخاوف والمكاره والأحقاد
والعداوات والخصومات والثارات . ولذا يختلف خيال الطفل عن خيال
الصبى عن خيال المراهق أو الشاب أو الكهل أو الشيخ ، ويختلف خيال
الإناث عن خيال الذكور خلال مراحل الأعمار ، كما يختلف خيال الجاهلين
عن خيال العالمين ، وخيال أهل البحر عن أهل البر ، وخيال أهل الحضر
عن أهل الريف والبادية ، ويختلف خيال الخاصة عن خيال العامة ، وخيال
الحكام عن خيال المحكومين .. وهى اختلافات لا تحول عادةً دون التعايش
أو المعاشة ودون نوع من الامتزاج والتعامل والتعاون .. والآدميون يراعون
عادة هذه الاختلافات فى صلاتهم وتعاملاتهم وعلاقاتهم بعضهم ببعض ،
ويلاحظونها غالباً فى نظرتهم إلى عادات وأعراف وسلوك الماضين والسابقين .

فخيال البشر دائماً يسع اختلافات ومواقفات الأفراد والجماعات في ماضيهم وفي حاضريهم .. وهو يسع أيضاً ما يطرأ في مستقبلهم الذى هو كله خيال وانتظار .. فيه المتوقع وفيه المحتمل وفيه البعيد الذى كان في حينه شيئاً من الوهم !

وخيالنا كبقية عالم النفس ؛ دائب الحركة والتغير باطراد في موضوعه ومحله .. شيئاً كان أو فكرة أو شعراً أو بحثاً أو تجربة أو علاقة أو عرفاً أو عادةً أو اعتقاداً مما لا يخلو منه قط عالمنا الخارجى بتعبيراته وإشاراته ورموزه ومظاهره المحسنة القابلة للتذكر والتداول والأخذ والعطاء والقبول والرفض ؛ التى قد ينسينا اعتيادنا الدائم التعامل معها ينسينا دور الخيال فيها .. فننظر إليها فقط ونعتبرها وحدات فعلية منفصلة بوجودها وذواتها .. وذلك كله بسعى وفضل خيالنا الذى لا يفارق قط وجودنا الواعى كله . فكل ما مع الآدميين فى أى زمان وأى مكان من ماضٍ وحاضر ومستقبل ، وكل ما معهم من مادية ومعنوية وخاص وعام وجميل وقبيح ومحبوب وبغيب وصحيح وباطل وصادق وكاذب وحقيقى وخرافى ووهمى كل ذلك الذى مع الآدميين أصله وفرعه خيال الآدمى ، وبدونه لم يكن لوجود شىء فى وعى الآدمى ، بل لم يكن يوجد للآدميين وعى على الإطلاق !

من تراب الطريق

(٥٢٩) ملكة الخيال (*)

(٣)

إن معارفنا بقضها وقضيضها ، وعى قوامه وغذاؤه وتطوره وتأخره
وغناه وفقره خيال آدمى وحظه من الاشتعال والخمود والجرأة والقعود
والسعة والضيق . وجميع ما فى كتبنا ومكتباتنا وسجلاتنا ومحفوظاتنا وما
تحتويه دورنا وقصورنا وحقولنا ومصانعنا ومعاملنا ومدننا وقرانا وثقافتنا
ماضية وحاضرة إن هى إلا بصمات لخيالنا الهائل الرائع الذى ميزنا به الخالق
عز وجل على سائر الكائنات الحية فى هذه الأرض .

وينبغى ألا ننسى أننا نولد وصحيفة وعينا تكاد تكون خالية .. وأن الذى
يقوم بملئها هو خيالنا الذى تبدأ شعلته فى الظهور من الميلاد الذى يواكبه
أيضاً ومن البداية ظهور وعينا لحاجتنا الأولية التى يجتهد خيالنا فى حمل الغير
على الاستجابة لها ومواجهتها .. هذا ما يفعله الرضيع مع أمه لحملها على
إرضاعه ، أو لنظافته أو لعلاجها مما يؤلمه .. وهلم جرا .

وما نسميه بالخبرة هو نتائج خيال نجح أو فشل تردد لأنفسنا ناتج تجاربنا
أو تجارب من حولنا فى نجاحه أو فشله ، وإقرار المجتمع الذى ننتمى إليه
لحاصل هذه التجارب من نجاح أو فشل .. هذه الخبرة المتراكمة صارت عادة
فكرية لخيالنا أو يسوقنا إليها هذا الخيال فى كل ما قد يصادفنا من مواقف أو
مناسبات أو ظروف مشابهة تستدعى حصاد التجارب السابقة من نجاح أو
إخفاق . وغالب سلوك الأدميين فى توالى عصورهم مبنى على هذا النوع من

(*) المال ٢٨/٩/٢٠١١

الخبرة .. وقلما يفكرون أو يجدون ما يدعوهم إلى التفكير في تغييره أو تخيل
وتصور تغييره ؛ إلاّ لداع يروونه ملحاً أو مؤثراً أو يمكن أن يكون له تأثير .
واحتياجنا للخبرات مبناه احتياجنا للخيال مصحوباً بمحاولة تنفيذه ..
وهذا شيء لم يكن منه بدّ لحياة آدمى كلها .. لأنه غير مزود من بداية حياتنا
إلى نهايتها بمعرفة حقيقية لما يجري بداخلها ولا بالقدرة على التعبير عنه تعبيراً
صحيحاً ، ولا بمعرفة ذلك ولا بالقدرة على صحة وضعه بالنسبة لغيره من
الأحياء .. آدميين وغير آدميين .. أو بالنسبة لداخل وخارج ما يجري في
الأرض أو في أى جزء من أجزاء هذا الكون العظيم .

إن الخالق عز وجل هو الذى أخرجنا من العدم أو بما هو في حكم العدم
بالنسبة إلينا أخرجنا إلى وجود لا ندرى عنه شيئاً ، إلى عالم لا نعرف ما فيه ..
مزودين فقط باستعدادات زودنا سبحانه وتعالى بها .. منها الخيال والوعى
والحواس والذاكرة .. وهذه الاستعدادات تبدأ في العمل مع ابتداء حياتنا ،
وتساير في النمو نموها ، ولا تتعجل الأوان المقدر لها ، ولكن قد تؤخرها أو
تقوضها ظروف الزمان أو المكان أو البيئة .

وقد عرفنا في حدود بشرتنا معنى الحقيقة ودلالة الصحة وقوة المنطق
وقيمة الإيمان والإخلاص والصدق والخير والسلام . ولكن معرفة قدراتنا
بذلك كله مبناها الاستنتاج والموازنة والمقارنة ومقابلة الأحداث والتجارب
بعضها ببعض . عرفنا ذلك بفضل أو على يد ما وهبنا الخالق عز وجل من
سعة خيال ووعى العقل والجراحة على الانتفاع بهذه السعة ومن المثابرة الثبات
على هذا الانتفاع بالمتاح لنا وعدم التفريط فيه أو التخلي عنه مهما كانت
المصاعب والمخاوف والمخاطر ، ومهما اشتعلت الأطماع والأهواء .. لقد

أقمنا بقدراتنا العجيبة على التخيل والتجربة والخبرة أقمنا ما اطمأن واستقر
لدينا عبر الأحقاب والدهور ، ومن نتاج النجاح والفشل ، ما ازدان به الآن
العقل البشرى من جواهر المعرفة والفطنة والتطلع إلى رؤية لا تكاد تعرف
حدًا في الفهم والتوفيق فيه ، وما بلغت إليه ضمائرنا في العمق والإبصار
والحساسية التي يكاد لا يوقفها حائل ، وما جمعت ووسعت أرواحنا من
الركائز والآمال والبشائر ، وما عم مبادئنا وأخلاقنا وعقائدنا من استنارة
وإدراك وفطنة لم تعرف لها سابقة من قبل .. وهذه النعمة نعمة الخيال لم
تكذب جدواها برغم العثرات والنكسات والضلالات التي ملأت طريقها
وتقاضت حصتها من حياة الآدميين وأمنهم وجهدهم .

قد يمرض الخيال بمرض الوعي والعقل ، كما يمرض بمرض الجسد إذا
امتد إلى النفس ، لأن الخيال جسر ممدود بين هذه جميعاً .. يحس بها يلزم بأى
منها من شر أو خير ، وإذا فقد أحدها الصحة نهائياً صار خيال صاحبه نقمة
عليه وعلى من حوله !

وكثيراً ما يقلد الناس أو يحاكون خيال بعضهم .. لأن الخيال جزء من عالم
الفكر الذى معظمه محاكاة وتقليد .. وذبوع الفكر وانتشاره أساسه ومبناه
الإقناع ثم التقليد .. أو دافعه التقليد بغير احتياج للإقناع .

هذا وأمانينا من ضروب الخيال كآمالنا ، ولكنها أبعد جداً من أن تتحقق
لأنها أكبر وأوسع بكثير مما نعرفه من إمكانياتنا .. وهى متنفس يخفف من
مرارة الشعور بالعجز والقصور والتقصير .. وهى أقرب إلى الأوهام
والأحلام بخلاف توجهنا إلى الرب تبارك وتعالى بالدعاء والرجاء اللذين
يحملان إلى القلب دائماً ثقةً واطمئناناً وأماناً ويغمران أعماقنا بالهدوء والثبات .

هذا والفارق الأساسي بين الخيال وبين الوهم المحض ، هو أن نعمة الخيال نعمة كبرى اختُصَّ بها الآدميون .. مقصورة على الميادين التي يرى الآدمي الجاد أنها مجالات لما يستطيع أن يفرغ فيها جهداً يبلغ المزيد من الفهم والتصور والدراية والاقتدار على التحقيق والتنفيذ متى جَدَّ واجتهدَ وبَحَثَ وكَافَحَ وَأَصَرَ وثَابَرَ . وهذه المناطق لا مجال فيها للأوهام والأحلام ، كما لا يمكن أن تتسع للمصادفات والحظوظ التي لا مجال فيها للاجتهاد والكفاح ، والتي قد يفوز فيها البعض بثمار لا مبرر لفوزهم بها !!

من

تراب

الطريق

(٥٣٠) ملكة الخيال (*)

(٤)

إن ما معنا الآن من علم وفن وفهم على درجة عالية غير مسبقة في تاريخ الإنسانية من التركيب والعمق والدقة .. قد جاءنا بفضل موالاة اتساع الخيال البشري ومرونته هائلة مدهشة ، وبفضل ما منحه لطوائف المشتغلين بالعلوم والفنون من شدة العناية بصحة ودقة الفهم إلى أقصى ما في الطاقة من الاجتهاد والكفاح والمثابرة والإصرار .. مع فضل النجاح التكنولوجي في تحويل معظم ذلك الفهم إلى واقع محسوس يمكن أن يعايشه العاديون من البشر ، ومنهم كثيرون لا يعرفون ولا يستطيعون أن يعرفوا من أين ولا كيف جاء ، ومع ذلك لا يحول جهلهم بذلك دون أن يتنفعوا بما صار في أيديهم منه .

وقد أدى ذلك في الأمم المتقدمة ، إلى نقلة بل ثورة في التعليم تخلت بها عن التركيز على النقل والحفظ ، وإلى الاهتمام بصرف معظم الجهد في تنمية الخيال وتوسعة الفهم وتعويد المتعلمين بحسب أعمارهم ودرجاتهم في التعليم على التعلق الشديد بالتصور والدقة فيه والصبر عليه والمثابرة على تتبع مساراته ومضامينه والعثور على ما يمكنهم العثور عليه من نتائج قد تنفعهم أو تنفع غيرهم في الوصول إلى ما هو أبعد أو أفضل أو أوضح أو أكثر دقة وخصوصية مما معهم .

(*) المال ٢٩/٩/٢٠١١

ثم إن ما يتحقق مما نتخيله داخلنا أو خارجنا ، ماديا كان أو معنويا ، يكتسب لدينا نحن البشر صفة الواقع .. لأنه واقع بشرى لا يعرفه ولا يتقيد به الكون وما فيه ، ويفقد بالضرورة طابعه هذا إذا انقطع اتصاله بالبشر على نحو دائم .. فما نسميه نحن بالمتروكات والخرائب والقمامة والفضلات ليس له معنى لدى الكون .. كذلك ما نسميه بالمواقف والاتجاهات والمذاهب والأعراف والعادات والأوضاع والألوان والروائح والأشكال والأوصاف والملامح والسحن .. هذا كله بشرى ليس له دلالة في الكون العريض الذى نعيش على ذرة منه . وهذا كله متوقف على وجود الآدميين واهتمامهم به ؛ فإذا فقد وجودهم أو فقد وجود اهتمامهم به لم يعد له وجود ؛ ولم يعد يدور بخيال أحد شأنه شأن ما ابتلعه العدم الذى لا يعرفه الكون أصلا ، ولا يعرفه فيه إلا الأحياء لأنه من باب الخيال والشعور والوعى بكافة صورته .

فالحضارات القديمة من مصرية وبابلية وآشورية وإغريقية ورومانية وما سبقها من أنظمة بدائية بادت وصارت خرابا خَلَفَ آثارًا في مواقعها أو في المتاحف ونحوها .. ذلك لأنها لم تكن في الكون أكثر من تصورات بشرية لا حصر لها ارتسمت في أشياء مادية اعتنقها وحفل بها وعى الآدمى وعقله وخياله ، وفقدت قيمتها ومعناها باختفاء الوعى والعقل والخيال الذى اعتنقها وحفل بها .. أى باختفاء حياة الأحياء التى كانت ضرورية أو نافعة لوجودهم .

والآدمى لا يكف فى أى لحظة من وعيه .. يقظاً كان أو نائماً .. لا يكف عن محاولة تحقيق بعض نواياه .. وهى ليست إلا خيالاً مصحوباً بعزيمة .. ولا ينقطع مجراه الدائم المتتابع إلا بانقطاع الحياة وتوقف الخيال والنوايا ،

لأن حياة الآدمي خيال ونيات .. تنجح أو تخفق محاولات تحويلها إلى صور وملامسات وأحداث محسوسة يعطيها الآدميون أسماءً وأوصافاً ونعوتاً في إطار الزمان والمكان .. وهذه النوايا تكون إيجابية كإشباع حاجة أو لذة أو منفعة ، وقد تكون سلبية أو إيجابية عكسية كالخوف من ضرر أو خطر قليل أو كثير .

وفي الشعور المتتابع بالخيال والنوايا ، تتوالى نبضات حياة الآدمي وأنفاسه إلى أن تتوقف ؛ فإذا مات صار ذكرى لآدمي ولم يعد آدمياً .. وهذه الذكرى تضعف باستمرار مع مرور الزمن ؛ لأنها ذكرى في مخيلة من بقي حياً ممن كانوا معه من أهل أو معارف ، أو في مخيلة من جاء بعده إذا بقي لديهم اسمه وآثاره إن كان الميت ممن صادفوا معرفة ما له من آثار في أعمال أو كتابات أو فنون أو مواقف تدعو إلى تبجيله أو تدعو إلى العكس .. ولا غرابة في ذلك ، فذكرى أمثال هتلر وموسوليني وحارقي روما ومكتبة الإسكندرية باقية بصورتها الكريهة في مخيلة أجيال لم ترهم وإنما سمعت بهم أو قرأت عنهم ! وربما كان ذلك كله فرعاً على أن أصل حياتنا أنها توجد من عدم .. وأن وجودها موقوت بأجل تنتعش فيه وتتكس .. قد يقصر وقد يطول .. وأن امتداد وجود أية جماعة بشرية لا يحتاج إلى بقاء الأفراد بأعيانهم .. وأياً كانت قيمة وأهمية أعمال وأثر بعضهم .. وإنما تمتد الجماعات وتبقى بحصول التناسل والتعاقب والثورات مما يحفظ استمرار بقاء الجماعة برغم حتمية فناء الأفراد والآثار والأجيال .. كل في نهاية عمره وجيله .

ولكن يبدو أيضاً أن بقاء الجماعات بقاء نسبي فقط ، وخلال أجل من الزمان قد يمتد إلى أحقاب ودهور وعصور .. وكم من جماعات كانت ثم

بادت أو زالت من الوجود لتنشأ في ذات مكانها جماعة أخرى تربطها أو لا تربطها صلات بالجماعة البائدة .

هذا الخيال وما فيه في الأغلب من الأضغاث ينسينا أننا فانون ، ويساعدنا مساعدة هائلة على تناول حياتنا وممارستها بحماسة وشغف كأننا باقون أبداً ولن نموت ، ويضمن تقبلنا لها وحرصنا عليها يضمن استمرار الجنس البشرى إلى ما شاء الله عز وجل .

من تراب الطريق

(٥٣١) ملكة الخيال (*)

(٥)

إن أسباب الأمان والاطمئنان على بقاء الحضارة الحالية واستمرارها في النمو ليست أقوى ولا أكثر من أسباب القلق والخوف عليها . وهذه وتلك ميدانان فسيحان جدا لسعى الخيال والنوايا .. إذ لا يخفى قادة البلاد المتقدمة وعلماؤها ومفكروها وخبرائها لا يخفون قلقهم على مصير هذه الحضارة التي انتشرت وامتدت معالمها في عالمنا بأسره برًا وبحرًا وجوًّا .. فقد يأتيها التدمير البشع الهائل من مخترعاتها ومكتشفاتها وتقنياتها وعلومها ونفوسها .. وهذا التخوف ليس بعيدًا وفيه قدر من الاحتمال يوجب على كل عاقل ألا يغفله .. سيما بعد أن توافرت لدى الجماعات الكبيرة وبعض الجماعات الصغيرة أسلحة ووسائل التدمير الشامل .. الذرية والهيدروجينية والبيولوجية والكيمائية .. ولم تنجح الجهود الدولية للآن في إبعاد هذه الوسائل إلا عن الدول الصغرى أو الجماعات الصغيرة غير المستقرة تاريخيا وتكويناً ، وبقيت هذه

الوسائل في معية الدول أو الجماعات الكبرى التي لها أغراضها في السيطرة على العالم والتنافس الرهيب من أجل ذلك فيما بينها ، مما يحمل نذراً واحتمالات تهدد الحضارة إن لم يكن الوجود البشرى ذاته .. ومن المعلوم أن الوقاية من هذه الوسائل ليست سهلة ولا مضمونة ، وتوفيرها يحتاج إلى جهود ونفقات باهظة ليس لها آخر ، ثم سرعان ما تتجاوزها الاكتشافات

الجديدة والتحسينات في وسائل التدمير والتخريب التي لا تزال تتفوق على أجهزة الوقاية ، الأمر الذى يهدد كنوز هذه الحضارة من العلوم والفنون والدراسات والتجارب مهما بذلت الاجتهادات في تحصينها وحمايتها ، ناهيك عن تهديد الدمار الشامل للإنسانية ذاتها .

ثم إن خيال الأدمين سيل دائم يسير تارة هادئا ، ويسير طورا متدفقا ملتعبا بدرجات وتنوعات لا حصر لها تبعا لنشاطات العقل والعاطفة معا.. وهو يتوالد بعضه من بعض ، ويبنى بعضه على بعض ، ويعجز من يراقبه عن معرفة أين تنتهى وأين تبدأ خيوطه المتداخلة بالغة الكثرة عجيبة المرونة والظهور والاختفاء .. ومن العسير جدا على أى منا أن يتحكم فى خياله وأن يقتاده ويوجهه إلا بعد مران شاق على التركيز وحصر الانتباه كما يفعل كبار أهل العلم والفكر والتأمل والفنون .

والإلهامات التى يتحدث البعض عادة عن أنه ألهم بها ربما كانت خيالا موقفا ناجحا لحل موقف ناجح ظهر فى وعى صاحبه فى فترة راحة من التوتر أو المجهود الذى طال وشغل أفق الوعى بخيالات أخرى حالت دون ظهور أو تأخر ظهور الوعى الموفق الناجح الذى بدا لصاحبه كأنه وحى أو إلهام جاءه من السماء .. وهذه ظاهرة أكثر حدوثا لدى الباحثين والمؤلفين والفنانين والشعراء . ولعل هذا يرجع إلى ما اعتاد عليه البشر منذ عرفوا اللغة من تسمية الأمور بما يناسب أغراضهم .. وقد أسبغوا على أفعالهم المادية إيجابا وسلبا أسما ونعوتا لا أول لها ولا آخر .. مع أن أفعالهم كلها لا تخرج عن كونها حركة أو سكونا فى مكان وزمان ، وسموا نواتج تصورهم وذهنهم بأسماء لا حصر لها على أساس أغراضهم منها أو جدواها وعدم جدواها

لهم .. من أنها لا تخرج عن أنها تحرك الخيال أو تصور دافع التحول . والتغير قد يصادف أو لا يصادف تعلق إرادة الآدمي بمحاولة تحقيقه ؛ أو انتظار تحقيقه دون دخل لإرادته في ذلك .. ولأن عالم الآدمي من المعانى أرحب وأوسع بكثير عن عالمه المادى المحدود بحدود المكان والزمان .

إن كل ما قلناه أو نقوله في حياتنا ، وكل ما قاله وسيقوله غيرنا في المستقبل يستحيل أن يفلت من هذا الطابع البشرى الملازم الدائم ، وهو أنه عبارة عن تصور وخيال من آدميين لآدميين .. وما نرى أو يرى غيرنا في الحال أو في المستقبل أنه تحقق ، لا يعدو أن يكون نسبي المعنى .. خاصا بالآدميين ورسائل من بعضهم لبعض .. يتبخر وجودها بالإغفال والترك إذا نسيها الآدميون أو رحلوا .. لأن هذا الكون الهائل من حولنا لا يعترف ولا يحفل بها كما يبدو لنا !!

ونحن لا يمكننا قط ، أن نتجاوز عالمنا الآدمي بخصائصه ومعنوياته .. مهما أمتعنا في التصور والخيال تعمقاً أو عريضةً وشطحاً .. ومهما اعتقدنا أننا أحسننا أو أسأنا في الالتفات والاتجاه والمقاصد والأغراض .. ومهما فهمنا وعرفنا أو أغفلنا بجهلنا وتدهورنا .. ثم مهما أقمنا وعمّرنا أو دمّرنا وخرّبنا وأهلكنا !!

فهذا العالم عندنا وعند من قبلنا وعند من سيكون بعدنا ظل وسيظل عالماً ممتعاً ممتداً بما لا حدود لنهايته .. لا يتناقص ولا تنقضى قدرته على الإمتاع والجذب والإغراء للبشر .. مليئاً بما لا آخر له من فرص الإدراك والإبداع والتحدى ، والآمال والجمال والفتنة .. لا ينتقص من سحره وجماله وإبداعه وفتنته عندنا أن قوامه فينا عناصر ليست لدى غيرنا من الكائنات ، هي

الوعى والمخيلة والذاكرة والعقل والعواطف . وكلها استعدادات توجد ثم تنقضى فى كل منا .. ليست أشياء محسوسة جامدة أو شبه جامدة ، وليست طاقات عمياء بكاء منتشرة فى غيرنا وفى الكون .. هذا الكون الهائل الذى بدا لنا خلال ملايين السنين خاليا من هذه الاستعدادات والملكات الثمينة والطاقات الدفينة الكامنة فىنا التى أنعم علينا بها الخالق تبارك وتعالى والتى بدونها لا يكون لوجودنا ولا للوجود كله أى معنى لدينا !

من تراب الطريق كيف يتراكم الفقر والتعاسة؟ (*) (١)

إلام ترجع الدقة في تنفيذ التعهدات والاتفاقات والعقود في التعامل المادي بين الناس وهل ترجع إلى أساس أخلاقي أو ديني مما تحث عليه الأخلاق والأديان ، أم أن الغرض المطلوب من هذه الدقة هو ضمان استمرار التعامل وانتظامه والحد من احتمالاته ومخاطره ؟ إذ بدون هذه الدقة يصبح التعامل مجازفة ومخاطرة ليس لها حدود ولا ضوابط .. مفتوحة على مصراعيها لنهب النهّابين واحتيال وخداع النصّابين وخطف الخطّافين والصوص !

المقطوع به أن شيوع هذا أو طول حصونه ، يخلخل الجماعة وقد يقوض بقاءها .. إذ يقهر الكثرة غير القادرة على مقاومة الخطّافين والنهّابين والنصّابين والأعييهم وحيلهم ومخادعاتهم ، ويجبر هذه الكثرة إجباراً على التفرق بحثاً عن جماعات أو مجتمعات أخرى يكون فيها التعامل المادي اليومي العادي على درجة معقولة من الأمان والانتظام اللذين لا يستغنى عنهما استقرار التعامل والأحوال .. وهو ما لا غناء عنه حياة عموم البشر . وهذا الافتراض مبنى كما نلاحظ ، على استقرار الأحوال في الجماعة ، فإذا اختلت انعدمت ثقة الناس بعضهم في بعض ، ولجأوا إلى الإسراف في المزيد من الضمانات لتأمين الوفاء بالعهود والاتفاقات والعقود .. من رهون وكفالات وتوثيق واشترابات جزائية وتعويضية والانحراف بالشيكات من أداة وفاء تجرى مجرى النقود إلى أداة ائتمان ، والتوسل بهذه الحيل ومثلها

إيصالات الأمانة التى تخالف الواقع لجعل التهديد بالحبس سلاحاً لإرهاب
الملتزم للوفاء بالتزامه المدنى الاتفاقى أو التعاقدى الذى لا علاقة له بالقانون
الجنائى وما يفرضه من عقوبات ليس هذا مجالها .. وحين يزداد هذا الاختلال
وكثيراً ما يحدث يتفشى انعدام الثقة وتصير أمثال هذه التأمينات غير كافية
لضمان الوفاء ، ولسيولة التعامل ، فترتبك الأسواق ، وتتعثر المشروعات ،
وترتفع الأسعار ، ويؤدى الحرص على الوفاء الفورى لتلافى مخاطر الآجال ،
يؤدى إلى تراجع التفكير فى المشروعات الكبرى طويلة الأمد ، والتى لا
سبيل لنجاحها ونموها إلا فى ظل الأمان والاجتهاد والدقة .. وهذا بذاته
يدفع أيضاً إلى المزيد من التهاب الأسعار واستحكام الغلاء وشيوع المضاربة
والمضاربين والمجازفين والمتلاعبين فى الأسواق وفى الصناعات والمصارف ..
وتفقد الزراعة دورها الضرورى ، ويستمر ارتفاع الأجور التى يلتهمها
التضخم وانخفاض القوة الشرائية للنقود ، ويعجز العاملون عن ملاحقة
ارتفاع أسعار السلع وتكاليف المعيشة فتتفاقم المشكلات الاجتماعية بأنواعها
إلى جوار المشكلات الاقتصادية .

وهجرة الناس من بلدهم فراراً من شدة الضائقة فيها عارض من قديم فى
ماضى الأدميين وحاضرهم .. وهذه الهجرة مازالت حتى اليوم شاقة مع ضيق
ذات اليد ، وبرغم ذلك نرى كل يوم جماعات من الشباب يتلهمهم اليم فى
مجازفات غير آمنة للوصول إلى هجرة غير مشروعة أجبرتهم عليها الضائقات
المستحكمة التى عزت إزاءها لقمة العيش ناهيك بالمسكن والملبس وتكوين
الأسر ونفقات العلاج والتعليم .. ولا زالت هذه الضائقات التى رأينا
عوادمها فى العشوائيات وفى مقالب الزبالة وأطفال الشوارع لازالت تتفاقم

وتتابع أصداءها وآثارها في هلاك الكثيرين من الأطفال والنساء والشيوخ .. بسبب التشرذ والمجاعات والأوبئة التى لم تنقطع فى كثير من بلدان العالم الثالث .. ونعانى منها غير قليل فى بر مصر !!

وبقاء من قاوم هذه الضائقات الشديدة ، وبقي على قيد الحياة فى بلده بلاء اعتاده هؤلاء وسلموا بوجوده وبما تركه شدة الفاقة فى الأجسام والنفوس والعادات ، وفى الذرارى والأجيال من الضعف أو الخمول أو التخلف .. وتمثلت آثار ذلك فى الانصراف إلى الأعمال والحرف الصغيرة بل وفى ابتداع خدمات لا تتطلبها حاجة بقدر ما يدفع إليه الفقر والبطالة من بحث عن أى سبيل للقيمة العيش بدلاً من الانحراف وسلوك سبيل الجريمة .. وتظل هذه البيئات بما تعانيه من فاقة وضوايق شديدة أو ما تدرج عليه من العادات المتخلفة ، تظل بؤرات للانحراف وللمجاعات والأوبئة .. يصعب التخلص منها بمعونة من داخلها حال دوام تسلط الحكام والزعماء وحرصهم على امتيازاتهم ومغانمهم .. ولا يجد أبناء هذه البؤرات بدءاً من أن يحملوا الفاقة وآثارها على عاتقهم ، وأن يستسلموا لمعيشة الفقر والجهل متلازمين لا يفرقان .. حتى ليستحيل أن تنجو هذه البيئات من بؤس وتعاسة ما هى فيه ، كما يستحيل أن تتمتع بما تتمتع به الشعوب المتقدمة من حريات شخصية وحقوق للإنسان كإنسان فى ذمة المجتمع بأسره .. حكامه ومحكوميه ..

وتغيير الكيان الداخلى لهذه البيئات ، يقتضى ممن يرغب فيه من أبنائها الذين تعلموا وتحضروا وفهموا يقتضى منهم إنفاق الأعمار والجهود والتكاتف الدائم الثرى الذى لا يعطله يأس أو يشعر به ملل . ومن الملاحظ أن المستعمرين لم يغيروا شيئاً من واقع البؤس للبلدان التى استعمروها

وتظاهروا صدقاً أو احتيالاً بمحاولة فرض حضارتهم على بيئاتها ..وقد أسفرت محاولاتهم المترفعة المتكبرة في البلاد الأفريقية والآسيوية المحتلة أسفرت عن المزيد من تعلق هذه البيئات بأوضاعها الاجتماعية بحسبان ذلك حرصاً على الأصالة والتراث والمعلم المميزة لبيئتهم وجنسهم . وقد أشعل أوار هذه الاتجاهات مَنْ تعلم وتحضر من أبناء هذه البيئات على يد مستعمرها ..تعجلاً لرحيل المستعمرين والحلول محلهم في الحكم والإدارة .. وقد تم هذا في السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك لم يتغير حال تلك البيئات التي زادت فقراً وشقاءً واضطراباً واجتاحت أكثرها المجاعات والأوبئة والفتن والانقلابات والحروب الداخلية !!

من تراب الطريق

كيف يتراكم الفقر والتعاسة؟ (*) (٢)

لا مرأى في أن رحيل الأجنبي المستعمر ، يهز بطبيعة الحال النظام الذى كان قائماً في البلد المحتل ، ويحتاج بالتالى إلى إقامة نظام جديد فعال وكفء يرمم ما كان ، ويبنى ما يجب بناؤه ، ويحتاج إلى وجود قيادات محل قبول في الجماعة ، وقادرة على التعاون والتساند وتبادل المشورة والمعونة .. وقد يندر وجود هذه الكفايات في البلدان التى صدر الاستعمار الطويل على التعليم ونمو الكفاءات والقدرات فيها .. وهى كفايات عزيزة أصلاً في الأنظمة والبيئات المتخلفة ، ويحتاج بناؤها إلى وقت طويل من المران والتجربة والخطأ والتصحيح والصواب ، وإلى اليقظة والفهم للاستفادة من الممارسة والتجربة .

الملاحظات التى عرضناها بالمقال السابق ، ملاحظات أساسية ليست سهلة الاستيعاب والامتصاص ؛ وهى تتوه في غمار وضجة وحرارة العواطف الوقتية التى يشب لفحها وينطفئ وتثور وتدور حول هذا المتزعم أو ذاك .. وهذه المشكلة أو تلك من المشاكل التى لا ينقطع تواليها وظهورها لدوام أسباب ظهورها وتواليها وإغفال أو غفلة المتزعمين والمزعومين عنها .

إذ السائد في زماننا قبول الضجيج والصياح والانسحاق إلى هدير الجهلاء والإنصات لما يصخبون به وما يرغبون فيه ، دون دراية بعواقبه السيئة في الحاضر والمستقبل ، على المجتمع وعلى الصاخين أنفسهم !!

وقد أدى هذا إلى استسلام توافقي (!؟) واصطبار في غير موضعه على ما يتركبه الجهلاء والأشرار والحمقى من عبث وجرح وقتل وتخريب وتدمير ، مما صار لديهم من قبيل العادة التي ألفوها واستيسروها لإعلان مشاعرهم التي تحركها في الغالب أوهام وأضغاث أحلام متقلبة .. لا سبيل لتحقيقها لإمعانها في البعد عن العقل والواقع ، بالإضافة إلى انعدام من يستطيع أن يجمع شمل شتات هؤلاء أو يحشد أغراضهم الخائرة أو يواجه قواهم المبعثرة إلى تحقيق رغب ومشتبهات يقتضى تحقيقها أزماناً ممتدة ودراية عريضة ومشاركة فاعلة ومتابعة حية ومثابرة وأناة وطول نفس .

ومع أننا نرى هذه الجموع تساهم في مد المشروعات بالعمال والفنيين والحرفيين ، إلا أنهم لا يتأملون كيف قامت مشروعات المواصلات والطرق وقنوات الري والصرف ومرافق الصحة والتعليم والأمن والإدارة ولا يلقون بالألزام ببقائها مؤدية لدورها وما أقيمت من أجله .. وقد لوحظ ولا يزال أنه ما إن ينفض الأجنبي المستعمر يده من هذه المشروعات ، ينزوحه عن البلد المحتل ، إلا وتصاب أمثال هذه المشروعات بكثير من السليبيات والقصور والتلفيات والأعطال على أيدي الخاملين والأغبياء والجهلاء والوصوليين ونهازي الفرص ، ويحتاجها الفساد والإهمال والرشوة والخلل والتحلل على أيدي الطامعين والمرتشين والمفسدين ، حتى تبيت هذه المشروعات معطوبة متدهورة عاجزة عن أداء أغراضها التي من المؤسف أنها كانت مؤداة في إدارة المستعمر المحتل .. شيئاً فشيئاً يتفاقم الخلل والتحلل والتعثر حتى تعود المجتمعات المتخلفة لتتشدد من الأجنبي المستعمر بأمس أو غيره أن يعود بشكل آخر لجبر ما انفرط وإصلاح ما تعثر وتقديم الأدوات والخبرة

التي عز على أصحاب البلد تقديمها للنهوض بإدارة هذه المشروعات طبقاً لأصول الإدارة والاقتصاد والتجارة ووسائل الصيانة والرعاية ، مما أدى إلى تراكم الفقر بما يستتبعه من شقاء وتعاسة !

ودخول الأجنبي ، ليحل محل الوطني ، أو حتى ليعمل إلى جواره ليس دخولاً خالص الأغراض ، وإنما هو دخول مدخول .. وكثيراً ما يغطي بمعونات ظاهرية !! تستهلك في الصرف على ذات الأجنبي الذي دخل بدعوى ترميم هذا أو ذاك من المشروعات أو إصلاحه أو القيام بإنشائه .

إن الميديا العالمية لا تتوانى في بث إعلانات إلى العالم بأسره ، أن هذه أو تلك من الدول ذات الحول والطول ، تضطلع بحملات الإغاثة لملايين الجوعى والعرايا والمرضى والمعدمين ، من الأطفال والنساء وكبار السن .. بإلقاء عبوات الطعام والكساء والدواء من الطائرات أو بواسطة قوافل تتوارى وراء ذلك من أجل التبشير ، مستغلة أن دول الجوار تعجز لتخليقها هي الأخرى عن إسداء هذه الإغاثة لضحايا الفقر والجوع والمرض !

ويبدو أن حال الجماعات المتخلفة ، يرجع إلى أن معظم أفرادها لم يفارقوا عاداتهم النفسية والفكرية القديمة .. البدائية الجاهلة الخاملة .. سواء في العمل ، أو في حياتهم الخاصة والعامة .. وربما ساهم في ذلك أنانية القلة التي فازت بالتعليم وصار همها أن تبقى الأغلبية الفقيرة على حالها تنوء بما هي فيه ، حاجبة عنها ما يوقظ عقلها وروحها من عتامة الجهل والغفلة ، وذلك حتى تستقيم للقلة المتحكمة أسباب السيادة والزعامة ، ويسلس لها قياد الأغلبية الممتحنة بالفقر والجهل وقلة الحيلة والسيطرة عليها ولو بالتملق الزائف ودغدغة المشاعر بوعود الإصلاح والإنصاف والعدالة والإثراء !!

من تراب الطريق كيف يتراكم الفقر والتعاسة ؟ (*) (٣) (٥٣٤)

استدامة الشعب واللغة ، والاعتیاد علیها ، یصرف الشاغين عن الاشتغال بالمتاح وإحسان معرفته والاجتهاد فيه ، إلى الامثال للأقاول والشائعات ، والعود عن الإمام بأحوال بلدهم وحقیقة أمر القائمين علیها .. وهذه الغیوبة التي یفرضها وينشرها توالی التسامع وعدم الأمانة فی النقل ، سرعان ما تفرز بعض النماذج التي تنجرف إلى مملأة ذوی النفوذ والمتنافسين علی السلطة ، وتنحو إلى الوساطة والسمسرة بین هؤلاء و بین أصحاب المصالح والحاجات من الجمهور العریض .. ومع الاعتیاد والمثابة والوقت ، یتقل هؤلاء الوسطاء والسامسة إلى صفوف ذوی النفوذ أو إلى عداد ذوی السلطة .. وهكذا تزود هذه اللعبة الخیثة نفسها باستمرار بعناصر شعبية الأصل تعطى ظهرها للبطاء ، وتنفض عن نفسها الفقر دون مبالاة بغيرها ، وتتسع وتروج وساطتها وسمسراتها وتتخم بالمال فی تحقیق أغراضها غیر القویمة ، التي هجرت من أجلها ما كان ینبغي علیها أن تنهض به لتجفیف الفقر والفاقة ، ورعاية الفقراء والمهمشين !!

وبهذا ومثله زالت وتزول الثقة فی التعامل السیاسی والإداری بین السلطات بعضها وبعض ، و بینها و بین أفراد الشعب بعامة .. وعجزت وتعجز كافة الضمانات الدستورية والقانونية عن وقف هذا البلاء أو الحد منه .. لأن مرجعه صار فی فساد وإفساد ذمم الخلق من فوق ومن تحت ..

لدى الحكام ولدى ضعاف النفوس من المحكومين !!

ويبدو أننا لطول الاعتياد على استعمال المجاز لتسهيل أمور الجماعة وتبسيطها بتنا نظر إلى الأنظمة من دساتير وقوانين ولوائح وقرارات وأوامر إدارية وأعراف وأصول وعادات واجبة الاتباع ننظر إليها على أنها تحكمنا وتملك رقابنا وتزيد أو تنقص من حقوقنا وواجباتنا وتلزمنا بالخضوع لها واتباعها ومراعاتها وإلاّ تعرضنا للجزاء والعقاب .. ومع أنها في ذاتها مجرد أفكار ومعانٍ خالية تماماً من حياة وإرادة وحركة الأحياء ، وأن طاعتنا هي في الواقع طاعة أو انصياع للآدميين الذين فرضوها أو فرضوا علينا طاعتها وامثالها ، وسهروا لأغراضهم ! على نفاذها والتزام المحكومين باتباعها ، حريصين على موالاة فرضها حتى لا تسقط بالإهمال ! قيمتها واستمرارية سريانها ..

إن ما أسلفناه قد حدث في الماضي مرات ومرات ، وهو ما لا بد أن يحدث حين يشيع الفساد والإفساد في الجماعة البشرية .. ويشيع معها الضيق تلو الضيق ، وتتوالى بلا انقطاع الأزمات الخائفة التي يكابدها الفقراء ولا تزعج أو تقلق الأغنياء والموسرين .. ومع تراكم الفقر والفاقة ، وشيوع البؤس والتعاسة ، تضطرب أحوال العامة ، ويتضح لهم ما كانوا غافلين أو ساهين عنه من أنانية الحكام وعجزهم وفشلهم في تحقيق الأمان المجتمعي وتوفير فرص العمل والظروف الصالحة لكسب الأرزاق وإنعاش أحوال البلاد والناس .

ومهما كان للنظم من هيبة وشوكة ، فإن تراكم الفاقة وتفشى أسبابها ، يؤدي حتماً إلى تراجع ثم زوال الهيبة التي عاشت في ظلها الحكومات

والنظم ، وتتوالى أسباب إسقاط النظام البالى بعد أن صار وجوده كعدمه أو أسوأ من عدمه .. وتدل دروس التاريخ على أن هذه الانتقالات ، مهما كانت أساليبها وصورها ، تخالطها أغراض الراغبين فى التزعم والتسيد ، وقد تتحول منافساتهم إلى صراع ، ينسب كل منهم فيه إلى نفسه أنه الممثل للشعب المتحدث دون سواه ! باسمه ، المعنى بمقدراته ومصالحه .. ويظل هذا الصراع محتقناً حتى يتهياً لبعض أطرافه فرض كلمتهم على الباقين وعلى المحكومين .. بالقوة أو بالخدعة أو بهما معاً .. والمحكومون من البسطاء والمهمشين متأرجحون بين الخوف والرجاء ، والقلق والأمل ، معزولون عما يجرى على يد المتنافسين المتصارعين على حكم بلدهم .. حتى تستقر الأحوال ، وغالباً ما يتحول الإذعان القديم الذى كان ، إلى إذعان جديد يلبس أثواباً متقلبة توافق مراد الأحوال المستجدة !!

واستكانة الجمهور للحاكم القوى ، ظاهرة اجتماعية فى طبيعة البشر .. يتفادون أو يتصورون أنهم يتفادون بها إطالة عهد الفتن والقلقل ، ويتجنبون بها تعرض الأرواح والأرزاق للمخاطر .. وغالباً ما تكون هذه الاستكانة غير مشروطة ، ولا تتوقف على تثبيت أو اختيار أو مراقبة ، وإنما تكتفى غالباً بالمظاهر والوعود والدعايات .. يدفع الخلق إلى الاستسلام لدغدغتها شدة شوقهم إلى استقرار الأحوال الذى لا بد منه لاستمرار الحياة وتيسير الحصول على الأرزاق التى عزت على الفقراء والمهمشين !!

من تـراب الطريق كيف يتراكم الفقر والتعاسة ؟ (*) (٤)

ليس في ثقة الناس بحكامهم شيء حقيقي ملموس يمكن للجمهور مراقبته باستمرار كمراقبة كل فرد لعمله أو بيئته .. فما يمنحه الناس لحكامهم مجرد تصديق متوارث .. أو تصديق حادث ساد بفضل الاعتياد والمحاكاة .. لا ينقطع به تفرغ الأفراد الكلي للاهتمام بالعمل والرزق وبالأسرة والمصالح الشخصية التي تملأ أفق وعيهم ولا تكاد تترك مساحة في عواطفهم وتفكيرهم لغير ذلك .

فإهمال المحكومين مراقبة حكامهم في سلوكهم وتصرفاتهم مراقبة جادة .. هذا الإهمال ضعف بشري يلزم كثيرا من الناس من قديم الزمان .. وهذا القدم لا يعفيهم من تبعاته .. كما لا يرفع هذه التبعات عن كاهلهم انتشار الصحف والإذاعات المسموعة والمرئية ولا المواقع الإلكترونية وشبكات الإنترنت .. فهذه النوافذ الإخبارية والإعلامية لا تقوم بل هي غير معنية ببذل رقابة دائمة على أسلوب ومسالك ودروب وهنات الأداء الحكومي وتصرفات القائمين عليه .. سيما وهي نوافذ محكومة باعتبارات عديدة قد تدعوها للمجاملة أو حساب احتمالات الخسائر إذا كشفت ما يجب كشفه من إهمال أو فساد لتحقيق المراقبة !

وبعيداً جداً عن الواقع أن يجعل أفراد الشعب هذه المراقبة جزءاً هاماً واجباً لا يتجزأ من تبعاتهم الشخصية ، أو أن يبذل كل منهم قصارى ما باستطاعته

للقيام بنصيه في هذه المراقبة الجادة بدلاً من الاكتفاء بالتندر في مجالسهم بما يتسقطونه من أخبار أو يسمعون عن سقطات الحكام وأتباعهم . فالجمهور يحمل حتما جانبا ضخما من تبعات انحراف حكامه وأعوانهم .. إما نتيجة الإغفال أو التغافل وعدم المبالاة ، وإما جبنا وخوفا وطلباً للسلامة ، وإما ضلوعاً ومساهمة في الانحراف والتشجيع عليه أو الدعوة إليه أو التستر على سقطاته .. وهذا أفحش صور الانحراف في تحمل التبعات وأبلغها ضرراً وإفقاراً للمجتمعات ؛ لقابلية هذا الداء الويل الهائلة للسريان والانتشار وعسر وقفه أو علاجه .

على أن الشعوب لم تعد في زماننا رعايا وأتباعاً لحكامها كما كانت في الماضي الطويل الممتد في الطول والقدم ، ولم يعد حكامها كما كانوا رعاة قطعان لا تسألهم الحساب ولا يتصور ألا تسألهم إياه بقالة إنهم ظل الله في الأرض وإن الذي يملك سؤلهم هو الرب وحده . بل صارت الشعوب مصدر السلطات ، والسند الوحيد لتولى أمانة الحكم والتشريع والإدارة .. وباتت إرادة الشعوب هي الإرادة التي تنحني أمامها وتدعن جميع الإرادات .

وهذا الدور الخطير الذي صار أخطر الأدوار في الحياة العامة ، يستحيل أن يؤدي بجد وفاعلية إلا إذا اقتنع كل أفراد الشعب بجديته ، وبتوابع هذه الجدية التي تأبى تزوير الانتخابات والاستفتاءات والإغراق في الاستثناءات . فإحساس أفراد الشعب بمسئوليتهم ومسئولية كل منهم الشخصية عن سلوك حكامهم وأتباعهم ، يستوجب منهم مجموعاً وأفراداً أن يكونوا في تمام اليقظة وأن يتابعوا رقابتهم في وضوح وجد وجلاء ، وأن يكونوا فعلاً لا قولاً مصدر السيادة ، وأنه من غير المقبول أن يغتال أحد

ولاية الحكم ويعبث ومن معه بالسلطات .. ولا سبيل للشعوب لإيقاف العبث بمصائرهم وتراكم أسباب الفقر والفاقة والتعاسة بين سوادهم ، إلا بأن يتيقظوا لمكانتهم وحقوقهم ويؤدوا واجبهم في إيقاف اغتيال حقوقهم وفرض الفقر والهوان عليهم !

ربما بانث هنا أهمية ما أثرناه في بداية هذه السطور ، من وجوب الحرص على الالتزام والدقة في تنفيذ الاتفاقات والعهود ، سواء في تعامل الشعب مع حكامه أو تعامل الحكام مع أفراد الشعب ، أو تعامل الناس فيما بينهم .. فهذا الالتزام هو الركن الركين لنجاح التعامل في كل باب ، خاصاً كان أو عاماً ، واتباعه هو بوصلة استقامة مسار المجتمعات والحكومات . على أن هذا لا سبيل لتحقيقه إلا بتعارف الكثيرين عليه وشعورهم به شعوراً قوياً حياً صادقاً ، واقتناعهم بضرورة الحرص عليه .. وأن يدركوا أنهم إذا انهزموا في القيام بواجبهم إزاء أنفسهم وأوطانهم ، فلا رجاء في الأخلاق وغيرها في إنقاذهم من عثراتهم .. فنجاح الشعوب في مهامها رهين بالأعمال لا بالكلام .

من تراب (٥٣٦) يتعاقب على وعينا؟! (*) الطريق (١)

يبدو أن ما نسميه الخاطر أو الصورة أو التصور، أو ما نسميه أبعاض التفكير أو الفكر أو الخيال .. يتعاقب على وعينا بلا انقطاع .. وهو تعاقب يجرى حسب الشاغل الذى يشغلنا أى يشغل اهتمامنا أو التفاتنا بأى قدر .. عاطفيا كان ذلك أو غير عاطفى .. وحسب اللحظة ونتيجة قرب الشاغل وعلى مقدار قربها فيها .. أى فى تلك اللحظة ..

والشاغل إذا قرب وألحّ، ألحّت على وعينا الصور المتعلقة به بحسب اعتيادنا أو بحسب قربها مما اعتدنا عليه من أمثالها وأشباهها ولم تترك مكانا لسواها فى وعينا .. فإذا خف إلحاحها أخذت فى التبعاد، وأخذت صورة أخرى متعلقة بشاغل آخر أخذت تتسرب إلى الظهور فى الوعى ثم الوضوح فيه .. إلى أن تختفى ليظهر غيرها .. وهكذا بكيفية لا يسهل علينا متابعتها .. لأنها لا تخضع لإرادتنا فى الأغلب الأعم .. إلا حين نتعمد التفكير فى شىء معين يهمنى التركيز عليه فى وعينا واستدعاء ما يمكن استدعاؤه لأجله من ذاكرتنا ومخيلتنا وحواسنا ..

ولوحة وعينا لا تخلو قط بأى لحظة من يقظتنا من صورة أو فكرة .. حتى لدى إحساسنا بتوقف التفاتنا أو شعورنا بتمام الاسترخاء .. وقد يثير ظهور صورة ما خلال ذلك قد يثير التفاتنا أو انشغالنا فيمسك بها الوعى ويمسك

بما يتصل بها وبصور أخرى تتداعى إلى أن ينفض ذلك العارض .. إذ ينقلب إلى اهتمام يحرك الإرادة إلى مقصود أو غرض معين .. وبصور وأفكار لتحقيق ذلك الاهتمام .. أو حكاية ما سبق أن بذل من أجل تحقيقه ولم يتحقق .

ذلك لأن الاهتمام يتضمن إما عقد إرادة واستهداف غاية ، وإما ذكرى إرادة خابت أو غاية لم تتحقق . وهذان يخرجان ما يلوح في وعينا من التعاقب اللاإرادي المتوالى إلى الإثارة المقصودة التى تستحث الذاكرة والحواس .

والعلاقة بين وعى الآدمى وذاكرته ومخيلته ، علاقة حميمة عميقة لا نعرف بالضبط ميكانيكيته ، ولكن نعرف أن المصدر الدائم لهذه الصور والأفكار هو الذاكرة والمخيلة وكل ما يتصوره وعينا .. مما هو مسجل فى جعبتهما تسجيلا قريبا أو بعيداً .. قابلا للتعديل المستمر بالحذف والزيادة مما لا يشعر به وعينا إلا بعد حصوله .

ذلك أن أمانة الذاكرة والمخيلة ، إن جاز التعبير ، هى بطبيعتها أمانة نسبية .. ولكن الآدمى يصلّب هذه الأمانة فى أحيان كثيرة بالتكلف والتخشب .. والآدمى إذا أفشى الصورة أو الفكرة إلى آخرين ، يلزم نفسه بصحتها ودوام صحتها .. وعندئذ يشعر بأن كرامته تستلزم ثباته عليها .. ويحس بأنه إن أضاف إليها أو عدّل فيها سوف يتعرض لاتهامه بالكذب أو بعدم الثبت من صحة ما يقوله أو يبيده .

وقد اعتدنا على الاعتماد فى حياتنا الاجتماعية والعملية على الاحتكام كشرفاء إلى الأصول الأخلاقية السائدة فى بيئتنا وقيمتها وافتراس الالتزام بها عند الشريف والعكس عند غيره .. وهذا فيه تجاهل لنسبية أمانة الذاكرة فى التسجيل والحفظ وتعرضها الدائم للتغير القليل أو الكثير حسب تغير

إمكانياتنا وأعمارنا وأحوالنا الصحية والعقلية والنفسية .. تغيراً بعيداً عن
تعمد الكذب أو الخديعة .. وهو تغير يجعلنا نحتكم إلى حد ما دون أن نتنبه
إلى إثبات شىء غير ثابت بطبيعته وطبيعتنا.. وهذا الخلل لم يكن منه بدّ ..
ذلك لأن وجود الآدمى على هذه الأرض سبق ويسبق نمو معارفه .

وحتى الآن لم ينجح عاقل فى تحقيق تطور أفكار البشر وأحكامهم
وتصوراتهم ومصدقاتهم بحيث يمكنها مسابقة ما بين أيديهم من المعارف
المتطورة .. هذه المعارف التى يضمن الالتفات إليها وأخذها فى الاعتبار
يضمن مزيداً من الانسجام والسلام الخاليين من التناقض الظاهر وغير
الظاهر الذى يشوب فهمنا لحقائق الحياة فى حدود استعداداتها وملكاتنا
وأجهزتها ..

وهذا حاصل ويحصل برغم أن الآدمى فيما يبدو لا يكف عن استخدام
الكثير مما فطن إليه من الاستعدادات الكائنة فيه استخداماً فى الانتفاع بما
معه وحوله من الأشياء والطاقات لتحقيق أغراضه الحاضرة والمستقبلية
التى يتوقع الكائن تحقيقها .. وهذه الأغراض تتسع آفاقها باطراد مع نجاح
الإضافات التى يضيفها باستمرار بفضل ما قصد الفطن إليه مع توالى
الأجيال والأحقاب ونمو القدرة على التذكر والفهم ومع الوصول بما أحرزه
إلى ما لم يحرزه بعد مما يتصور الفرد أو يطمح فى إحرازه .

من تراب الطريق ماذا يتعاقب على وعينا؟! (*) (٢)

إن السعة التي وصل الآدمى إليها الآن في البلاد المتطورة ، في الفهم والقدرة على التعبير عنه باللغات والإشارات والأدوات والأجهزة ومما لا يكاد يحيط به الإنسان العادى هى سعة غير مسبقة ، لازمها احتشاد الأفكار والآراء والمعارف .. وذبوعها وتسجيلها بما لم يسبق له نظير .. وكل ذلك فتح أبواب التعارض والتصادم والشك والحيرة على مصراعيها .. وظهرت في أوساط العامة الجرأة العنيفة في التفكير والتصور بعد أن كانت خاملة أو خامدة .. وظل الحكم المطلق الذى دام دهوراً وأحقاباً ظل يُصَادَف هذه الجرأة العنيفة التى وجدت حريتها وانطلقت في جميع الاتجاهات .. ما يبدو منها حسناً وما يبدو غير حسن .. نافعاً أو ضاراً .. صحيحاً أو باطلاً .. واقعاً أو خيالياً .. إلى أن تجد هذه الجرأة العنيفة من يضبطها أو ما يضبطها من داخلها .. ولكن السؤال : هل يمكن الآن ضبطها من خارجها ، وهل يمكن قيادها بحزم في طريقها الطبيعي من أيدٍ خلاف بيئتها ومحيطها !؟

يبدو أن أغراض البشر في جماعاتهم اختلفت في تحديد من يكونون حكاماً ومن يكونون محكومين .. واتفقت في نشدان القوة المحسوسة الملموسة والتنافس عليها كل بوسائله التى تتيحها أو تهيئها له طبقته .

كانت وسائل الحاكمين هى القوة المستندة إلى سطوة الأتباع والأعوان .. القوة التى لا غنى للحاكم عنها .. يخيف بها سواد الناس ويخضع بها مقاوميه

ومعارضيه ، أو يفضى بها عليهم فتدين له الأنفس والأموال فى الجماعة ، ثم يحىء دور استمالة الحاكم للمحكومين بالأبهة والعزة ، وبالإحسان والرعاية ، وبالاتفات إلى الكبير والصغير .. بينما كانت وسائل المحكومين وسائل فردية .. عديدة متفرقة .. تتقاسمها الطبقات والفئات والطوائف والمهن والتجارات والحرف والصناعات والزراعات والتعدين والصيد وتربية الحيوان ووسائل النقل فى البر والبحر والجو .. هذه جميعاً تبتغى الثروة والمزيد من الثروة التى تكفل لصاحبها ولورثته من بعده احترام وتلبية وخضوع الآخرين .. فالمال قوة لا نظير لها ومحل احترام على كل حال وفى كل عصر .. هذا المال لا يعنيه ولا يهيمه البكاء على الحرية والأحرار ، وإنما يهيمه التراكم والاكتناز ورواج الحال .. لذلك يميل أصحابه ، طلباً للأمان ، للتوافق مع السلطة ودعمها ومناصرتها وتحاشى الاصطدام بها .. وتجدهم أسرع الفئات إلى تأييد الانقلابات والقوى الراجحة فى الفتن والثورات ، ولذلك يكونون أسرع الجالسين على مقاعد الحكم حين تستوى سدته للقائمين بالثورة أو الفتنة أو الانقلاب !!!

ولا يزال الجرى وراء القوة المحسوسة أول الغايات فى مجتمعات الآدميين على اختلاف حظوظها من التقدم والتأخر .. ولا تزال هذه القوة هى سناد أو عماد تقدم العلوم والمعارف والفنون والآداب والصناعات .. ذلك التقدم الذى تجاوز إلى الاستعانة الهائلة بالطاقات والمجالات إلى توجيه وتحريك آلات وأجهزة السلم والحرب فى كافة الأغراض وبقوة ودقة لم يكن يتصورهما البشر من قبل .. من أبعد البعيد فى الفضاء اللا محدود ، إلى أقرب القريب فى الجزىء والذرة .

بذلك كله مما تعاقب ويتعاقب على وعى البشر وفهمهم دخلوا فى عصر رهيب .. فيه يتبارى البشر وجماعاتهم ويتنافسون فى استخدام قدرات وقوى لا تعرف حداً .. سواء فى الإعمار أو فى التخریب .. فى الإحياء أو فى الإهلاك والإفناء .. وتجلى أثر ذلك فى عجز البشر الحالى عن إصلاح أحوالهم وتهذيب أغراضهم .. وزادت مخاوفهم وزاد طيشهم واندفاعهم نحو امتلاك تلك القدرات والقوى التى لا ترد ولا تصد .. بات الأمل فى بقاء البشر محدوداً فيما يبدو لمن يتأمل مصيرهم .. وبات التطور العظيم فى المعارف والعلوم وتطبيقاتها العجيبة المذهلة بات أقرب إلى النذير منها إلى الإرهاص بالخير والبشارة بالمزيد من التعقل والاعتدال والصبر ومعرفة قيمتها فى فهم نوااميس الوجود ناهيك باحترامها والانتفاع بها والعيش فى ظلها !

من تـراب الطريق ماذا يتعاقب على وعينا؟! (*) (٣)

إن كل ما مع الإنسان من تقدم في الإدراك ، بل كل ما معه من الحياة والوجود ، ينتهى إلى غير رجعة وتطوى صحيفة البشر وتنمحي معالمها إن قامت فيما بينهم حرب نووية يستعمل فيها البشر كل أو جزء المخزون الذى لديهم الآن من قنابلها وصواريخها ومعداتها وموادها وأجهزتها . وحين تطوى صفحة البشر وينمحي وجودهم لن تبكى عليهم سماء ولا أرض !!

لم يجزع عموم البشر من هذا البلاء الشامل ، ولم يتخذوا حذرهم منه بترك الغرور والحماقة والولع بالشقاق والخلاف والاستخفاف بإشعال الفتن والثورات والمعارك والحروب ، ولم يفيقوا من استخفافهم العجيب بالعيش فى عالم بات مهدداً بالدمار والفناء .. وسلخوا فى ذلك أكثر من ستين عاماً بدأت بتصور احتكار سر صنع هذا البلاء الشامل للتسديد على العالم بالاستناد إليه .. فلما فشا سره ، سارعت الدول على اختلاف أحجامها وإمكانياتها وتقدمها إلى التنافس على اقتناء حظها من هذا البلاء المدمر بالصنع أو بالتطوير أو بالشراء .. وأنفقت فى سبيل ذلك ما تقدر وما لا تقدر عليه ، دون أن يتفطن المتسابقون إلى أن ذلك قد يؤدى فى لحظة !! إلى ضياع كل شئ وضياع الكل بمن فيهم من تنافسوا لحيازة هذا السلاح المدمر .. وما زال هؤلاء غرقى صباحاً ومساءً دون أن يصغوا إلى صياح العقلاء فى كل

بلد بالتحذير والإنذار قولاً وكتابةً وتصويراً من عواقب هذا البلاء .. أسرى لغفلة تكاد تكون تامة ، وانغلاقاً في الأساليب والعادات التي كانت سائدة قبل اختراع ووجود هذا البلاء المميت الشامل .. وتضيع سدى تحذيرات العقلاء الذين لم يعد لهم حيلة في إيقاف هذا الطوفان المغرق الذى غمر أحوال البشر !

إن سيطرة العادات الفكرية والسلوكية على حاضر البشر ومستقبلهم ، تقريب أقوى دلالة من كلمة عقولهم .. وهذا إلى وقت قريب من أسباب بقائهم وشقائهم معا .. ولكن مع وجود أسباب هذا البلاء الشامل وانتشارها جدا صار انقضاؤه محتملا ومعه انتهاء البقاء وشمول الفناء !!

وما زال وعينا على حالته .. يسيل عشوائياً في غالب الأحوال كمجرى الماء في المرعى والسهل .. يقابل الوهدة ويلتف حول الصخرة ويتجاوز المرتفع .. منحرفاً عنه منقاداً في ذلك إلى فطرته متأثراً بطبيعة مجراه وأجوائه .. يمتلئ وقتاً وينضب أوقاتاً .. لا يغير فيه شراع العقل والفهم شيئاً إلا في حدود مسافات يبدو أنها لا تحول دون اندفاعه إلى جفاف في صحراء أو إلى انتهاء في بحر . وكل منقطرة من قطرات السيل تنتهى فرديتها حتماً أثناء مسيرته بعد أن تؤدى حصتها التى لا تشعر بها في جريانه ومعها وعيها الفردى المؤتلف من وعى آخرين ماضين ومعاصرين بعد أن ينتقل بعض محتواه لمن يحل ذلك المنتهى الذى لا يبالي به أحد بعد انتهائه .. فلا يعزه أحد ولا يعرفه أحد حتى الوارث الذى ورث تركة الراحل ولا يعرف كيف ينتفع أو يضار بها كان من وعيه .

والمجلدات التى ليس لها حصر الموجودة في المكتبات العامة والمكتبات الخاصة وفي دور الكتب التى تعنى بإقامتها الدول المتقدمة هذه المجلدات

فيها آثار من قطرات بشرية معظمها انتهى ولم يبق منها ما يشهد على حياتها الفردية إلا الأسماء فقط .. هذه الأسماء التي لا يحفل بها كثيراً من يطلع على هذا المؤلف أو ذاك أو يقتنيه ليطلع عليه أو لا يطلع إن سمح وقته بالاطلاع عليه !

ويتكون من حصيلة الاطلاع والاقتناء من لا عداد لهم من الأفراد .. ودون أن يعرف بعضهم بعضاً أو يتعارفوا .. ويزيد ذلك في شيوخ المعارف والمعلومات والآراء والمصدقات والمعتقدات من الأفراد إلى المجاميع والجماعات التي تعيش وتستمر برغم فناء الأفراد المحتوم وانتهاء أعمارهم المحدودة بما كان في وعى كل منهم مما قد لا يسبر أغواره أو يتعرف على أعماقه وتراكيبه أحد !

وبديهي أن حياة الفرد مهما يكن حظه من الدنيا أغنى بكثير بفضل ما جهزه الخالق عز وجل به من أعضاء وأجهزة وملكات واستعدادات ، وما هياه له سبحانه وتعالى من فرص وإمكانات أغنى بكثير جداً مما يتركه بعد وفاته .. كثر أو قل . ويبدو أن هذا الغنى ليس مقصوداً لذاته وإنما لأجل ما يمكن أن يتركه للمساعدة على بقاء الجماعة البشرية والمجتمع والنوع !

من تداول العقائد والأعمال في تراب (٥٣٩) تشكيل القواعد والأصول! (*) الطريق (١)

لا تجرى حياة الأدميين جرياناً عشوائياً خالياً من القصد ومن الضوابط في أحيان كثيرة .. ومن يراقب ممارسة الأدمى لحياته في جماعة ما ، في زمن ما ، في عصر ما يلاحظ أنها تجرى على وفق ضوابط تفصيلية مشتركة سائدة في سلوك الجماعة .. ليس لها حصر لفظي محدد دائماً يمكن لكل فرد تذكره وتذكر حدوده ومعلمه ، وإنما يمكن لغالبية الناس الالتفات إليه في عاداتهم العملية وتصرفاتهم الفعلية .

بيد أن الجماعات كافة ، تتصور أن في مكتبتها اختصار وتلخيص وتركيز هذه التفصيلات الكثيرة في قواعد وأصول عامة قابلة للحفظ والتذكر والتذكير بها .. وأنه من ثم يمكن حمل سواد الناس على استيعاب ووعى هذه القواعد والأصول وعلى اتباعها دائماً أو في معظم الأحوال ، ما دامت الجماعة ودام رضا غالبيتها الفعلي أو الظاهري عنها .

وهذا التصور قديم ، وما زال موجوداً في بنية النظام القانوني والقضائي في المجتمعات المتحضرة .. وهو إن أصاب هدفه جزئياً ، أخطأه في بعض أو معظم الأحيان .. ومن ثم عاشت هذه القواعد والأصول أعماراً أطول من عمر اتباع الناس لها اتباعاً فعلياً حقيقياً . وبات عدد مهم من هذه القواعد والأصول لا يتبع ولا يشاهد في سلوك أغلب الناس ، وإنما بقى مع ذلك وبرغمه موضع احترام نظري في الظاهر ، ولا يزال من ناحية أخرى يحكم

(*) المال ٢٠١١/١١/١٤

كبرياء الناس وتماجدهم وكل ما يحرصون عليه من مظاهر المجد والفخر .. ولا يزال أيضاً يحكم مؤسساتهم ويجرى الحديث عنه في نظمها ويتغنى أو يلتفح به سلوك الناس في حياتهم .. خاصةً كانت أو عامةً .. وتماًلاً وضوضاءه وصخبه ولفظه تماًلاً أفواههم وأشداقهم وتجري على ألسنتهم وتحتشد بها محافلهم !!

ساعد على هذه المفارقة ، ميل أغلبية الناس من قديم الزمن إلى أن يعيش كل واحد منهم حياتين متلازمتين ولكنهما مختلفتان إحداهما عن الأخرى .. اختلافاً كثيراً أو قليلاً .. هذه مستورة أو شبه مستورة عن عيون الآخرين والغرباء ، وتلك ظاهرة مبدأة يمشى بها صاحبها في محيطه وبين المتعاملين معه ممن لا شأن لهم بداخلياته .. ويجتهد ما وسعه الجهد في الإبقاء على ما يعرفه الغير عنها في حدود هذا الظاهر البادى أو المبدى .. يساعده على ذلك أن هؤلاء لا يتجاوزون الظاهر ولا ينقبون عما عساه يكون وراءه أو تحته .. لأنهم عادةً لا يهتمون بذلك .. خاصةً إذا ما كان يتعلق بالعاديين وسواد الناس وعامتهم !

وهذا الازدواج يتطور مع تطور أخلاق الأغلبية وسلوكها وعاداتها ضد النواميس والضوابط والأصول المقررة فيها من قديم .. ولم تعد غالبية الناس الآن تخفى أو تستتر على ما كانوا وكان آبائهم يعدونه من قبيل الفحش أو الغش أو الغدر أو الخطف أو الخيانة أو الرشوة أو التزوير أو النصب .. إذ لم تعد تلك الضوابط والأصول التي كانت مقررة إلا حبال ووسائل لاستراق ثقة السذج وإيقاع المغرور وخديعة الجاهل أو الغبي .. ومن ثم أخذت الدعامات الأساسية للمجتمعات الحالية أخذت تتداعى .. ولا

يغيثها من هذا التداعى كثرة الإحصاءات والبرامج والخطط والاتفاقات والمؤتمرات والمعاهدات والأنظمة والقوانين .. لأن هذه كلها لا تتمتع بثقة وقبول عموم الناس .. ولم يعد الكلام ينفع ولا يشفع ، أو يملأ عقول الناس ونفوسهم بإمكانات وحلول يتولى أمرها سواهم .. بينما جعل هذا الخلل القديم يستفحل فى عقول ونفوس شعوب أهل الأرض قاطبة !

ثم إن الأصول العامة ، ومبادئ الأخلاق ، تخضع للشيخوخة وعوارضها بفعل الزمن كما يخضع كل ما مع الآدميين أفراداً وجماعات .. بفارق واحد : أن الأصول والمبادئ معمرة تعيش قروناً بعد زوال ونسيان ما كانت قد أسبغته خلال بقائها .. وخلال فترة هذا البقاء تنمو حتى بذوراً لأصول ومبادئ غامضة جديدة .. تتسرب إلى الظهور ببطء فى الخفاء ، ثم إذا قويت يتراحم عليها الناس ضمن الموجود المتبع فى وعى الآدميين ، ويتداخل الموجود مع المتحلل ، تداخلاً لا يدركه غالبية الناس إلا حينما يشعرون بأن ما يتداولونه نقلاً عن آبائهم قد فقد مكانته ومعناه وفاعليته واحترامه .. وعند ذلك فقط يعانون الإحساس بقدر ما فقدوه تحت ضغط الأزمات ووقع الفتن والكوارث !

من تراب (٥٤٠) تشكيل القواعد والأصول! (*) الطريق (٢)

الاختلاط والتزاوج الذى يجرى بين الموجود فى وعى الناس من الأصول والمبادئ ، وبين المتحل أو الطارئ أو الوافد ليس مفاجئاً كما يبدو لكثير من الناس .. وإنما بدا لهم كذلك لطول الغفلة وقلة الملاحظة وعدم المبالاة والاستسلام التام للمريح !! لمطالب ومصالح وشهوات الحاضر التى تداعت بسببها دون أن يشعر الناس كل دعائم ما كان موجوداً وبات عارياً ضارياً ! هذا مع العلم بأن الأصول والمبادئ الجديدة لا تستتب ولا تستقر مكانتها فى نفوس وعقول الكافة ، ويتأكد لها لديهم معنى إيجابى مطرد وقوى يكون دعامةً لمعالم حضارة جديدة ، إلا بعد أن تجتاز مراحل الحيرة والتخبط فى التجربة والخطأ ، واتساع مساحة العُرى بكل ما تحتويه من اضطرابات ومحن وضياح للفرص الطيبة وخسارة فى الأنفس والأموال والجهود !

ذلك لأن احتشاد الأدميين فى جماعات كبيرة ، وإن كان يعينهم فى البدايات على المزيد من الاتحاد والثقة والقوة ، إلا أنه يسوقهم فى النهايات إلى مصاعب حين تستفحل العيوب فى الجماعة ، وتتفاقم الآفات والخلافات ، وتتمكن منها الأغراض والشهوات ، والمواجد والأحقاد .. فيصير علاجها عسيراً شديداً العسر والصعوبة ، مليئاً بالنكسات والانتكاسات ، طويل الأمد لطول أمد الفرقة والريبة وسوء الظن وقلة الصبر ووهن العزائم وضعف الإيمان بالنفس والمستقبل !

(*) المال ٢٠١١/١١/١٥

خلال هذه الآماد الطويلة من الخفوت والاعوجاج ، يتداول على قيادة الناس فى محتتهم الطويلة ! جاهلون وأشباه رجال وكاذبون وخونة ومضللون ، ويتوارى أو يجبن أو يتشكك فى نفسه القوى والصادق والقادر والمخلص ، ويدفعهم إلى التوارى أو الانكفاء أو الترفع ما يتعرضون له ويلاقونه من الأذى والمكائد والإبعاد وتدمير السمعة بل وتهديد الحياة ذاتها .. حين ذلك تصعب رؤية الواقع لدى معظم الناس، ويقل على نحو غير عادى استعدادهم للتعقل والفهم ، نتيجة أزمات اعتبارهم على عدم احترام العقل وعلى الخفة أو الغفلة أو عدم المبالاة بغير الشهوة والمصلحة ! وقوة الجماعة محصلة فى الواقع لقوة أفرادها العقلية والنفسية والبدنية ، وهذه القوة لا تجىء أو تذهب بمشيئة هذا أو ذاك من البشر ، إنما تجىء على أكتاف وسواعد غالبية الأفراد عند تساندها وتماسكها ، وتذهب حينها تكل تلك الأكتاف المتساندة أو تضعف ، أو تمهن وتتفكك تلك السواعد التى كانت متماسكة . وهذا التكتاف والتساند والتماسك وليد عقيدة صادفت ووجدت استعداداً للعمل لدى معتقدين وأيدٍ تحمل تلك العقيدة فأنتجت مزيداً من العمل الذى أنتج مزيداً من قوة العقيدة .. وهكذا توالى العطاء والأخذ والأخذ والعطاء بين العقائد والأعمال وبين الأعمال والعقائد.

لا يقوم مقام هذا التداول مجرد كلام مهما كان بياناً للعقيدة أو تعريفاً بالرأى أو الخطة أو المذهب السياسى أو الاقتصادى أو الأخلاقى أو الاجتماعى .. وليس يجدى فى ذلك بلايين المطبوعات والتسجيلات التى لا تنقطع فى الحضارة الحالية التى لم تفلح فى إنقاذها مما يهددها ويهدد الجماعات الإنسانية التى تعيش هذه الحضارة .. هذه المطبوعات والتسجيلات المنهمرة

قد تؤدي بقارئها وسامعيها إلى زيادة قوة المعرفة إلى أقصى حد ، ولكنها قد تؤدي إلى هدم الفنون والآداب وما إليها ، بسبب ما يعترى سلوك الأدميين من انبهار بمنتجات هذه الحضارة ، ومن غفلة ممزوجة برغبة وشوق وإصرار على أنانية لا يستطيعون أن يروا حياتهم إلا بها ومن خلالها !!

إن الغاية الأساسية التي يراها الإنسان العادي في ذلك السيل الجارف من المطبوعات والتسجيلات ، هي أن يتعلم ويعرف ليكسب كما كسب المؤلف والمترجم والناشر ، كل من حرفته وعمله ، وليرتد كسبه على حياته الخاصة بمزيد من الراحة والتنعم اللذين يستمتع بهما أهل الرخاء في مجتمعه!

من تداول العقائد والأعمال في تراب (٥٤١) تشكيل القواعد والأصول! (*) الطريق (٣)

ازدياد الفرص المتاحة في الحياة ، بمضى الزمن ، واقع موجود يصل
الحيوات الخاصة بمزيد من فرص الراحة والتنعم واللحاق كما قلنا بأهل
الرخاء في المجتمع .. وهذه نهاية اجتماعية سائدة في حضارة هذا الزمان ، لا
يفكر أحد في تغييرها أو تطويرها ليتخلص من الاعتماد على المال والرخاء في
إرضاء نفسه ومن في حكمها لديه من الأبناء والأهل والأصدقاء والأقارب .
إذ قد أخفت آليات هذه الحضارة ومادياتها وضواؤها أخفت نداءات
الأديان ، وخفت بسببها أصول أنظمة الرهبة وفرق التصوف ، وأعان على
هذا القائمون على شئون الأديان وشئون تلك الفرق والأنظمة باشتغالهم
عنها بمصالحهم الخاصة وأطماعهم الذاتية !

ولكن ؛ لماذا لم يطلب الآدميون المعرفة والعلم والمهارة ؟ هذا السؤال
توقف عليه أعمار الجماعات والحضارات ويقاؤها وزوالها في سياق إدمان
الجرى وراء القوة والسلطان والغنى بلا التفات لاستمرار بقاء الحياة
واستمرار ترقيقها لدى مجموع الآدميين .. وقد ساق ذلك إلى الاضمحلال
والتبعية والحاجة ، وانتهى في الماضي بالحضارات والجماعات انتهى بها إلى
التحلل والزوال . فلماذا نتوقع نحن الآن ألا يصيبنا ما سلف أن أصاب
من قبلنا ونحن مثلهم وربما أكثر منهم نجرى وراء المزيد غير المسبوق من

الماديات والآليات والقوى ، ويزداد إغفالنا غير المسبوق أيضاً لضرورة استمرار الحياة بكل أنواعها ، واطراد ترقيقها لدى مجموع البشر بل لدى مجموع الأحياء .

إن عموم البشر الآن في غيبوبة تكاد تكون مطبقة ، غيبوبة عن ذلك العنصر المهم جداً الذى غاب عن نظر الحضارات السابقة وعن التفات الجماعات التى انتهت أو ذوت أو انكمشت بعد الإشاحة عنه أو عدم التبصر به والالتفات إليه .

ولا تتحقق الإفاقة من هذه الغيبوبة كما قلنا بالكلام مقولاً أو مكتوباً ، وإنما يمكن أن تتحقق بتجميع وتنظيم سلوك وتصرفات القليلين المصممين على نجاة أنفسهم وجماعتهم ، وعلى مواجهة الناس ومجاہبتهم بقدرتهم هم على الحياة النظيفة من الداخل ومن الخارج .. البعيدة عن الشره والطمع والدغل والإفراط والتفريط .. المليئة بالوفاء والمعونة والاهتمام بكل من حولهم وما حولهم ، مع اعتدالهم فى السعى للرزق وإعراضهم الخالص المخلص قبل سواهم من خلق الله عن الاحتياج للقوة أو الثروة أو الترف كبابٍ أو وسيلةٍ للاستمتاع أو الإحساس بالمكانة أو الأمان .

إن أولئك القليلين كثرة بالنسبة للفرد المنفرد .. وهذه حال أغلب الناس عادة فى كل جماعة .. وهم يكونون جماعة فى عين وعقل وقلب كل من يراهم ويراقبهم ويشهد حياتهم وانتظامها ونظافتها وحظها من الثقة فى حاضرها ومستقبلها ، ويصبحون باستقامتهم وصلاحهم وعزمهم عنوان حياة جديدة ؛ تخالف مخالفة تكاد تكون تامة ما يراه الناس أو يسمعون فى محيطهم الخابى .. ثم تبدأ محاكاة حياة هؤلاء القليلين ، ثم يترسمهم الناس عمداً

وقصدًا .. وهكذا يزداد ويكثر مع الأيام أولئك القليلون ويصيرون كُثْرًا ، وتأخذ الجماعة طريقها إلى الشفاء والصحة إن اتسع لها الزمن والظروف إلى ذلك ، ولم تعجل بها أقدارها . وهكذا يمكن أن يجد الفرد ما يشتاقه وما يبحث عنه فلا يلقاه في بيته ! ، ويلقى ما يتمناه في الجماعة ممن يعيشون على النقاوة والصدق والتواضع والمحبة والثقة ، ويلقاه في نضارة وحماس الداخل والخارج لآدميين أحياء حياةً نظيفةً متعشةً مثوبةً متطلعةً إلى ما تظنه خيرًا للإنسانية والجماعة .. تتجلى قيمة ذلك بالمقارنة والمقابلة بما ران من بشاعة وضحالة وركود الآمال والتعلق بالمحال في الجمهور العريض المريض الحاضر الغائب المحاصر بذوى الأغراض والأمراض ، المحجوب عنه ضياء العقل وأنوار الهداية والحياة .

من الأفكار والرغبات بين القرارات تراب (٥٤٢) والعزوم والاختيارات! (*) الطريق (١)

الفكرة حادث ، لم يكن ثم كان ، وهذه الفكرة تحدث في وعينا بلا زمن أو مكان معينين ، ولكن حدوثها يعنى ويتمثل احتمالاً في زمان ما ومكان ما في فرصة ما .. قرية أو بعيدة أو مستحيلة في نظرنا . وكل فكرة غامضة أو واضحة بسيطة أو معقدة لها في الوعي ظهور ذاتي بحدود محددة واضحة أو مبهمة ، تبقى زمناً يقصر أو يطول ، وقد تستدعى هذه الفكرة غيرها تداعياً منها أو بالبناء عليها ، أو لأن الفكرة المستدعاة تشبهها أو تعارضها أو تكون نقيضاً لها يرد عليها أو يردها .. وقد يطرأ طارئ بخاطر أجنبى كلية ، يدفع الفكرة بعيداً في الذاكرة أو بعيداً في أعماق النسيان أو العدم .

هذا ولا ينقطع سيل الأفكار وتتابعها في وعى الحى أثناء يقظته .. ويتوالى بنظام تارة وبغير نظام تارات أخرى ، وقد يقع شئ من هذا التابع أثناء النوم من خلال الأحلام ؛ فوعينا تيار جار ، تتوالى فيه أفكارنا كنقاط الماء في مجرى النهر .. يجمع في تياره ومجراه هذه الأفكار .. تجمعت هذه الأفكار أو تفرقت .. توافقت أو افرقت ، تبعاً لتيارات الهواء وانحذارات ومنعطفات النهر وما يكون في مجراه من انسياب أو عوايق أو التواءات أو أجسام طافية أو نباتات نامية في مجراه .. ووحدة ما بين هذه الأفكار هى وحدة الوعي الذى باتت منه وفيه ، والتصقت به وفقدت الشعور بمصدرها الأول

الخارجى كائناً ما كان .. وهى بالنسبة لبعضها البعض دائماً شيع وتفريق تبدو وتختفى ، وتدنو وتبتعد ، وتلمع وتنطفئ وتبقى فى الذاكرة أو يلحقها النسيان .

والإرادات قرارات فورية التنفيذ لأحداث أو عزوم مستقبلية التنفيذ القريب أو البعيد ، أو اختيارات حالة التنفيذ عاجلة أو آجلة بين أحداث كلها ممكنة فى نظرنا . وقراراتنا الفورية اليومية لا حصر لها .. لا نشعر فى معظمها بالفارق بين الحدث ذاته وبين القرار الذى سبقه فى وعينا .. أما عزومنا فيسبق فيها قرارنا ويتأخر فيها التنفيذ وقد لا يتحقق . أما اختياراتنا فقد تصاحبها الفورية أو يرد عليها التأجيل ، فتقع فوراً تارة ، مصحوبة بحدث حصل ، وتارة نفترض وقوعها فى وقت آت قد يأتى وقد لا يأتى .

والإرادات كلها تفترض قدراً من إصرارنا على تنفيذها .. وهذا حاصل فى القرار الفورى وفى الاختيار الفورى ومفترض قيامه فى الوعى فى انتظار تنفيذ العزوم والاختيارات التى قدرنا تنفيذها فى مستقبل قريب أو بعيد .

أما الرغبات فلا تعلن عن نفسها فى وعينا إلاّ فجأة ، وفى إرادات وعلى صورة قرار أو عزم . إذ إن الاختيار لحدث أو أحداث فى شىء أو شخص أو موقف قد يحصل فى الخيال المحض ولا يجاوز التصور ، وقد يكون لتصور الاختيارات واقع يماثل أو لا يماثل ما تخيلناه بشأنها .

ويبدو أن وعينا كما أسلفنا هو الذى يتسبب دائماً إلى ذواتنا .. إلاّ فى الأحوال الشاذة أو فى بعض الأحلام ، وهو يعطى الشعور بالانتساب إلى ذواتنا لكل الأفكار والرغبات والمخاوف ، ولكل القرارات والعزوم والاختيارات المعزوة إلى أنفسنا .. والتى تجرى بلا انقطاع فى مجرى الوعى

فى خلط مندفع متفرق يتزاحم ويحل بعضه محل بعض . وما يبدو لنا ثابتاً من هذا الخلط الدائم الاندفاع ، هو عادات فكرية أو عاطفية نقلها إلينا الوعى فى صورة مصدقات المحيط الذى نعيش ضمنه ، أو فى صورة معارف مصطلح عليها تعلمناها فى نوع من أنواع الموالاة والمتابعة .

أما المواهب التى يتميز بها أفراد على الكثرة ، فهى ذات أصل غيبى ، قد يكون موضوعها حدة الذكاء أو شدة الحفظ ، وقد يكون موضوعها غير ذلك .. وهى ليست بنات وعينا ، وإنما هى استعدادات خاصة جداً قابلة للنمو والتطوير بالعناية والمران ، أو للتقلص والتدهور بالإغفال والإهمال .. وهذه الاستعدادات الخاصة جداً يتعامل معها وعينا بأساليبه التى ذكرناها ، والتى قد ثلاثمها فتكرسها وتثريها ، وقد تعارضها وتضررها وتفسدها .. تبعاً للملاءمة أو عدم ملاءمة ظروف الزمان والمكان التى قد تظاهرها أو تقاومها . ومع تعامل وعينا باستمرار بأساليبه التى أشرنا إليها ، التى تتدفق وتتدافع وتتزاحم بلا توقف ما دمنا أحياء لم يتوقف وعينا عن نشاطه .. فإن ما يتناوب منها على صفحة وعينا قد يكون أحياناً شعوراً بعدم ثبات محتوانا الفكرى والعاطفى برغم شعورنا بدوام ثبات ذات كل منا ، وبرغم صعوبة احتفاظنا العقلى الواقعى بقيمة وأهمية ما نظنّه ولا نكف عن إعلانه .. من تمسكنا بمبادئنا واتجاهاتنا ومن تعرضها بلا انقطاع إلى قليل أو كثير من الخيل والخيود والانحراف .. وعجزنا عن منع ذلك .. وربما كان هذا كله وراء ما هو سائد بين الآدميين سيما بين الخاصة وأهل العلم من التواقر أو التصلب الذى يقرب من التكلف والافتعال !

من تراب (٥٤٣) والعزوم والاختيارات! (*) الطريق (٢)

ما تقدم يشكل من قديم واجهة اجتماعية ، ساعدت كل جماعة ومازالت تساعد على نمو الاتصال بين ما نشعر به فيما بيننا وبين أنفسنا ، وبين ما يعلنه أو يكشف عنه بعضنا لبعض فعلا أو تركا .. شفاهة أو قراءة أو كتابة . ويقابل هذه الواجهة ، من قديم أيضا ، شيوع النفاق أو المداينة .. وهذه واجهة اجتماعية أخرى تستر بها العامة غالبا ، سواء في تعاملها مع الخاصة ، أو في تعاملها فيما بينها ، ويبدو أنه لا مطمع ولا أمل في الإقلاع عنها .. هذا مع التسليم بأن النفاق والمداينة ليسا قصرا على العامة ، فهما أيضا من وسائل الخاصة سواء في تعاملاتها فيما بينها ، أو في تعاملاتها مع الحكام والرؤساء ومن ييدهم مقاليد الأمور وقضاء المصالح !

فما نتوصى به في مبادئنا وأخلاقنا وعقائدها ، وعلى اختلاف أطيافنا ونحلنا ومللنا ، من ضرورة التزامنا بالصدق والصراحة ولزوم استقامة ووحدة داخلنا وخارجنا هذا كله معظمه تمنيات وآمال ومثل علينا قد نسعى وقد نجد في السعى إلى إدراكها ، ولكن الحاصل أن طبيعة واقعنا تحذوها في كثير من تصرفاتنا .. هذه الطبيعة التي تجرى في وعي كل منا كأفراد وكمجموعات عرضا أو قصدا .. انتماء أو انتسابا .. سهولة أو صعوبة ، وتغير هذه الطبيعة من محتويات وعينا وتزلق به للاستجابة للتيارات المؤثرة في مسيل عناصر

الوعى التى تتحرك باستمرار هنا وهناك وعلى جميع المستويات .. لا يكاد يمسك بعضها ببعض إلاّ انتفاء الوعى إلى ذات كل منا .

ولذلك كان إصرارنا على تنفيذ قراراتنا أو اختياراتنا فى الواقع إصراراً وقتياً آنياً محدوداً .. لأن القرارات والاختيارات كلها بطبيعتها أحداث وقتية . ونحن نخلط ما بين طبيعة القرار أو الاختيار ، وبين أهدافه التى هى مجرد آمال وتوقعات مستقبلية قد تحدث أو لا تحدث ، وإذا حدث فلن تكون دائمة البقاء أو غير قابلة للقدم أو التغير أو معصومة من زهد الناس فيها وانتقال اهتمامهم منها إلى غيرها .

ومن قديم الزمن لم يخلُ قط حال البشر من اتجاه بعضهم إلى محاولة تثبيت بعض الاختيارات والقرارات فى نفوسهم ونفوس أتباعهم فى صور ما جرت تسميته بالمعتقدات أو العقائد التى يُرجى أن يكف الوعى الآدمى عن مناقشتها وأن يسلم بلزومها ووجوب احترامها ، وإلاّ تعرض من يخالفها لجزاءات ينبغى أن يتحرز من التعرض لها .. على أن ذلك الاحترام والإذعان لم يمنعا من كثرة وقوع المخالفات وكثرة الراغبين فى العثور على وسائل لغفرائها والخلاص من تبعاتها أو من عبء الشعور بها !

وهذه العقائد والمعتقدات لا تخلو منها فى يومنا هذا ، أى جماعة متطورة كانت أو بدائية ، إلاّ أن دورها محدود فى تثبيت الآدمى وحفزه على مقاومة طبيعته دائمة التقلب والتغير عملاً ونظراً ، ويبدو أن هذا الدور المحدود أخذ أيضاً فى التقلص ويتجه إلى الضعف لا إلى القوة ، لأن حياة البشر التى تحفز الآدمى على كثرة التعامل مع محيطه قد اتسعت وتوسع وتأخذ بالتفاته وعنايته إلى مجريات وأحداث ذلك المحيط ليل نهار ، ولا تترك له فرصة ما

مقبولة معقولة للتأمل والانسحاب إلى داخله من زخم المحيط الصاخب العاثر.. ومن ثم لا تتاح له تقوية داخله وذاته بحصاد تأملاته ، ولا تسنح له ضغوط الظروف بتركيز اختياراته وقراراته حول ذاته ووحدتها وعدم بعثرة وعيه بين تشتت الأهواء والرغبات والأطماع والظنون والمخاوف . إذ قلما نجد اليوم آدميا يعايش ذاته ويحكمها على أساس وحدتها وتمرکزها داخله هو لا داخل المحيط أو الوسط أو البيئة ، أو ينجح في إخضاع فكره وميوله وأطماعه ومخاوفه لقانون هذا التمرکز أو هذه الوحدة التي تصير حتماً وحدة أخلاقية منضبطة في يومها وغدها .. وإذا تغيرت أو تطورت ، تغيرت وتطورت كلها معاً في نظام وفهم شاملين دون أن تفقد ذات الإنسان وحدتها وتمرکزها وسيطرتها على أجزائها وعلى ما في داخلها مما لا ينشأ كل منها إلاً نفسه وما يرضيها ويشفى ويشبع أهواءها .

من الأفكار والرغبات بين القرارات تراب (٥٤٤) والعزوم والاختيارات! (*) الطريق (٣)

من قديم تشد أنظمة الرهبة عن طريق اعتزال حياة العاديين وعدم مخالطتها تشد تحقيق تلك الوحدة وذلك التمرکز الذي يصير إلى وحدة أخلاقية منضبطة ، ولكنها لم تستطع مع تجمع الرهبان والراهبات لم تستطع الاستغناء عن السلطة والمشاركة في النفوذ الاجتماعي والسياسي ، أو الالتفات عن هذا المسعى الذي يستغرق اهتمام المشتغل به في نهاره وليله ، متدينا كان أو غير متدين .. وهو ما تعاني منه الكنيسة الكاثوليكية للآن في رهبانها وقسسها ، وقد فشت بين القسس خاصة المطالبة بالزواج وتكوين الأسرة وأخذ نصيبهم من الحياة العادية المتاحة لسائر الأحياء !! ولعل هذا مع مجافاته لما عليه تاريخ الكنيسة الكاثوليكية فيه جانب غير قليل من مقتضيات الواقع .. لأن حياة القديسين حياة أفراد لا حياة جماعات .. والأفراد أحرار في اختيار أسلوب حياتهم ، واختياراتهم نابعة منهم وليست إذعانا لمشیئة رؤساء أو أنظمة يضعونها ، وهم في ذلك يختلفون عما يجري في حياة الجماعات التي يتبع أفرادها رضاء أو جبراً أعراف الجماعة وقوانينها ، ويخضعون لأوامر ونواهي رئاستها المسؤولة عن تدبير مصالحها ومراقبة السلوك العام للأفراد داخلها . ولذلك فإنه منذ أن فقدت الرهبة طابعها الفردي الأصلي وصارت جماعات وفرقاً ، لم تعد أفراداً من القديسين ،

ولم يعد فى الإمكان دوام استمرار تشكيلها على أساس الطاعة والانصياع والتجنيد . هذا ومع حرمانها مما لم يحرم منه الناس حتى المجندين فى الجيش أو الشرطة ، كان لابد أن يأتى اليوم الذى تطالب فيه القسس بحققها فى الزواج والتحرر من القيود التى وإن ارتضاها القديسون من نبع ذواتهم ، إلا أن الإنسان العادى الطبيعى فى هذه الأيام لا يقدر عليها حتى وإن ارتضاها . وهكذا بات الإنسان العادى فى وقتنا الحاضر هو القياس المألوف حتى لدى القسس والرهبان .. وهو قياس يلامس ما فى العالم الخارجى من انغماس فى مؤثراته التى لا حصر لها ، وكلها تثير مخاوف لا تصادف القدر اللازم من التأمل والمراجعة من جهة الوعى والفهم والتمركز حول الذات لكيما تتحرك عناصر الوعى العاطفية والفكرية معًا فى وحدة ونظام إلى غايات مشتركة متسقة .

هذا ولا يكف عامة الناس عن الخلط بين الكاهن أو الشيخ وبين القديس . فالأول صاحب عمل معين هو إرشاد وهداية الممتنين إلى الله فى دائرة عمله لأصول وطقوس ملتهم واقناعهم بضرورتها وصدقها ووجوب اتباعها . وهذه خدمة أو وظيفة اجتماعية تؤدى بأجر أو بدونه لأفراد الشعب من أهل الملة .. يتفعلون بها كل قدر استجابته . أما القديس فطراز آخر تماما لإنسان تميز بمواهب غير عادية ، يرى بها كل ما فى دينه سائغا مجيدًا مقبولا لا يتصور أن يُنسى أو يُغفل أو يُخالف .. وهو أى القديس قانع تماما بما معه لا يزاحم أحدًا على دين أو دنيا ، ولا يجد لديه ما يزدري بسببه كائنا آدميا أو غير آدمي ، أو يتسلط به عليه أو يترفع عنه . وقد يكون هذا القديس كاهنا أو شيخًا وقد لا يكون ، لأنه قلما يطبق الرياضات والمراسم . ولهذا لا تتسع

الحكومات ولا ترحب بالقديسين ولا تحتاج إليهم قط .. لأن القديس يولد فرداً ويموت فرداً لا يلد قديسين ولا يعنيه ما يعنى الناس من الميراث أو من مقاليد الحكم .

وربما كان لوعى كل منا ما يشبه اللوحة ترسم عليها المعالم على درجات مختلفة من الغموض والوضوح فى أبعادها من الزمان والمكان ، لا تطابق قط ما يحدث فى خارجنا ، لأن ما تنقله حواسنا يعالج بالاختيار والتصور فى المخ إلى ما يمكن أن يعيه وعى الإنسان .

فالرؤى والاحتمالات والصور الذهنية والأفكار والخواطر والرغبات والمخاوف والقرارات والإرادات تحدث فيما يشبه اللوحة بسرعة البرق على درجات من الغموض الذى قد يميل إلى المزيد من الوضوح ثم من الوضوح الذى استوفى حظه وفرصته إلى الغموض الذى فى طريقه إلى الاختفاء من حاجر الوعى إلى الذاكرة أو النسيان .

وربما كانت بداية وعينا للزمان والمكان فى ذلك الشئ الذى يشبه اللوحة حيث تنبض عليه خطوط الزمان والمكان فى غموض ووضوح دائبين ؛ لا ينقطعان إلا مع انقطاع الوعى ذاته .. هذا وتقع موضوعات الوعى حتماً ضمن اثنين من هذه الخطوط مشيرة إلى زمان ومكان فى وعينا .. إشارة غامضة أحياناً لا توقظ انتباهنا ، أو واضحة أحياناً نلتفت إليها ونمسك بها ونعبر عنها بلفظ أو إشارة أو صورة .

ولذلك ، فإنه رغم وعينا للكليات والمجردات وكثرة استعمالنا لها ، وبرغم معرفتنا للفارق بين الواقع والخيال وبين الحقيقة والوهم وبين اليقظة والحلم فإننا لم ننجح تماماً فى تصور اللا زمنى واللامكانى أو تصور الوجود

الحقيقى الخالى من الزمان والمكان . فنحن نواجه باستمرار بما نسميه الغيب والموت والعدم والفناء ونستسلم لهذا وذاك مذعنين دون أن نعرف حقيقته وإن كنا ندرك عواقبها جميعاً فى الزمان والمكان بفضل وعى الباقيين الناجين الذين يأتى دورهم فى لقاءها دون أن ينكشف لهم سرها .

والبشر ينسون دائماً أن ما لديهم من الوعى وعىً دائماً نسبى محدود بحدود آدميتهم زماناً ومكاناً .. وهو وعى أحياء لخدمة أحياء فى حياتهم على هذه الأرض .. لا يعى مباشرة ما قبل الحياة ولا ما بعدها .. لأن ما قبل الحياة وما بعدها لا دور فيه معروف للأحياء ، ونظرة الآدمى إليه غائمة دائماً خالية من أى تفصيل مهما طاللت وكثرت فيه الأوصاف والأقوال ، وهكذا كان الإنسان ، ولا يزال !!

من

تراب (٥٤٥)

الطريق

ماهية الزمن (*)

(١)

مع أن الوقت هو محور حياتنا، حاضر دائماً في صفحة وعينا، إلا أن توصيف ماهيته يبقى دائماً هدفاً للبحث : ما هو الوقت أو ما هو الزمان ؟ هل هو استمرارية وجود حدث في الكون ؟ هل الوقت صفة مقدارية تنقضي مع انقضاء هذا الحدث مع تكرارها فيه وفي غيره .. وهل مقدارها يقبل التبعض والتجزئة وهل تقبل هذا التبعض إلى غير حد ؟ وهل هذا يتم في الكون أو في فكر الآدمي وتصوره فقط .. وهل اختلاف مقدار هذه الاستمرارية هو المسئول عن «القبل والبعد» و«القديم والجديد» و«الأول والآخر» و«الماضي والحاضر» و«الباقى وغير الباقى» و«الأزلى والأبدى» .. هل هذه الاستمرارية هي المسئولة عن علاقة هذه الثنائيات بالوقت والزمان كضدين متقابلين .. وما معنى هذه الاستمرارية النسبية المقدارية ؟

أم أن الوقت أو الزمان هو مسافة الحركة المتاحة للكائن في الكون .. أى مجموع هذه المسافة الفعلية منسوبة إلى مسافات الحركات المتاحة للكائنات الأخرى بافتراض أنها هي الأخرى فعلية ؟

فالمسافة الأطول والأبعد يقطعها الأطول زمناً ووقتاً، وليس الأبعد زوالاً وفناءً . فهذا خلال سريانه لا يقطع وجوده قبل زواله وفنائه إلا مسافة من العالم الخارجى .. ضئيلة أو قصيرة ، بينما يقطع غيره من الموجودات سيما الطاقات منها برغم قصر استمرارية وجوده إلى الكسر من الثانية أو

(*) المال ٥/١٢/٢٠١١

أقل ، وهذا يطرح على البشر ، ويستخدمونه في الحركة وقطع المسافات أداءً ونقلًا وانتقالاً ، يطرح عليهم طاقات تقطع المسافات الشاسعة . هل يطيل هذا في حقيقة زمنهم وهم لا يشعرون فيتجاوز بمراحل زمن القاعد البطيء الزاحف ، وأن المسافة المعنية هي ما يتغير به وعى شعور الآدمي ويتطور تصوره لذاته ومحيطه حيثئذ يكون الزمن من خصائص جهاز الآدمي النفسى وعناصر رؤيته لنفسه وإلى المحيط والكون .

هذه وغيرها أسئلة جال عقل الآدمي فيها وما زال يجول دون الوصول إلى نهاية يُطمأن إليها .. لأننا نعيش الزمن دون أن نفهم حقيقته كما نعيش حياتنا ذاتها دون أن نفهم حقيقتها !

ثم إن للزمن عند الآدميين مفاهيم مختلفة مختلطة باختلاف الموضوعات والفئات ولديهم مصطلحات اتفقت عليها الجماعات من قديم وصارت أعرافاً ومقاييس للحساب والمحاسبة بالمواطأة طويلة الأمد رغبة في التنظيم والتيسير في استخلاص النتائج والمعلومات العملية لعلاقات الناس بعضهم ببعض وروابطهم بالمحيط الذى يعيشون فيه ، ومن ذلك ما يُعرف بالسنة أو الحول وأقسام السنة وشهورها وأسابيعها وأيامها وساعاتها وأقسامها وبدايات كل تقويم .. وهم يستعملون هذه في حساب الأعمار والتواريخ والمواليد والوفيات والزيجات والأرباح والخسائر وتذكر الماضى والحاضر وتخيل المستقبل وتوقع مواقع ما يقابلهم من الظواهر الطبيعية والبيولوجية والفسولوجية والنفسية .

وقد ساد تحديد الأزمنة جميع ما يقع تحت حواسنا أو يقع وتداوله عقولنا مما نتصور أنه وقع أو يقع خارجنا سواء من جانبنا أو مما يهمنى حقيقةً أو

تصوراً .. علماً بأن ما يدور بداخل الآدمي لا يرتبط بزمن .. حكماً أو علماً أو
تصوراً أو فكراً من جهة تكوينه وليس من جهة تذكره .

ويبدو أن شدة ارتباطنا بما نسميه زمناً لكل حدث ترجع إلى حاجتنا التي
لا تنقطع قط إلى التعامل الدائب مع المحيط الذي ليس منه مفر .. فلا بد
طوال أيامنا على الأرض من التفات وعينا إلى حدوث شيء قبل شيء أو
بعده أو وصله أو فصله بشيء حصل أو مضى أو في طريقه إلى الحصول أو
نرغب أو نخاف حصوله .

ونحن لا نكف عن استعمال نظام ما .. علمي مشترك .. على قدر من
البساطة وإمكان التنفيذ .. به يمكن للآدمي حسب ظروفه وأحواله أن
يواجه احتمالات حياته .. وهي غالباً ما تتراوح وتتأرجح عملاً بين الراجح
والمحتمل والنادر والمستحيل في نظر الآدمي العادي الذي تختلف معايير
قدراته عن العباقرة والأفذاذ .

ويبدو أن الآدمي قد استخلص بوعيه وجود الزمن من وجود محيطه
حتى لا يضيع حساب ما يصادفه .. وذلك ثقة منه في أن محيطه ثابت أو
على درجة من الثبات .. وبواسطة هذا القياس إن جاز التعبير أمكن للآدمي
أن يسند إليه إلى محيطه ترتيب وتعاقب أحداث حياته ووقائعها التي تتوالى
توالى الأنفاس .. وليمكن للآدمي أن يرجع باستعادة وتذكر هذا الترتيب
والتعاقب إلى الانتفاع والاستفادة بحصيلة ما يذكره في مواجهة ما يقابله ..
وقد يسّر هذا الرجوع باصطلاح الشارات والرموز والألفاظ والعلامات ثم
موالاتها في تطورها بالتصحيح والتنقيح والتجربة ، حتى صارت إلى ما هي
عليه الآن ، في الجماعات المتقدمة من الدقة والانضباط .. واستطاع الآدمي

أن يطير وأن يغوص ، وأن ينطلق كالسهم وأن يتجاوز أجواء الأرض إلى الفضاء الواسع وأن يرى أحوال الأجرام والكواكب السيارة رؤية العين ..
وقد كان العقل من أشد ملكات الإنسان التي هيأت له باستخدامه تجريبيا
وعمليا الإمعان في حساب الظواهر الطبيعية ولكن دون أن يعرف حقيقة ما
يسميه بالزمن أو الوقت !!

من

تراب (٥٤٦)

الطريق

ماهية الزمن (*)

(٢)

وتقدم الإنسان في الفهم والمعرفة ، هو على أهميته الهائلة نسبي وجزئي كأي تقدم سبقه وربما كأي تقدم يتلوه أو يلحقه .. فهو نسبي من جهة أنه أزال أخطاء وجهالات وعقبات ولما يرفع مجاهل مازالت أعمق وأكثر .. وهو جزئي لأنه لم يغير تغييراً حاسماً وجدان الآدمي وأعماقه وإن كان قد غزا الكثير من عاداته السابقة وسلوكه القديم ومزج أفكاره وتصوره لدوره في هذه الدنيا .

فما زالت أغلبية البشر هنا وهناك ، في البلاد المتقدمة أو غير المتقدمة ، تربط نفسها بالزمن في جدها وهزلها وتعبها وراحتها وعملها وفراغها .. ولا تكاد تفارق أو تستغنى عن وجود الساعة في الجيب أو في اليد أو على الحائط ، وفي الميادين والشوارع والمحلات العامة ، وفي البث الإذاعي والتلفزيوني والإلكتروني ، وفي المعمل والمصنع والمتجر والمرصد والمعهد .. إلا أن هذه الساعة أياً كانت هي مجرد أداة أو آلة لا تختار أو تحدد مساعي البشر ، ولا تشعر بشيء مما يدور في خواطرهم .. فالبشر هم الذين يتقيدون أو لا يتقيدون بما تشير إليه عقارب الساعة من اصطلاح .. وهم الذين ينظرون فيها ويرتبون على ذلك ما يشاءون من أغراض ، وما يتحرك داخلهم من عواطف . فالساعة كآلة لا تحرك في عقل الآدمي أو في نفسه أي رغبة في

(*) المال ٦/١٢/٢٠١١

معرفة ماهية الزمن كوجود يتميز عما يضاف إليه من المضافات .. فعندما يحملق الإنسان في الساعة ، لا يتجاوز معرفة وقت الشيء الذي في خاطره كشأنه فيما يتعلق بأى أداة من أدوات أو آلات الأغراض اليومية أو المهنية أو الحرفية أو الترفيهية .. لأن الناس لا يصنعون الساعات إلا لخدمة أغراض الناس .. وهذه كلما اتسعت راجت معها صناعة أو تجارة الساعات لدى البشر .

ويبدو أن البشر قديما وحديثا لا يربطون بين حقيقة الزمن وبين الإنجاز ، ويرون أن الزمن يطول بتأخير الإنجاز ويختصر بالإسراع فيه .. ومن هذه الناحية يشبه الزمن عندهم التصور الذاتى .. يظل الساكن على سكونه في حال السكون وزمنه إلى أن يحركه متحرك ، ويظل المتحرك في حال الحركة وزمنها إلى أن يوقفه عن حركته موقف . فالزمن ظرفية فقط للأحداث الدنيوية ، لكن أحدا لا يدري هل هذه الظرفية خارجية كظرفية النور والظلمة ، والريف والحضر ، والصيف والشتاء أم هي ظرفية داخلية ضمن تكوين الحدث ، كعدد وترتيب ذرات الجزيء ، وفقد واستعادة إلكترون الذرة أو تفرق نواتها لدى تحطيمها . وهذا ربما يجعل زمن البشر «فضلة» و «إضافة» هامشية قد تلزم الآدمى لفهم محيطه ، لكنها لا تلزم لوجود الكون ذاته وما اشتمل عليه .

وحياة الأحياء استمرارية ؛ ذات بداية ونهاية في محيط متقلب ، يحىء للحى بالنافع له والضار من الأحداث في تداول يحتوى على تعاقب شبه منتظم المسافات بين كل حدث ونظيره . وقد عرف الآدمى ذلك من قديم ، فحسب أوان الأحداث والأشياء وحينها ، وراقب أوانا للإبذار وللإزهار

وللإثارة والحصاد ، وأواناً للحر والركود ، وأواناً للنسائم والريح المواتية ، وأواناً للبرد والثلج والنوات والعواصف والأعاصير والزلازل والبراكين في الأمكنة المعرضة لها .. وأمن نفسه على قدر طاقته لمواجهة كل أوان بحسب ما يلائمه .. ووصف ذلك بأنه وقت أو موسم أو زمان يعنى فقط أثر ذلك على ذاته وذويه وأحواله ، وما يتطلبه من تصرف من واقع الخبرات والمشاهدات السابقة في المحيط .

وحين عُرف أن الآدمي يدين للضوء في رؤيته لنفسه ومحيطه ، وعُرف أن الضوء أعلى الطاقات المعروفة سرعة وأنه كما يشاهد أمواجاً في مجاله قد يشاهد جسماً في جسم ، فإن الفيزياء الحديثة قد جمعت بين الزمان والمكان الفيزيائيين في وحدة واحدة لا يعترف بها إلا أهل العلم الوضعي ، ولا معنى لها عند الإنسان العادي الذي مازال يتداول كلمة الزمن أو الزمان كما كان يتداولها آباؤه وأجداده بغموضها وسيولتها وانطباقها على كل شيء وكل حدث للحى ، وغير الحى وعلى الكون نفسه بدايةً ونهايةً .

وربما كانت سيولة وغموض فكرة الزمن والوقت في وعى الآدمي من أنها جزء من وعيه نفسه وإحساسه بالصيرورة والتغير الدائنين ، ومن استناد ذلك الوعى والإحساس لدى الآدمي إلى ثبات الأرض في نظره ودوام ثباتها ، ومن اعتياده على قياس أعمار الأحياء والأحداث على أساس ذلك الثبات برد الأعمار والمواقيت إلى بدايات أو تقويم بدأت كلها على الأرض ومن حياة الآدمي عليها .

وبرغم فقد الأرض ثباتها وأهميتها الكونية في نظر العلوم الوضعية والحديثة ، خاصة في نظر علوم الفيزياء والفلك فإن الأرض لم تفقد أهميتها

القديمة في عين الإنسان العادى الحالى الذى مازال يعى ويمس الزمن ومروور الوقت ويحسبهما كما كان يفعل آباؤه وأجداده .. مستعيناً بآلات حساب الزمن وبيان الوقت . ومازال معظم الأدميين يرجون مخلصين بطريقة أو بأخرى الحياة الآخرة بعد الموت ، ويرجون فيها بقية ثابتة غير محدودة ، لا تقبل التغير والتحول ، ولا تقاس بزمن أو وقت فى أحداثها وأجزائها جميعاً ، ولا تخضع إلاّ لمشيئة واختيار كل صالح من الراجين الموعودين بها .

التأمل ليس صناعة

عموم البشر (*)

(١)

من

تراب (٥٤٧)

الطريق

الإمعان في التفكير هو التأمل وإطالة وتقليب الفكر .. ونحن لا نفعل ذلك في أغلب أوقات يقظتنا على خلاف ما قد يتهيأ لنا .. لأن أغراضنا اليومية المألوفة لا تحوجنا إلى هذا الإمعان في التفكير .. ومن ثم نقنع بما هو قريب لدينا بهيئته ووجوده وعناصره على سطح الذاكرة .. ولكثرة هذا النوع السهل من التفكير والتذاكر ، اعتدناه وألفناه وعشنا عليه ، فلا نعود نعرف ونرتاح إلى سواه .. وبذلك أمسى التأمل عسيراً على معظمنا إن لم يصير مستحيلاً لفقده بطول الترك وعدم الممارسة .

وهذا يكاد يكون القاعدة العامة لدى الآدميين العاديين ذكوراً وإناثاً .. ويكاد يتشابه مع هؤلاء الكثير ممن يستدعى عملهم التأمل وإمعان التفكير ، لأنهم بدورهم يستغرقهم الاعتياد فيحصرون تأملهم أو إمعانهم التفكير في حدود عملهم ، ثم يهجرونه أو لا يمارسونه في حياتهم المعتادة خارج نطاق أعمالهم ..

فإمعان التفكير على عكس ما قد نتصور ليس صفة سائدة في عموم البشر والجماعات .. وهذا ما يجعل الجماعات المتطورة أو المتقدمة كثيرة الحركة يغلب فيها الاشتياق إلى التغيير والضيق بالإبطاء والأناة والقيود والأنظمة التي تفرضها السلطات أو التقاليد أو قواعد الأخلاق ، دون أن يكون ذلك

الضيق ثمرة إطالة نظر أو أناة ، أو أن يكون مصحوباً ببديل مقترح إحلاله محل ما هو موجود مما صار عسيراً تغييره الآن.

وأغلب ما واجهه المفكرون الذين يطيلون النظر في أمثال هذه الضوابط نقداً وتخطئةً قد اقتصر على إبراز ذلك الجانب السلبي .. ويزيد هذا النقد في مرارة الشكوى واتساع انتشارها وتحويل صبر الحكام عليها إلى تقصير أو إهمال ، ويساهم في ذلك أن معظم البشر يؤثرون السطحية ويلوكونها في كافة أعمالهم ، ويؤثرون معها الكسل والاقتصاد في المجهود ، مما فاقم السليبيات وأدى إلى القعود عن علاجها !

وهذا الانكفاء إن جاز التعبير يكون أكثر وضوحاً كلما اتسعت الجماعة في العدد والأنشطة وتباين الأجناس والأخلاق ، فتقل لذلك فرص تتبع ومراقبة سلوكيات الأفراد ، ويتناسى المجتمع ذلك خلال الكثرة والازدحام للذين غمرا كل شيء في عالمنا اليوم ، ويهمل تبعاً لذلك الواجبات الاجتماعية المتبادلة التي تكفل النظام والراحة للجميع في المجتمع الواسع .
والملاحظ أن أهل المجتمعات الصغيرة أشد التفاتاً إلى الالتزامات التي تفرضها على الأفراد الأصول والتقاليد والعادات واللياقات .

والغالب أن الإنسان العادى لا يتأمل ابتداءً وتلقائياً تصرفات نفسه وغيره ، وقد يراجعها فقط إذا خالفت توقعاته وظنونه أملاً في إزالة المخالفة أو تفادى تكرارها ، وهذه المراجعة فيها مع ذلك من ضغط العاطفة أكثر مما فيها من آثار الفهم والتعقل ، وهو ما يشوش على التأمل ويحجب قيمته لدى من يعيد النظر في تصرفه أو تصرف غيره ، مما أدى إلى بقاء الإنسان العادى إلى اليوم على حاله من التعلق بالسطحية وظواهر الأمور .

وكثيرو التأمل نادرون في كل عصر ، وهم يتجاوزون المستوى العادى
أو الخاص المعهود في عصرهم ، ولكن لا يتجاوزون ذلك من كل وجه
ولا في غالبية الوجوه والصفات والعادات ، وإلاّ استحال عليهم معايشة
معاصريهم ، وصعب أو نذر عليهم التأثير في معظم بنى عصرهم أو في
ذرائعهم أو حتى في ذرارى من تأثروا بهم ، ولصار وجودهم مع ندرته
شدوذاً محصناً عديم الجدوى !

وتأمل الفرد من هذه الندره ، يبدو في أوائل أمره نشاطاً خاصاً تنفرد به
هذه القلة النادرة ، سرعان ما يتجه بكيانه إلى محيطهم وإلى السعى لإفادته بما
حصل ويحصل المتأملون عليه من نواتج تأملهم .

وحين يتبين المتأمل أنه مسوق بدافع داخلى لا يمكنه مقاومته ، يندفع إلى
مسايرته بكيانه وجزيئاته ، دون أن يبالى بالجهد والعوائق ، ولا بالتضحية
والمخاطر ، ويصبح المتأمل كأنه نزعة عرقية هدفها الأساسى قيادة الجماعة
إلى تعديل أو تغيير مسارها أو أكثر مساراتها الاجتماعية .. وهذه نهاية إيمانية
عميقة طاغية ولا تسمح بالرجوع أو الانسحاب ، إذ عندها توقفت فكرة
التأمل عن موالاة الأسئلة على نفسه ، وعن محاولة العثور على إجابات عليها
أو إجابة على كل منها ، وزالت مع هذا التوقف فرص مقابله للاستجابة
والشك فيما معه .

التأمل ليس صناعة

عموم البشر (*)

(٢)

من

تراب (٥٤٨)

الطريق

بقاء فرص التأمل وطرح الأسئلة والبحث عن الإجابات ، لا يوجد عادة إلا لدى العلماء والباحثين في العلوم الوضعية .. الذين يخلون من التعصب وتسمح عقولهم ونفوسهم بالتسليم باحتمال الخطأ والسهو والقصور في مقررات تلك العلوم التي ينبغي ألا تنقطع فيها المراجعة والبحث أملاً في المزيد من الدقة والصحة . ويقل أن توجد هذه الفرص لدى أصحاب العلوم الأخرى والفنون ، ويستحيل وجودها عند أصحاب المذاهب والعقائد . ف هؤلاء يتحولون عن الاسترسال في البحث عن الدقة والصحة إلى الاسترسال في اكتشاف وجوه الكمال والجمال فيما صار معهم ، وإلى صرف الجهود في الدفاع والتأييد والمعونة والنصرة كي يبقى ما معهم مرفوع الراية .. وهذا أقوى في اجتذاب الآدمي في كل عصر ، وأقرب إلى راحته وتمسكه به بل غرور الاعتماد عليه ، وأشهى إلى الأذواق والميول أقوى وأقرب وأشهى من استمرار إطالة وتقليب الفكر ومواصلة طرح الأسئلة على العقل ومن الملاحظة والإصرار على محاولة البحث واقتناص الإجابات ومداومة إعادة فحصها ومراجعتها وتقويمها .

إن الاعتياد على التأمل وتقليب الفكر قبل اتخاذ القرار أبعد في عقل الآدمي من وعود اللجنة .. لم تبلغه بعد أعنى هذا الاعتياد غالبية الأفراد حتى في الجماعات المتقدمة ، ويبدو أن ذلك من أسباب قلق هذه الجماعات وتكرار

(*) المال ١٣/١٢/٢٠١١

أزمانها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، التى لم يُفلح فى منعها أو فى الحد منها التقدم الهائل فى العلوم والكشوف والاختراعات والتكنولوجيا .. وذلك لتفشى المضاربة والمضاربين والمغامرة والمغامرين ، فى دوائر المال والأعمال ودوائر السياسة والحكم ، وانعكاس ذلك فى سلوك وآمال ومطامع العامة والخاصة .. وهذه كلها خالية من الاتزان المصاحب دائماً لاعتياد التأمل وإطالة النظر وتقليب الفكر .. بل هى مليئة أيضاً بالتسرع والتوثب والجرأة وانتهاز الفرص ان سنحت ومحاولة خلقها إن لم تسنح !

والناس إذ تعيش اليوم حياتها المألوفة فى هذا الجو المشحون بالتوتر والانتظار لفرص أغلبها غير راجح بل على درجات متفاوتة من الاحتمال والظنون والحظوظ والحيلة والدهاء .. فإن الناس فى هذه الحال لابد أن يعتادوا دوام هذا القلق الداخلى الذى يسود الحياة العامة والخاصة فى نظرهم .. حاملاً معه بذور الأزمات والاضطرابات والفتن والحروب الداخلية والخارجية .. سيما أن نظمهم الاقتصادية والسياسية تجعل معظم أموالهم وحقوقهم ودائع فى يد الحكام والإدارات والمصارف وبيوت المال التى يؤذيها أذى بيناً المغامرة والمجازفة من المغامرين والمجازفين ومن مقلديهم وهم الكثرة الكاثرة التى تجتذبها وسائل الإعلان المعاصرة مرئية ومسموعة ومقروءة !

هذه الأخطار تهدد فيما تهدده من معالم الحضارة الحديثة تهدد ثروة البلاد العلمية المتقدمة .. فهذه ينهض بها أفذاذ وواعدون تجذبهم المعاهد العلمية ومعاملها ومعامل الشركات الصناعية الكبرى المخصصة للبحث العلمى ، وذلك بالأجور العلمية والتجهيزات والإمكانات الغالية والمكانة والتشجيع السخى للإنتاج .. وهذه تقدم وتقوّم مصادر الثروة الاقتصادية والمالية ،

والتي هي حاصل ونتاج وأساس وركيزة التقدم العلمى الحالى .. وهذه
الثروة تنهار برغم التقدم العلمى إذا انهارت النظم السياسية والاجتماعية
سواء بالأزمات أو الاضطرابات أو الفتن والحروب !

التأمل ليس صناعة

عموم البشر (*)

(٣)

من

تراب (٥٤٩)

الطريق

لقد انتقل زمام تقدم العلم الوضعى منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، من يد الأفراد بقدراتهم المادية المحدودة انتقل إلى أيدي المنظمات الغنية القادرة على الإنفاق والبذل لتقدم العلم كيما يزودها من خلال الأنشطة العلمية بما قد يحقق أغراضها هي دون أن يفارق مقره العادى فى الجامعة أو المعهد أو المعمل .

وبديهي أن الاعتياد على التأمل وإطالة تقليب الفكر هو زيادة فى سلامة العقل وحرية ، ويخالف من كل وجه تسلط الفكرة المعينة لدى ذوى العاهات العقلية أو النفسية أحياناً ، وفيه أعنى هذا التسلط يتوقف نشاط الفكر عند فكرة معينة لا تفارقه ، ويبقى أسيراً لها يومه وغده .. تكبل كافة قواه العقلية أو تقيّد حركات وأنشطة استعداداته النفسية التى توجد فى الإنسان السليم العادى ، كما يخالف ما يشاهد لدى أهل التمثذهب والتعصب من استحالة تغيير أو تعديل مبادئ أو مصدقات معينة يسلمون بها ويستسلمون لها بلا قيد أو شرط .. لأنها عندهم «أبدية» الصحة يحكمونها فى كل مسألة تعرض لهم أو تعرض عليهم أو تعرض طريقهم ، ثم هو يخالف بلا شك أى هذا التسلط يخالف من لا يبالون بالصحة والبطلان وهم حتى الآن كثرة الناس ، لأنهم لا يهتمهم إلا الانحياز لما هو سائد أو غالب ؛ والاحتفاء فى ظلّه والسير

في طريقه .. فهو يقيهم المسئولية ويؤمنهم من الخوف ويضمن لهم قدرًا من السلامة في حاضريهم .

وهذه الفئات من الآدميين مرضى وغير مرضى لا تكاد تكتب في تقدم النوع الإنساني بشيء ذي بال فيما عدا التوالد فتوالدهم يتيح فرص ظهور ذراري أصح وأفضل وأكثر نفعًا .

ثم إن التأمل ليس ظاهرة بدائية في الآدمي كالأكل والشرب واليقظة والنوم والعمل والراحة ، بل هو ظاهرة رقى وتقدم في الاستعدادات ، وسر لا يتأتى بأية صورة مجدية إلا في جماعات تتصل وتنفصل وتتفق وتختلف ، وتبادل آليًا وعمدًا الأفكار والتصورات .

فالذين يعتزلون في الشطر الأكبر من حياتهم وينفردون في عزلة تقطعهم عن أى اتصال أو تواصل أو تبادل وتلاق أو اختلاف .. لا يجدون حافزًا يحفزهم إلى التأمل ؛ لأنهم لا تثور في رءوسهم أسئلة تستدعى إطالة النظر وإمعان الفكر ، ولا يحاول تفكيرهم العثور على ردود تشغلهم بفحصها وتجربتها وتدفعهم إلى عرضها على غيرهم لإقناعهم بها أو لتلقى مساعدتهم على الإجابة عليها أو لمحاولة إبداء وبيان ما لديهم مما هو ناقص أو خاطئ أو زائف لا أساس له .

فالعزلة التامة عن الناس ، ليست ملاذ التأمل ، بل هي ملجأ التشرنق والتعصب والجمود ، ولذلك فإن الاعتزال لا يعالج ضعف التأمل في جمهور الجماعات .. فالاعتزال بمثابة سجن يعتقل فيه العقل والروح معًا ، فيتجمدان ويفقدان القدرة على سلامة النضج والترقى ، ويدخلان بالمعتزل قدما في اتجاه المحاق والظلمة !

يجب أن نفطن إلى أن التأمل باب تقدم ورقى لاستعدادات آدمى فى كل زمان ومكان .. لأنه زيادة إحسان للتصور والمخيلة والقدرة على الملاحظة والتفطن للمزيد من العلاقات والأحجام والأبعاد لما يستطيع آدمى معرفته عن نفسه وعن الموجودات التى تملأ الكون مما لا نهاية له ، ولأنه باب المعرفة والدين والأخلاق والعلم والفلسفة والشعر والجمال والفنون والآداب والأذواق واللباقات وكل تهذيب تميز ويتميز به الإنسان عن غيره فى عالم الحيوان .

من تراب الطريق

الذاكرة في حياة الناس (*) (١)

الذاكرة هي مخزون حياة كل منا ، ماضيه وما شاهده ويشاهده في حاضره ، وما ألم به أو فاته ، وما أصاب فيه أو أخطأ ، وما يعقد عليه النية أو يزمع الإقدام عليه في المستقبل القريب أو البعيد .. وهذه الخزانة أعنى ذاكرتنا ، إذ تحفظ فيما يبدو شعورنا بما نسميه الألم والوجع البدني ، وما نسميه الحزن والضيق والهمل والغيط والكمد والحقد والشقاء والتعاسة وغيرها من المنغصات والأزمات النفسية ، فإنها لا تفرق أى الذاكرة بين هذه المسميات بمصطلحات خاصة إلا في مراحل متقدمة من نمو التنبيه للغة والوعي .. فلا ترى هذه التفرقة فيما تمثلنا به لدى الرضيع في صراخه لضيق أو بلل أو جوع ، ولا تتعرف أمه أو حاضته أو مرضعته على سبب صراخه إلا بفضل ما نألمها لديها هي من اللغة والوعي خلال سنى العمر .

أما الرضيع ذاته فلا يميز اختلاف الأسباب ، ويتعامل في الإعراب عنها أو عن ضيقه منها بتعبير واحد لا يميز بين كل منها والآخر ، وإنما يبدو وكأنه يشملها كلها جملة . وهذه المرحلة الأولية يبدو أنها على نحو ما حيل لكل أنشطة الذاكرة .. يتفرع منها وعليها ويتخصص مع تقدم المراحل لتنبيه الادمى لتلك الفروع والمسميات التى لا تنفصل انفصلاً تاماً عن أصلها مع امتداد العمر . وقد يتاح من هذا الأصل صور من الارتداد مع الامتزاج

والاختلاط يلاحظها معظمنا في الأحلام ، وتلاحظ مع بعضنا أحيانا في أحوال الغضب والكبت أو المرض البدنى أو النفسى .

وذاكرة الأصم الأبكم لا تجد وسيلتها في تمثيل وتخيل وحفظ هذه الفروق وذكر مستمياتها في لغة من لغات الأدميين المألوفة لعجزه عن الاستماع وعن الكلام الذى يتخاطب به الكافة ، وإنما هو يحاول اختزان ما لديه والإعراب عن هذه الفروق بالحركات والإشارات . ولعلّه بذلك التصور ينجو من كثير من خصائص الأصوات وسعتها في الاصطلاح والتكوين والتفريغ والتسجيل للمشاعر والأفكار والآمال والأحزان والمخاوف والظنون ، وينجو من زرايات ما معنا من يسر التعبير عن ذلك بأصوات صغيرة جدا أو كبيرة جدا في الماديات : يعرفها من يعرف اللغة معرفة مباشرة أو عن طريق الترجمة فيعرف ما يتناقله كثرة السامعين الناطقين من باطل وخيال كئيب ومفزع . فالأصم الأبكم حتى وإن عايش السامعين الناطقين وخالط وتعلم وعمل وتزوج وأنجب ، يستبقى قدراً من الهدوء في عزلة نسبية تجمع بين هذا الهدوء عادة وبين الغيظ والضيق أحيانا ، ويجد نفسه مهما اجتهد في أن يكون عاديا مثل محيطه يجد نفسه مغايراً على نحو عام ، ويختلف حكمه عليهم من حكمهم عليه . وقلما يعثر لنفسه على مكان في سراء أو ضراء مما يجرى حوله في محيطه ، أو يشارك الناس في أحقادهم وعداوتهم وصداماتهم ودعاواهم وأوامهم وأحلامهم وضوضائهم ولغوهم وغرورهم الذى ليس له آخر .. وإنما هو لم يتعرض أو انقطع تعرضه لضجة وصخب ولفظ البشر وعبوديتهم للغات والأصوات التى تملأ رءوسهم وتخلى قلوبهم من الود والفتنة والسلام !

ولغة الإشارات التي يتعلمها الأصم والأبكم كسب حقيقى للبشرية ..
فهى تسمح له بنمو وعيه وعقله وعواطفه ، كما تسمح له بالاككتاب بنصيب
فى تنمية هذا فى محيطه وفى المحيط العام لمعاصريه بمعونة من يترجم عنه من
غير الصم والبكم الذين يعرفون لغته وما يتلقون أو ينقلون به فى التوصيل
عن الأصم الأبكم بما يخفف عنه عبئه ويرفع من قدراته ويعينه على مخالطة
العادين والتعامل معهم .

فذاكرتنا نحن العادين مزدحمة دائما بما تلقته وبما اصطنعناه من صيغ لا
حدود يقينية لمعايتها ترضى قابليتها للاتساع والتطبيق تطبيقا محددًا واضح
المعالم .. فنحن مثلاً نحب الإخلاص حباً خيالياً نظرياً أو نشيد به فيما نقوله
ونكتبه ، ونتبرأ من عدم الإخلاص حين نشاهده أو نسمع به ، ونتباكى
على غياب الإخلاص فى محيطنا وزماننا دون أن نعنى أو نلتفت إلى وجود
الإخلاص لدينا نحن وفى سلوكنا نحن .. بل دون أن نحاسب أنفسنا على
غيابه فى حياتنا الخاصة أو العامة !

من تراب الطريق

الذاكرة في حياة الناس (*) (٢)

درج الآدميون على أن يحاسبوا غيرهم دون أن يحاسبوا أنفسهم على ما يحاسبون غيرهم عليه .. سواء في الحياة الخاصة أو الحياة العامة .. ويبدو أننا نأبى أن نعترف أن غالبيتنا الغالبة غير قادرة على التضحية بالكثير من مطامعنا وما نعتبره مصالحنا الحيوية العاجلة والآجلة ، أو عدم الالتفات إلى الاحتمالات والمخاطر القريبة والبعيدة التي نخشاها .. لأننا من بداية حياة كل منا نعتمد اعتماداً فعالاً على غيرنا . ونحن ندخل الحياة من باب الصغر والضعف والاحتياج ، وحين نكبر ونشعر أن لنا إرادة فإننا نشعر بذلك من خلال غابة كثيفة من الذكريات والعلاقات المكدسة في ذاكرة كل منا.. تراكمت من الطفولة والصبا ، وتعوق دون أن نشعر بإعاقتها طريقنا إلى اتباع شوقنا إلى الاستقلال، وتجعل طريقنا إلى ذلك ملتوياً متردداً مليئاً بالتوقف والمصاحبة وأنصاف الحلول ، أو تجعلنا نألفه ونعتاده على هذا النحو من البعد عن الإخلاص .. وعلى قدر ما مع كل منا من كمية مخزونة من ذلك الماضي المتهيب المتعثر !!

على أن عموم وانتشار ذلك الحال فينا ، لا يمنع أيّاً منا من أن يقوم بين وقت وآخر بعمل مخلص أو بمسلك نزيه يجد له في نفسه وقعاً خاصاً يذكره ويستحسنه حتى حين يلوم نفسه على إتيانه وتقديمه لمن لم يستحقه في نظره ..

وذلك لأننا نلغى أشواقنا الأخلاقية إلغاء تاماً من ذاكرتنا حال اعتيادنا على سلوك مطرد لا تفرقه الأخلاق التي نعرفها ولا نتبعها في أغلب الأحيان !!
ونحن نجهل هل لذاكرتنا مكان معين ، كما نجهل الكيفية التي تؤدي بها عملها وتؤدي إلى نموها .. كما نجهل هل هي ذاكرة واحدة أو ذاكرات متعددة . دائمة أو وقتية . وهل هي مجرد وسيلة لتمكين البشر من العيش في محيطهم بأنسب ما يلائم ظروفهم وزمانهم ، أم أنها لبنات تتجمع عبر الأجيال وفق نظام لم نعرفه بعد للوصول بالآدميين إلى درجات من التطور يصعب على كل جيل من أحيائهم تصور آخرها .

وعند المشتغلين بالفيزياء الحيوية للآدمى تتركز تسجيلات الذاكرة في المخ وفي الجهاز العصبى بخلاياه وخيوطه والوصلات التى تربط بين الخلايا العصبية وما يعترى هذه الوصلات من تغير صور وأشكال ومعانى التعامل مع المحيط الذى يعيش فيه الحى ، وذلك على وفق نوع من الانتخاب الطبيعى يؤدي إلى تفضيل طريق على آخر فى التنقل للاستجابات ذات الفائدة .

وارتباط الذاكرة بالتعلم ارتباط أساسى .. لأنه يوافق الآدميين بالمعلومات والخبرات التى تستقر فى الذاكرة وفقاً لمكونات وتفاعلات الاستعدادات التى تكون محلاً للظهور وتنمية العلم والخبرة بطرقها النظامية وغير النظامية حيث يشاهد واضحاً فى عمل الانتخاب الطبيعى فى توزيع الاستعدادات وإظهارها خلال التعلم بنوعيه على صورة مهارات قابلة للنمو وادخار نموذج لها فى المخ يضمن حصول التصرف المطلوب الواجب فى الوقت المناسب .

وإمكانات الذاكرة إمكانات خاصة بكل فرع من الأحياء تبنى عليها دخولها على الذاكرة المعروفة التى تسجل نمو الحى وأحداث نموه تسجيلاً

وقتيا يبقى فى المخ فترة تطول أو تقصر ، أو يزول تسجيلها سريعا أو تبقى مع
الحى إلى آخر حياته .. والاسترجاع يتم من قنوات المخ لا من جزئياته ، لأن
التسجيل موجود فى تلك القنوات .. إذ لكل نوع من الأحياء نظام للذاكرة
وفى المخ يناسب طريقة حياة كل نوع من هذه الأنواع فى الحياة .

والأدميون فى عصرنا وفى كل عصر سابق يتعاملون وفقا لنظمهم
وعقولهم واستعداداتهم وأجسادهم بالمسميات المعتادة فى الجماعة التى ينتمى
إليها كل منهم على نحو قريب مما تفعله جماعات الأحياء الأخرى .

من تـراب الطريق الذاكرة في حياة الناس (*) (٣)

الإنسان حين يستخدم مكنون ذاكرته لمواجهة مطالب حياته ، لا يناقش ما يستحضره منها فيما عدا أداء الحرفة أو إجراء البحث العلمى لا يناقش ما يستحضره منها فى ظروف الحياة العادية الخالية من المرض المعتاد أو الاختلال المعتاد . فنحن فى غير هذين البلاءين وفى غير خطاب الحرفة أو البحث العلمى نعيش ونهارس الحياة وما اعتدناه فيها دون أى التفات حقيقى يحملنا على مراجعة أسلوب حياتنا أو يحدونا إلى تعديله أو تغييره .. ونمضى على ذلك بحكم الاعتياد إلى أن نعرف كيف نحس وكيف نعى ما نحسه وكيف نسجله وأين يُسجل داخلنا ، وكيف نستعيده وكيف يؤثر فى سلوكنا وحياتنا مع أنفسنا ومع القريين منا والبعيدى عنا !

ويبدو أحيانا للمتأمل ، أن هذا الإغفال أو قلة أو عدم الالتفات مقصود مؤقت فى الخلقة ، ويبقى مؤقتا إلى أن ينمو فى جماعات الآدميين المستقبلية أجيال جديدة زودت نفسها بشىء أكثر قوة وقيمة وفاعلية .. شىء لا تعوقه المصداقات والبسائط والمسلمات التى استقرت ورائت والتى تلازم الكثرة إلى الآن ! وشاهد ذلك ما يلحظه المتأمل من تطور مستمر فى قدرات الآدميين العقلية أو انفتاحها المستمر على مناطق من الفهم العميق لنواح من تركيبات لطبيعة الحية وغير الحية لم تكن تخطر ببال الآدميين من قبل . والمأمول ألا

تطول هذه الفترة علينا مثلما طالت من قبل فترات الغفلة وعدم الالتفات ، وأن ينجح البشر نهائيا في عبور هذه الفترات وأمثالها والتخلص منها ومن ركودها وركود ما يصاحبها من المخاطر والكوارث واحتمالات الفناء والانقراض !

ومن أشد ما تحتاج إليه جماعات البشر الآن ضبط النفس والتنمية المستمرة للقدرة على ضبطها .. فما صار في يد الأدميين الآن من الإمكانيات والطاقات والقوى هائلة الفاعلية ، يحتاج باستمرار إلى المزيد من الانتباه والضبط وسيطرة الأدمى الكاملة على عواطفه وانفعالاته . وهذا يتطلب دوام الاحتكام إلى العقل وحده في الأغلب الأعم من الأمور ، والنزول على حكمه بغير تردد ، واعتياد عامة الناس وخاصتهم على ذلك . وهذا وإن كان مطلباً غير هين وغير قريب الحصول لما هو معروف من عمق اختلاف الأمزجة بين الأجناس والجماعات البشرية لاختلاف الأجواء والسلالات ، فإن تقدم العلوم الوضعية إذا تهيأت له الفرصة باستمرار ، قد يقارب بين الأمزجة كما قارب بين الأجناس في التعلم والصناعة والتجارة والفنون ووسائل النقل والاتصال وطرق العلاج وأنباط التخطيط والرياضة اليومية ، وكما قارب بينها في التنبيه إلى قيمة الإنسان كإنسان وضرورة احترام حقوقه وصيانتها بغض النظر عن اختلاف الجنس واللون والبلغة والدين .. وهذا التقارب وإن كان لا يزال في بدايته فإنه بلا شك لم يتحول إلى ردة .. وهو ينجح هنا ويتعثر هناك ولكن دون أن يكف عن الحركة ولا عن الرغبة في السير إلى الأمام .. وهى رغبة قد لا تحسن اختيار الاتجاه أو الوسيلة ، وقد يكلفها ذلك مغارم ثقيلة بين وقت وآخر ، ولكنها لا تزال تحمل اتجاهها وإصراراً على

التقدم بهداية العقل الحر على أمل أن تكمل هدايتها نهائياً ويتخلص الآدميون كلهم من قيود الوهم والخوف والخرافة .. وبُعد هذا الأمل ربما لا يكون أبعد كثيراً من القفزات الهائلة التي قفزتها العلوم الوضعية في التكنولوجيا الحديثة التي لم يكن أحد يتصور حدوثها من أربعين أو خمسين عاماً .. وهذا الأمل ممكن التحقق إذا لم تنتكب البشرية طريقها وتكذب بحرب نووية عالمية يطلقها هوس الغرور بالقوة أو يأس العناد والانتصار الضريع للذات .

أمام البشرية ، إذا أرادت وأصرّت ، آمال واسعة جداً كجنس ناجح يمكنه أن يحقق المزيد ومزيد المزيد من النجاح ، وأمامها أيضاً مخاطر مخيفة مزعجة إذا حادت وتردت في هاوية الحروب .. وملاذها إن أرادت أن تتجاوز هذا كله وأن تنفض عنها المخاوف والتوجسات وأوهام السيطرة ، وأن تبقى شعلة الأمل مشتعلة ، وأن تحقق أشواقها إلى السلام الحى الذى فيه الخير كل الخير للبشرية كلها .

من تراب (٥٥٣) بين الظهور والاختفاء (*) الطريق (١) الاستعداد للمحبة

في أعماق أعماق الآدمي ؛ استعداد للمحبة محلٌ للشعور والوعي ، وأحياناً الفهم والتأمل بل والتدين .. وهو استعداد يقبل الانكماش والانسحاب والانحصار والانتشار والتقلص والتمدد .. نجده في الأسرة والجيرة والصدقة والاشترار والانتفاء ، وفي وجود اللغة والعادات والتقاليد والأعراف ، وفي قيام النجوع والقرى والبلدان والمدن والأقطار وجماعاتها ورئاساتها ونظمها وشرائعها ودولها وحضاراتها . لأن ذلك كله نتاج استعدادات الآدمي منفرداً ومجتمعاً .. ومنها المحبة السائدة فعلاً أو افتراضاً . وهذه مهما تقلصت لا تنمحي .. وتقلصها إن تقلصت تدريجياً يلزم نمو العادات والأنانية وانكباب الآدمي على تفضيلها وإيثارها ومن ثم تضييقه الوجود الواسع شيئاً فشيئاً .. بحيث لا يعود الآدمي قادراً على الالتفات لغير تلك العادات التي تحصره هو ومن ينقلها عنه أو يشاركه في سجنها .. لأن اعتياد تلك العادات لا يكون إلا مع الاستخفاف بالآخرين واحتقار شأنهم وعدم المبالاة بهم ولا بمتاعبهم ولا بما يصيبهم وتجاهل دورهم في الوجود ، أو مع إساءة الظن وفقدان الثقة بالناس ، أو مع فورة الطمع والجشع والنهم .. هذه الأنانيات التي تحجب عن العين والعقل والقلب تحجب رؤية حقوق الغير ومصالح الآخرين المشروعة ، وهذه الدوافع قد توجد معاً في

ذات الوقت وذات البيئة دون أن تحفل بها البيئة إذا ما كانت الظروف العامة للبيئة مناسبة لحاجاتها ومطالبها لا تشكو ضيقاً ولا تختنق بأزمة.

أما إذا تعرضت البيئة للمعاناة الشاملة من ضيق مستحكم أو من أزمة خانقة ؛ فعندئذ تهيج تلك الدوافع الأنانية وتنتشر في الجماعة وتسرى فيها سريان النار في الهشيم ، فلا تجد في غالبية الناس إلا خائفاً لا يعنيه ولا يهيمه إلا النجاة بنفسه وماله وأهله ، أو غشوماً هجوماً غارقاً في فرص التحطيم والسطو والسلب والنهب ، أو جشعاً تضاعف سعاره بزيادة فرص الاغتنام والإغراق في الجشع مع تزايد عدد الجشعين إلى غير حد وفي جميع المستويات والطبقات!

وأول من يشعر بوقع الضيق والأزمات ، هم عامة الناس وسوادهم الذين ينهكهم هم وأسرههم التعطل وانقطاع الرزق والموارد المحدودة التي يحصلون عليها من أعمالهم وأشغالهم ، وذلك يملؤهم بطبيعة الحال بمشاعر الضيق والظلم والاعتراض والحقده على الحكم والحكام والنظم ، وعلى عموم الأغنياء ومن أثروا وراجوا بفضل الأزمات واستغلالهم لها في الإثراء والمزيد منه ، وينمى لديهم لدى الفقراء والمطحونين والمهمشين ينمى لديهم الاعتقاد بأن الضيق الذي يعانون منه ، وقيمهم ويقعدهم ، لا يزيله ولا يمكن أن يزيله إلا تدمير ذلك كله أياً كانت آثاره وتبعاته .. وعندئذ يبدو أن الناس قد فقدوا استعداد الأدمى للمحبة .. وهذا تصور كاذب وغير صحيح فلا ينتهى ولا ينمحي تماماً الاستعداد للمحبة .. لأن تغير آرائنا وعواطفنا تبعاً لظروفنا وأحوالنا ؛ هو أيضاً ثمرة ما لدينا من استعدادات .. وقد يغطى نشاط استعداد ما على عمل استعداد غيره ، وقد يحجبه ولكنه

لا يمحوه من الوجود .. وقد ينتهى النشاط الذى غطى ، أو يفتر ، ويسمح لغيره من الاستعدادات بالظهور والعمل .. وهو ما يحدث حين يشعر عامة الناس بانتهاء الأزمة وعودة الرخاء ، أو حين يشعرون بأن الأزمة قد اشتدت وشملت الجميع وأذلت بصفة عامة الكبار والأثرياء .. فيبالغون فى الرثاء لهم والعطف عليهم إذا استُجيب للاستعداد الفطرى للمحبة فرحين بظهوره والعمل به .. هذا لأن ترقى الآدمى وتطوره أولاً وأخيراً ، هو ثمرة نجاحه فى تطوير استعداداته القابلة للتطوير ونهاء استعداداته التى كانت تخدمه وتنفعه حال همجيته وتخلفه .. وقد نجح الآدمى فى إخماد الكثير من السلوكيات الفاضحة التى كانت تصادر الأرزاق أو تستجلب الازدراء والاحتقار ، ولم ينجح بعد فى تطوير الكثير من استعداداته الأخرى لغلبة انحيازه لذاته على حساب الآخرين وقلة أو انعدام اكتراثه بغيره ممن لهم حقوق مماثلة لحقوقه ومصالح مكافئة لمصالحه أو أولى منها بالالتفات إليها .

وقد سَوَّغَ للآدمى استمرار الإفحاش فى الأنانية أو إدمانها أنه غالباً قابل للستر والإخفاء عن عيون غالبية الناس ، وقابل للتسوية عند من بيدهم مقاليد الأمور من تملق أنانيتهم وممالاتهم بما يرضيهم . وهكذا تتضافر أنانيات الحاكم وبعض محكوميه ، والمتبوع وبعض تابعيه ، على إخفات صوت الاستعداد لمحبة الغير وإعاقة ارتفاعه والحيلولة دون انتشاره والاستجابة له ، وذلك من أجل منافع خاصة دائمة أو يرجى أن تدوم وهى بالتأكيد لن تدوم ، فلا شئ يدوم .. وهذا سلوك تفشى يقلده أُلوف وأُلوف الأُلوف بلا جدوى تذكر ، وينتهى الأمر حتماً بالجميع إلى أزمات لا ينقطع تواليها ، وأحياناً إلى كوارث لا سبيل لتفاديها !!!

من تراب الطريق

الاستعداد للمحبة

بين الظهور والاختفاء (*)

(٢)

إن تزامم الاستعداد في الكائن الحي ، واقع مشهود .. وهو يخضع خضوعاً يكاد يكون تاماً بحكم العادة والاعتیاد ، ولذلك يجب التفطن لتحكم العادات في الآدمي ، الحسن منها والقبیح .. فالعادات السيئة القبيحة أو الضارة ، يجب مقاومة الاعتیاد عليها والإقلاع عنها ، والالتقاء مع أذواق الجماعة وأخلاقياتها في رفضها لهذه الأنماط السلوكية التي لا ترضيها ، وتكريس الاعتیاد على كل ما هو حسن والتشجيع على الالتزام به وتقليده ومحاكاته .

والاستعداد لمحبة الغير ، وإن كان يبدو الآن محموداً في كل الجماعات الإنسانية ، إلا أنه يقتضي التضحية باستعدادات أخرى أكثر خلطة وأطوع للغرائز الأولية البدائية .. هذه البدائيات بالغة القدم التي صاحبت إيجاد الآدمي على الأرض وكفلت بقاءه دهوراً بالغة الطول في كفاحه الذي لم ينقطع مع بقية زملائه في عالم الأحياء إلى أن استقرت له السيادة الحالية .. هذه السيادة التي ما زالت للآن تعلى في نظره شأن الغلبة والسيطرة والسطوة لنفسه كفرد ولجماعته كجماعة ، برغم ما جرّت وتجّرّ عليه تلك النظرة الغشوم من ويلات لا آخر لها ، ملأت تاريخه القديم والحديث ، وما زالت تغشى حياته للآن مهددة حاضره ومستقبله بأفدح الكوارث والأخطار !

لم تفلح الديانات والأنبياء على ما قدموا ، ولا رؤية الحكماء وأهل الإخلاص والأمانة والعلم على ما بذلوا لم تفلح في إزالة سيادة تلك النظرة التي تسود إلى اليوم نفوس وعقول الأقوياء من الأفراد والجماعات ، وتسود رؤاها وأحلامها وأطماعها تسود كذلك نفوس وعقول الضعفاء من الأفراد والجماعات !

وبرغم تزايد ارتفاع الأصوات بالإشادة بالاشتراكية وطلب المزيد من الحقوق للأيدى العاملة منذ النصف الثانى من القرن قبل الماضى وحتى الآن إلا أن الناس لم تكف فى كل مكان عن نشدان الثراء الشخصى فى الخفاء أو علانية كواقع تبلغه الأقلية أو بوسعها أن تبلغه ، وهو مطلب ملح متسلط على عقول وآمال أغلبية الناس ، ويحوط كل مساعيهم وأحلامهم ويخالط مساعيهم فى كل سوق وكل مجال ، يحذوهم أن الثراء تميز يعطى من يناله تمييزاً خاصاً يستحيل أن يشمل عامة الخلق أو يتهياً ويتيسر بسهولة لسواد الناس . لأن هذا الثراء لا يتحقق إن تحقق ! بمجرد الإفلات من وقع وأضرار الاحتياج والفاقة ، ولا حتى ببلوغ درجة الأوساط المستورين أو الواقفين على أعتاب أول السلم إلى الثراء ، وإنما يتطلع هذا الثراء الذى يتطلع إليه طلابه إلى مرتبة أعلى وأقوى فى نظر الجماعة . تتمتع بإجلال الناس تبعاً لإجلالهم للثراء وإيمانهم بتسلط المال وسلطانه وتصدر المال جدول القيم !! والآدمى الذى تمتلئ صفحة وجدانه بهذه الاقتناعات ، ويصل فيها إلى هذه المرحلة المبعدة فى إجلال الثراء والأثرياء بعيداً عليه أن يتخلى عن اقتناعاته أو عن الأسباب التى أوصلته إليها وعن نتائج وتوابع الوصول إليها ، مهما علا فى ضميره صوت المحبة للغير ، اللهم إلا أن يكون ولياً أو قديساً يخرج عن بحر العاديين ، ومع ذلك فإن غاية ما يبلغه أن يكثر من

أعمال البر أو الخير أو النفع العام ، دون أن يهبط بمستوى معيشتة أو يقلل ذلك من عنايته بهاله وتنميته له وفق الوسائل والأساليب المألوفة في محيطه ولدى أمثاله .

لم تنجح الشيوعية ، أو الاشتراكية المتطرفة ، خلال تسيدها لأكثر من نصف قرن على شعوب كبيرة وبلاد واسعة لم تنجح في إزالة سلطان المال وإزاحته عن عرشه الذى استقر فيه آلاف السنين .. سواء في جوهر الأنظمة أو في أذهان البشر وأرواحهم .. كما لم تنجح في إلغاء السلطات والمزايا والفروق .. الهائلة التى في ظلها حكم الحكام الشيوعيون أو الاشتراكيون شعوبهم . ذلك لأن مواهب البشر العامة وإن أمكن إخفاؤها أو تجاوزها لوقت ما ، قصير أو طويل ، خلال التريد والترويج والتوكيد للمذهب وفلسفته ونظرياته في المبادئ ، إلا أن ذلك لم ينجح ولا يمكن أن ينجح في طمس هذا الواقع ، ولا في علاج المتاعب الناجمة عن الفروق .. لأن الشعارات والوعود لا تلبث أن تسقط عند دخولها حيز التجربة والتطبيق !! إن التبسيط الفكرى الذى لم يعركه الزمن والتطبيق ، يتجاهل تجاهلاً شديداً ربهادون أن يفطن معالم السلوك العادى لدى آدميين أفراداً وجماعات .. وهو سلوك بطيء التطور ، وليد ماض طويل بالغ الطول ، تركت كل حقبة مرت تركت بصماتها عليه واكتسبت بنبضها في تكوينه وتكوين ما انتقل منه عبر الأجيال الماضية وإلى الأجيال الحاضرة ، ومن غير المأمون تغيير ذلك كله دفعة واحدة أو على دفعات متقاربة من آدميين محدودى العمر والعدد والخبرة .. ومهما كان حظهم من الذكاء والفهم والبصيرة والاستقامة والأمانة ، ربما لأن ذات هذه المواهب والقدرات المتميزة هى الدافع الملحّ لتمييز أصحابها وإن اضطرتهم المبادئ المعلنة إلى مواراته في الخفاء !!!

من تـراب (٥٥٥) بين الظهور والاختفاء (*) الطريق (٣)

نعود فنقول إن في أعماق الآدمى استعداداً فطرياً للمحبة ، لكنه ليس الاستعداد الوحيد ولا الأقوى ولا الغالب في أغلب الأوقات وليس من المأمول أن يصبح كذلك في المستقبل ، وإنما نأمل أن يفتن البشر إلى قيمته وقيمة الاعتياد عليه في جعل حياتهم أكثر هدوءاً واستقراراً وتعاوناً وسلاسة وبعداً عن المخاطر أو المعاطب مما هي عليه الآن ومما تتعرض له في المستقبل الذى قد يكون قريباً إذا استمر إغفال البشر لهذا الاستعداد الإنسانى .

إن هذا الاستعداد للمحبة ليس وسيلة للدفاع عن حياة الفرد أو الجماعة ، وإنما هو طريق أكيد لضمان السلام بين البشر ، ولإتاحة فرص التفاهم وتبادل الخدمات والمعونات ، ولجمع وتضافر المعارف والتجارب ولإسراع خطى التطور والتقدم وعلى نحو غير مسبوق ، ولتمكين الجميع بغير تفريق بين الغنى والفقير والقوى والضعيف من الإحساس بالثقة والأمان الشاملين ، ونسيان الخوف والقلق والحيرة وانعدام النصرة والإنصاف ، وزوال خطة النظام العاجز في التوزيع المغرض والعدالة غير المتبصرة .

لقد عرف الأقدمون ذلك الاستعداد الفطرى للمحبة وقدموه ونسبوه اعتقاداً إلى السماء على أنه الدواء الإلهى الذى يداوى المجتمعات حين تستحكم فيها الشرور ويعجز البشر عن إصلاحها ، فتوفد السماء نبياً أو

رسولاً أو قديساً يجمع أشتات الناس مرة أخرى مع الالتفات لصوت ذلك الاستعداد وإثاره وتفضيله فيتغلبون بذلك على الشرور التي نكبتهم ويستعيدون مسيرتهم في الحياة السليمة المليئة بالمحبة والمسالمة والثقة والأمان .

قد اعتقد الناس أن ذلك العلاج الإلهي يجيء على دورات كلما استشرى الشر بين الخلق ، وأن كل دورة تسبقها إرهابات وأمارات بمجيء ذلك العلاج تمهد له وتعد الأذهان والقلوب لمجيئه .. وكثيرا ما ظنت جماعة أنها قد أوتيت تلك الإرهابات والامارات وأن الزمن قد دار دورته وجاء أوان وفادة المنقذ المبعوث وانقادت من ثم لمن قدم لها نفسه على أنه هو إياه وهما منه أو خُبثاً .. وساقها ذلك إلى المزيد من الأذى والبلاء والبطش بها وقتل أو أسر جموعها بالحديد والنار !!

وخلط فطنة الآدميين بأحلامهم على ذلك النحو الفاجع ، ليس مستغرباً وهو لا يبطل فطنتهم إلى الاستعداد للمحبة القابع في أعماق كل آدمي لا يكذب إحساسه العميق بأن الاتجاه الفطري إلى خير الكل هو الأصل في الموجودات كلها ، وأن الشر بأنواعه طارئ زائل مهما طال أمده ومهما أخطأ البشر في اختياراتهم وأحكامهم وأفكارهم ومصداقتهم .. ويبدو أن ذلك كان الأساس الذي بنيت عليه الأخلاق العامة والخاصة والتزام الكل بها بغض النظر عن صوابهم وخطئهم في تحديد ما هو خير وما هو شر .. وهو تحديد ينبع مما كان قد توفر لهم من الاستنارة والإحاطة ببيئتهم ودنياهم .. وهذا التأصيل لقربه الشديد من الفطرة وطبيعة الآدمي ، أولى بالتأييد من الأصول المختلفة التي ترد إليها قواعد الأخلاق المتداولة في زماننا ، في الفلسفة وعلوم الاجتماع والنفس . وتلك الأصول ترد إلى أصول أخرى

أسبق بلا آخر ، مبناها تفسير المشاهدات الخارجية في التجارب والسلوك لدى الأفراد والجماعات في مكان ما في زمن ما ملتزم بالموضوعية البحتة التي لا تتجاوز الطبيعة القابلة للملاحظة بالحواس والآلات ، وربما كان في ذلك الاستعداد لمحبة الغير خيط ديني هو الذي صرف تلك الفلسفات والعلوم عن الالتفات الجاد إليه !

ومن أهم ما يعترض ذلك الميل إلى محبة الآخرين والإحسان إليهم عزة النفس التي نشعر بامتيازها على سواها وحقها في الإكبار والترفع عن مستوى الغير أو الأغيار ، مفترضين ذلك التميز أو متوهمين له ، وهذا هو كبر أو تكبر الخاصة والذين يتمسحون بهم طمعاً أو غروراً ، وما يلبس ذلك ويلازمه من ترفع وانحياز للذات لخدمة الأغراض واتخاذ الخدم والأتباع والتعالى على الفقراء والضعفاء حتى من ذوى القرابة أو الجيرة . هذا الداء يكاد يكون متوطناً في ريف بلادنا ، لم تفلح الهجرة لمن هاجر ، ولا الغنى لمن حققه ، في تخفيف غلوائه ، فكان هذا وتراكماته سبباً في إخفاء الاستعداد للمحبة ، هذا الاستعداد الذي تراجع أمام الاستعداد للتكبر والعجب والخيلاء والتيه بالذات والإحساس بعلو القدر والمنزلة والمكانة !!

من تراب الطريق الاستعداد للمحبة بين الظهور والاختفاء (*) (٤)

في القرى والبلدان ، يتحاشد الأقوياء بعضهم لبعض ظهيرا من آلاف السنين ، ولكن تشتت الذين يعملون في حقولها يحول بينهم وبين تجمع يشعرون فيه بقوة تجمعهم وخطورة شغبهم إذا شغبوا في أماكن أعمالهم . هذا وكل من الإذعان والاستكانة ، أو التمرد والشغب ، أماراة على نشاط الاستعداد للمحبة .. فهذا الاستعداد حاضر في النقيضين .. شأنه شأن الاعتزاز بالذات واحتقار الغير .. فهما على تقابلها نابعان من نبع واحد أو إن شئت : من استعداد واحد !

والأدميون هنا وهناك ، وفي كل زمان ، في فقرهم وغناهم وضعفهم وقوتهم قليلا ما ينصتون إلى نداء المحبة والأخوة في داخلهم .. لأنهم جميعا مشغولون بأنفسهم .. وما يظن كل منهم أنه خير لنفسه .. وذلك بلا فطنة ولا روية يمكنان من الالتفات والانتباه إلى ذلك النداء الذي لا ينقطع داخل كل منا ويمكن أن نسمعه ونفهمه لو هدأنا واعتدلنا واعتدنا على مقاومة زحف الخوف أو طوارئه ونداء الطمع والجشع والغرور !

والإنصات إلى هذا النداء نداء المحبة والأخوة ، غاية في ذاته ينشدها ويسعى إليها قليلون في كل عصر ، وأمنية يتمناها أغلب الناس ولكن بلا سعي ولا عزيمة .. والكتب المقدسة ، ومأثورات الديانات ، مليئة

بالنصوص التى تحت الأدميين على التآخى والتساند ومعاونة بعضهم لبعض ، وتحذيرهم من استحالة أن تستقيم لهم الحياة إذا تبادلوا المقت والكراهية والحقد والكبر والحسد والإغفال والاستغفال . ولكن حدّ من تأثير حث الأديان على هذا حدّ منه تركيب المجتمعات البشرية المتعلق بالأعمال والأرزاق ، وهيمنة الأقلية بصورة أو بأخرى على الأكثرية .. وقد حالت وتحول هذه الهيمنة ومنعت من الإفلات من هذا التركيب أو مقاومة هيمنة الأقلية على الأغلبية الأقل قوة وأكثر احتياجاً !

وهذا هو نوع الحياة التى يحياها الأدميون من ماضٍ سحيق عاشوه وطوروه ضمن تطورهم ؛ وتغلغل فى أفرادهم وجماعاتهم .. لا ينفى بمشيئة فرد أو بحركة حزب أو نتيجة قدرة دموية أو بيضاء غير دموية ، ولا بمحاولة إيجاد نظام اجتماعى أو اقتصادى جديد مكان نظام قديم .. ذلك لأن هذا التراكم حصيلة حية جدّاً لتفاعل عادات وخبرات وعقائد وطرق تفكير وأفعال وردود أفعال لدى المحكومين الحاكمين ، ولم تتغير طبيعتها ودوافعها وأغراضها لدى الثائر أو قائد الثورة ، ولا لدى الداعى أو كبير الدعاة ، فلا يوجد ما يحمل هؤلاء وأولاء على إزالة ذلك عاجلاً وفوراً وجبراً خوفاً من أن يسرقه الوقت ، فتراخى المواجهة وتأخر وتضيع فرصة الإصلاح المرتقبة فى وهم أو فى حساب من انتواها ، إن كان قد انتواها حقيقة وفعلاً . ثم تتوالى الأيام ، ويتوالى استتباب الأمر وانصياح الناس ، فيتسرب إلى الفهم قصداً أو بغير قصد أن الانصياح رضا وقبول وموافقة ، وتسهم الشعارات المتداولة فى تكريس هذا الفهم والإيمان به والعيش والمات عليه ، دون الالتفات أو التفطن إلى أن الآلاف والملايين من الأمهات والآباء قد أضناهم التعرض للعنف والقهر والتجريد والتغريب والتخريب .. فيزداد إزاء هذا اليأس

والإحباط يزداد ارتباط الأغلبية المقهورة بالأيام الماضية وأمجادها وأحلامها ومواسمها وأعيادها ، ويزداد الحنين إلى تلك الأيام فينقل الآباء والأمهات ذلك الارتباط الحزين الملىء بالأشواق والذكريات إلى الأبناء والبنات الذين لم ينفع في استخلاصهم للثورة كثرة الشعارات والدعايات والمناهج المبرمجة في المدارس والمعاهد ، ولا المطبوعات والنشرات للتنظيمات الحزبية والإدارية والرقابية في المحيط القديم الذي حاولت الثورة أن تغمره بها للتأثير فيه ؛ فلم يفلح ولم ينجح في إقناع الناس بالثورة والتعلق بها !!!

من تراب الطريق

الاستعداد للمحبة

بين الظهور والاختفاء (*)

(٥)

الثورات بعامة ، انفجارات لكيانات اجتماعية لم تعد مكوناتها قادرة على التحمل والعمل في ظل ظروف جائرة أو فاسدة أو قمعية أو معكوسة أو محبطة ، فعبرت عن رفضها في اندفاعات عشوائية ولا أقصد الانقلابات لا تبالي ولا تحكمها حسابات ولا تنظيمات ولا تحكيمات ، ولا تخضع في مشيرتها لتحكم أحد ، ولا يعرف المشاركون فيها بعضهم ببعض ولا كيفية عمل تلك المكونات التي تشكل في مجموعها بنية الثورة .. ولذلك فإن مسيرة الثورات في عين من يراقبها مكونة من نوبات أو موجات أو دفعات على شيء من العنف .. لكل منها غالباً رجالها .. يظهرون ويتحققون مع ظهورها واختفائها .

والملاحظ أن الثورات بعامة ، لا تنتهي موجاتها ونوباتها ، إلا بخفوتها ووهنها وفراغ الحماسة الدافعة لها ، أو بتحقيق غايتها بتولى دست الحكم واضطلاع القيادة التي تشكل منها بشئون الإدارة ، فتخسر موجات الثورة تاركة هذه القيادة الاضطلاع بالإصلاح المنشود من دافع الأسباب التي ألهمت أو أججت الثورة .

ولا تصل الثورات بعامة إلى غايتها ، إلا بتحقيق الاندماج القوى المكونة منه في تركيبة اجتماعية واقتصادية جديدة تلائم الأغلبية الشعبية واقعاً

وفعلًا .. وأن تحتوى هذه التركيبة وتضم فى داخلها أى تباين فى الأصول أو الأطياف أو الثروات أو المذاهب والآراء .. بحيث يحرص الناس ، أو قل مجمل المجتمع ، على بقاء هذه التركيبة والمحافظة عليها .. مع وجود نظام للحكم يسمح بالاستجابة للمتطلبات العامة الجديدة والتغيرات اللازمة لها والمستندة ابتداءً وانتهاءً إلى إرادة أغلبية الشعب .

ولا ينجح فى إتمام الثورات وتحقيق غايتها ، أن تجمع إلى جوارها القديم المقبوت أو أن تتركه على قدمه ومقته مستظلاً بالقوة والبطش ، فذلك باب مفتوح لصراع ظاهر وخفى يؤدى إلى ارتباكات وصراعات وتحيزات يتعذر إن لم يستحل معها أن تجرى المصالحة والتعايش بين الأطياف المتصارعة التى لم تنجح الثورة أو النظام الذى أسفرت عنه فى احتوائها والتأليف بينها .

إن الوداد أو المحبة أو التعاطف الكامن فى استعداد الأدمى ، والممتد فى فطريته ، هى الغائب الحاضر فى اللحظات القاهرة من الاندفاع والغلواء والتى تمسك بالأدمى فى لحظات غضبه أو انفعاله أو ثورته .. ولا سبيل لذلك إلا مع نضج هذا الاستعداد المبصر والسليم ، فإن أخفق وتعثر ، فشل المجتمع فى كفالة وحدته وتآلفه ، وأسرع به إلى اليأس والتشاؤم ، وإلى تراكم أسباب جديدة للاعتراض والثورة .. وهذا يضعف باستمرار انطلاقة المجتمع أى مجتمع إلى تحقيق ما يليق بمواهبه التى خصّه بها خالقه عز وجل .. ولذلك فقد تغشى أجواء البشر أنواعٌ متعددة من الغيوم والصواعق والعواصف التى هبت وتحمّد ، وتأتى وتذهب ، ويُنسى هبوبها وخمودها أو مجيئها وذهابها ، يُنسى الحماقات التى سببتها أو صاحبها ، والتى مع تكرارها تؤدى بالمستفاد منها إلى نمو وتطور علم الآدميين وفهمهم واتساع رقعة معارفهم ومهاراتهم

ووسائلهم ، وإلى دراية العقل والفهم البشريين بالأسباب والنتائج ، وإلى نمو قدرتهم على تصور المستقبل واحتمالاته واتساعاته ، وإلى رحابة في قدرة العقل والفهم على مقابلة الأيام القادمة ومسايرتها بنجاح وفاعلية .. على قدر ما تسمح به الظروف والمقادير . إذ حياة كل حي محوطة بغيب كثيف لا يعلمه إلاّ علام الغيوب !

من تـراب الطريق

الضمير

(٥٥٨) ومراقبة الداخل (*)

(١)

مع تعاليم الأديان بعامة ، واهتمامها بتنقية الضمير ووضع الإنسان على طريق الهداية بإيقاظه وحفزه ، فإن آباءنا درجوا على توصيتنا بمراقبة أنفسنا حتى لا نضل .. وهى وصية توارثها البشر من مئات السنين حتى الآن .. وهى فى الأغلب الأعم وصية بمراقبة وحكم للنفس على النفس .. تخاطب شعورا مفترضا وجوده لدى كل فرد منا بمسئوليته عما يحدث ويقع منه قبل نفسه إيجابا كان أو سلبا .. أى عما يستوجب الرضا أو يستوجب اللوم والندم . وهذه المسئولية مسئولية فردية على غرار مسئولية الفرد أمام ربه سبحانه وتعالى ، عن ذنوبه وأوزاره ، ومسئوليته قبل الحكم عن إخلاله بالأنظمة والقوانين ، ومسئوليته قبل الغير عن تعهداته وأخطائه أو أخطاء تابعيه ومن هم فى رعايته أو قوامته .. ويبدو أن تلك المراقبة لأنفسنا ، التى تسمى أحيانا بالضمير ، قد نمت بفضل الاعتياد على الشعور بالمسئوليات الفردية سالفة الذكر .. خاصة الشعور بمسئولية الأذى أمام ربه عن ذنوبه وأوزاره أو عن خطايا الظاهرة والباطنة .

وقد صار بين الضمير بهذا المعنى ، وبين الخطيئة ، صار بينهما تلازم من جهة أن الشعور بها بالخطيئة يوقظ الشعور بتأنيب الضمير وإلحاحه على النفس بالملامة والتهديد بالعقاب الإلهى . إذ بدون الشعور بالخطيئة والذنب

لا يمكن أن يتنبه هذا الضمير بتاتا إلى دوره في الرقابة .. فهو مرتبط بالذنب أو الخطيئة خوفاً من وقوعه أو وقوعها ، أو أسفاً على وقوعه أو وقوعها ، وهلعا من عواقب ذلك الوقوع .. وهذان لا يحدثان إلا ممن يولد وينشأ في مجتمع بشرى يشعره بهذا الخوف أو الأسف أو الهلع ، ويلقنه إياه .

وأصل ذلك في المجتمعات البدائية ، إما مكانة الأب ووضاياه ، أو سطوة وسيطرة الزعيم ، أو تأثير الكاهن .. وتعويد الفرد على التزام الطاعة والخوف أو الهلع من التعرض لعقوبة العصيان . ومن هذه النية الساذجة وبفضل ما أودع فيها من استعدادات هائلة ، نمت هذه المراقبة الداخلية وتطورت وانتشرت في واحة الديانات والأخلاق والقيم الإنسانية على هذه الأرض . وهذه المراقبة الداخلية المفترضة لحركات النفس من حيث دوافعها وأغراضها ونواياها وسلوكها وتصرفاتها تتباين قوة وضعفا وتأثيرا وتأثرا وتطورا وتدهورا باختلاف الأصول والبيئات والظروف والأحوال خلال العصور .

والناس ، كسلاً منهم أو استعجالاً واختصاراً أو انحيازاً ومحابة تتجاهل هذه التباينات والاختلافات فيما يتعلق بكل منهم عند حكمه على نفسه فيما بينه وبينها .. كما يتجاهلها الناس بعامه في حكمهم على خُلُق الآخرين الذى يبنونه فى الغالب على نظرتهم غير المتأنية إلى سلوك هؤلاء الآخرين ويبتتهم ، الأمر الذى يجعل هذا الحكم فى النهاية أغلبه مجازفة أو اعتباط . وهذا الاعتباط المتداول يجد بطبيعة الحال من يؤيده ومن يعترض عليه ، وقد يجد هذا أو ذاك من يرددونه فى المستقبل ، أو لا يجد فيطويه النسيان ، دون أن يمنع نسيانه من كشف قيمة ما نسيه السابقون وزيف ما كانوا قد أيدوه وأكدوه !

وحكمة الضمير مازالت منذ قرون ، أكثر انتشارًا على الألسنة والأقلام من عبارة مراقبة النفس ومحاسبتها ، وإن كانت هذه العبارة أوضح في الفهم وأقرب إلى التعيين والتحديد من كلمة الضمير التي يتغير معناها مع قصد قائلها أو كاتبها .. فتارة قد يقصد بها السر ، وتارة يقصد بها الأمانة أو الحقيقة أو الصدق ، وطورًا يعنى بها الإخلاص والمطابقة بين باطنه وظاهره ، وأحيانًا بمعنى حريته في إعلان أو إبداء رأيه ، وكثيرًا بمعنى محاسبة نفسه ومراقبتها فيما يفعله ويقول ، وتنصيب الضمير قاضيًا يقره على ما يتجه إليه من الصواب والخير والخلق الحسن ، أو يلومه ويتوعدده ويهدده بسوء العاقبة على باطله وسوء طويته !!

ويبدو أن هذا التداخل والتشابك في تلك المعاني المتضاربة أو المتباعدة ليس إلّا وليد أوليّة شاملة مجملة لها جميعًا في مرحلة سابقة من مراحل التطور التي مرّ بها الوعي آدمي .. سمّاها الناس أولاً باسم مجمل على قدر ما لديهم من الوعي ، ثم عادوا وأطلقوا على كل منها كلمة أو عبارة تميزه ، وانصرف فريق منهم عن استعمال اللفظ المجمل وظلت كثرتهم تستعمله مع غيره . والمهم أن كلمة ضمير وعبارة مراقبة ومحاسبة النفس تشير كل منهما إلى مواقف آدمية قد تختلف وقد تتطابق يقفها الإنسان فيما بينه وبين نفسه .. تؤثر في تقديراته لها ، وقد تؤثر في تقديرات الناس إذا عرفوها فعلاً أو ظناً ، وقد تؤثر في سلوكه وسلوك الآخرين نحوه .

من تراب الطريق

الضمير

ومراقبة الداخل (*) (٥٥٩)

(٢)

مواقف الإنسان بتأثير الضمير أو مراقبة الداخل حصاد استبطانات مبناه
عمل الذاكرة الذى يتيح مراجعة الأدمى للماضى ومقابلته للحاضر وإطلاله
على المستقبل .. وهو فى ذلك يعتمد على ما حصله من خبرات مباشرة وغير
مباشرة ، ومن معارف ومصدقات وعقائد سائدة أو موافقة لأذواقه وفهمه
ولمحيطه .. وهذه هى نفسها الأدوات التى تستخدمها ضمائرنا فى قراراتها
وأحكامها ، كما تجرى بموجبها مراقبتنا ومحاسبتنا لأنفسنا .. فليس الضمير
حينما نفتنح به ليس مصدرًا أوليًا لأحكامه ومصدقاته وعقائده وقيمه ،
وبالمثل مراقبتنا ومحاسبتنا لأنفسنا .. فقواعد هذه المحاسبة والمراقبة ،
وموازينها ، لا نخلقها عند المراقبة والمحاسبة ، وإنما نتخيرها ونستمدّها من
محفوظات ذاكرتنا مع الاجتهادات التى يلون بها كل منا نظرتة إلى حصيلة
ذاكرته وبما يناسب رؤيته لنفسه .

ودون الدخول فى مشكلة وحدة الوعى وتعددّها لا شك أن الأدمى
من طفولته الأولى ، يرى نفسه فى الإحساس بجسده ويشهدها معه فى كل
مراحل عمره فى الحركات والسكنات واليقظة والنوم والصحة والمرض
والجد والهزل والسرور والغم وفى جميع علاقاته بمحيطه .. وهى رؤية أو
مشاهدة أو إحساسات لا تخلو من مراقبة تعقبها ردود أفعال من جانبه .. فلا

غرابية في أن تمتد مراقبة الآدمي ومحاسبته لنفسه إلى صوابه وخطئه وصدقه وكذبه ونفعه وأذاه وخيره وشره خلال وجوده ؛ على وفق ما استقر في عقله بالاعتقاد والممارسة والمعرفة من أصول ومبادئ وقيم .. وهذا هو ما يعبر عنه في كتب الأدب العربي بالوجدان .. وهو معنى قريب من كلمة الضمير .

والاتصال بين الديانات وبين الوجدان مفهوم ؛ لأن الديانات قائمة ابتداءً وأخيراً على افتراض الإيمان التام لدى من يعتنقها بمفاهيم معينة عامة دائمة في كل زمان ومكان ، والتزام معتنقيها بها واتباعها وعدم مخالفتها ما عاشوا باطناً وظاهراً ، وفي الاحتكام لما هو حق وما هو باطل وما هو صواب وما هو خطأ وما هو خير وما هو شر ، ومراقبة ومحاسبة أنفسهم في ذلك كله .. سواء في السر أو في العلن .. لأنه يقوم على هذه المراقبة تسعة أعشار الإيمان بالديانة . وعن هذا وبعده يتفق التلاقى بين الوجدان وبين ما يعرف بالحريات الشخصية للآدمي في هذا البعد.. خاصة حرية الفكر والرأى والاعتقاد .. وهذه ليس لها خضوع لجهة عليا سامية يجب أن يذعن لمشيئتها عقل الآدمي ووعيه . والتسليم بتلك الحريات ليس إيماناً وليس أبدياً ، وإنما هو امتثال أو اعتقاد حضارى سائد بين أغلبية الناس في الأمم المتحضرة .. ويبقى وقد لا يبقى خلال التطور أو التغير المستقبل لخبرات ومعارف وأفكار الجماعات المتطورة أو المتدهورة . وذلك الاتجاه العلماني سلم به العالم في العصر الحديث ، ولم تعد الديانات تفكر في مقاومته علناً ، لأن الغالبية الغالبة من دول العالم نظمها السياسية والاقتصادية والعلمية والفنية نظم علمانية برغم أن الكثرة الكاثرة من شعوبها تنتمي إلى ديانات معترف بها رسمياً وغير مضطهدة ولا محجور عليها فيها في هذه الدول . ولم

يعد للديانات بعامة سيطرة شاملة أو شبه شاملة على حياة معتنقيها العامة أو الخاصة .. هذا والملاحظ أن الاعتراف العالمى بحقوق الإنسان ومنها حرياته الفردية تكريس لذلك الاتجاه العلمانى الذى صار سائدا فى العالم كله وإن نحى البعض أو بعض الدول إلى إنكاره !

وإذا كان الأدمى ملتزماً بمراعاة قواعد الأخلاق والقيم الإنسانية فى زماننا ، فما هو يا ترى الأساس الفعلى لذلك الالتزام ؟ . أساس ذلك فيما أعتقد هو الدين وحده عند المتدينين جداً ، والدين واحترام النفس عند المتدينين المعتدلين ، واحترام النفس عند غير المتدينين .

وأقصد باحترام النفس الحرص على عدم تعريضها للملامة أو الازدراء أو سوء السيرة والسمعة فى البيئة .. فهل معنى ذلك أنه يأمن سوء السيرة والسمعة فى محيطه من كان لديه من الكرم والأريحية ما يحول بينه وبين الملامة ، أو له من الجاه الكبير المسلم به فى محيطه ما يجعل ازدراءه ومن يزدري به سخيلاً لا يعتد به ، أو له من المكانة والكفاية المشهورتين ما يحجب ويوارى سوء السيرة ويضمن دوام الحاجة إليه والاستعانة به والتعويل على رأيه وحكمه ؟ ! هل يأمن هؤلاء وأولاء سوء السيرة والسمعة فى المحيط إذا ما ترخصوا فى الالتزام بما تعارف عليه المجتمع من قواعد الأخلاق والقيم الإنسانية ؟ !

من تراب الطريق

الضمير

(٥٦٠) ومراقبة الداخل (*)
(٣)

كثيراً ما توجد في المجتمعات حالات الترخص في الالتزام بقواعد الأخلاق والقيم الإنسانية ، وكثيراً ما أتاحت هذه الحالات لأصحابها فرض الترخص في التقيد بهذه القيم وقواعد الأخلاق ، وكثيراً ما قلدهم المقلدون في ضلالتهم مع عجز المقلدين عن امتلاك الجاه أو الأريحية أو الكفاية والمكانة وغير ذلك من المكنات أو القدرات التي تفتح للعاصي أو المخالف باباً من أبواب التسامح والإغضاء عما يفعله والستر عليه . على أنه إذا انفتحت أبواب الستر والإغضاء والتسامح كثر وازداد الداخلون فيها وتكاثروا وزادوها ازدحاماً واتساعاً ، وصار ذلك الإخلال أو الاستهتار أو الإفحاش صار مباحاً أو شبيهاً بالمباح للجميع ، فيتقلص الحياء لدى العامة تقلصه لدى الخاصة ، وتختفى معالم الفضائل عن الأنظار ولا يعود أفراد الشعب يشعرون بالانتباه إلى أمتهم لفقدتهم الإحساس بالالتزام بالمحافظة على مزاياها وخصائصها وأخلاقها وثقة الشعوب والأمم الأخرى فيها ، فضلاً عن فقدانها هي ثقته في نفسها ويقينها في صلابة كيانه ومتانة عنصره وأصالته كما كان في الماضي ليجتاز بها الحاضر ومنه إلى المستقبل المشرف المنشود .. ذلك لأننا مهما بالغنا في الاهتمام والاحتفال بفرديتنا وشئوننا ومصالحنا الخاصة ، يستحيل علينا تجاهل أن فرديتنا تدين بوجودها إلى

جماعة من الجماعات لا العكس .. وهى فردية فى جماعة .. لا توجد إلا داخلها ، ومن يحاول منا مقاومة ذلك ، لا يكون أمامه إلا التشرد والصعلكة .. هذا وكل مسعى يسعاه الفرد له دائما وجهان : وجه يرتد إلى نفسه ومن هم فى حكم نفسه ، ووجه يتجه حتماً ودون أن يشعر إلى آخرين فى الجماعة بنفع أو خدمة ، إلا إذا كان مسعى ضاراً أو شريراً .. فإن مساعيه لا تنفع إلا ظاهراً .. ويعود هذا السعى على صاحبه حتماً بسوء العاقبة .

وكافة ما نعتنقه من المعتقدات والقيم والأخلاق والعلوم والفنون والمهارات موجه أصلاً وأساساً إلى جماعة أو أكثر من الجماعات ، يصحب ذلك نفع فردى معنوى أو مادى للفرد أو الأفراد الذين علموه أو زادوا معرفته أو استعملوه .

فأصول كل ما مع الآدميين من ديانات وعقائد ومعارف ، توجد وواقعها وعواملها وجذورها وبذورها أولاً فى الجماعة ، ثم تنمو لدى فرد أو أفراد لتقدمها للجماعة .. وبذلك يكشف للجماعة عن وجودها ومضامينها بمعرفة أفراد ، ويتولى تأويلها وشرحها أفراد باللغة السائدة فى الجماعة لخدمة الجماعة مصطنعين مصطلحات أو سمات وكليات وجزئيات تتداول الجماعة منها ما يسوغ لديها .

ويبدو أن هذا يكفى لتفسير معقول لوجود ما يُسمى بالضمير وما يُسمى بالوجدان أو ما يُسمى بمراقبة النفس ومحاسبتها ، ووجود ما يحرص الآدميون عليه فى الماضى والحاضر من القيم والأخلاق والمثل والمصدقات والعقائد .

وهذا شئ غير البحوث العلمية المتابعة التى لا تتوقف فى استقصاء كيفية عمل أجهزة الجسم آدمى وخاصة المخ والحواس وما يُسمى بالنفس

والشعور والعاطفة والذاكرة وأنواع الوعي والإدراك .. فهذا شيء آخر لا ريب في نفعه ، ولا محل للاعتراض عليه من أحد .. لأنه سعى جاد للمزيد من المعرفة بما منحه الخالق عز وجل لنا مما لا ننشئه ولا نستطيع أن ننشئه لأنفسنا ، ولكننا نستطيع أن نميه تنمية تمكنا أن نستزيد من فهمه وأن نحسن استعماله .

هذا ويبدو للمتأمل أن مراقبة النفس في الحسن والقبيح والجائز والمحظور هي نوع من الترقى في التمييز ، وخطوة في الترفع درجة عن الجهل والخطأ .. وهي خطوة لا بد منها لتماسك الجماعة وإمكان قيادتها .. لأنها أيسر انتشاراً بين عامة الناس من انتشار المعارف العلمية .

وقد أحس الكل من قديم بتلك المراقبة وبارتباطها بالذنوب والأوزار ، وبضرورة مقاومة النفس لها في جميع المستويات نتيجة الخوف من الضمير السيئ أو النفس الأمارة بالسوء وما يجبران على الآدمي من الآثام والندم والعقوبة والعزلة عن الجماعة .. فهذه المراقبة وسيلة تربية وانضباط لأفراد الجماعة .. بالغ الأوروبيون في التحدث عنها ضمن تفاخرهم بالحرية الفردية وتحديدهم لسلطان الدولة والكنيسة خلال القرون الثلاثة الماضية ! .. وهذه المراقبة الداخلية ، أو الضمير ، هي بوصلة الآدمي في سعيه إلى الحق والكمال والجمال .

من مدارج الآدمي بين النضج تراب (٥٦١) والعاطفة والعقل والخيال (*) الطريق (١)

نعرف من دراسة أحوال القدماء ، أن الآدمي كان يتجاوز القصر ويصبح راشداً ابتداء من قدرته على الإنجاب .. وتلك نظرة أو قراءة بدائية للغة الطبيعة التي احتاطت بإعدادها للتوالد لبقاء النوع .. ومثل هذا التعجيل في افتراض الرشد حدث أيضاً فيما يتعلق بالذكاء .. فقد قالوا إن ذكاء الآدمي يكون في أعلى قوته وهو بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة .. وهي سن قريبة من سن بداية القدرة على الإنجاب .. وهذا وذاك ملحوظ فيهما كما يبدو إعداد الإنسان قبيل الدخول في مرحلة الشباب لمواجهة أخطار تلك المرحلة وما يتلوها من مراحل حياته . وليس ملحوظا فيها محض إعلان كمال نموه وتتمام نضجه ، لأن قدرة الإنجاب وقدرة الذكاء بدايتان فقط لظهور هذين الاستعدادين المهمين في الأغلب الأعم من البشر .. وقد يظهر أولهما مبكراً أو لا يظهر بتاتا ، كما قد يلعب الذكاء في طفولة بعض الموهوبين على نحو خارق للعادة أو على نحو ما قد يحدث في الملكات الأخرى .

هذا وتستعمل كلمة نضج ابتداء في معنى استواء الطعام والفاكهة والنباتات للأكل ، أي تمام صلاحيتها لهذا الغرض الذي تنغياه غالبية الناس . ونضج الآدمي مجاز تشبيه يعنى في الاستعمال اكتمال مدركات وقدرات الإنسان العقلية والعاطفية على حسن التصرف والتعامل في بيئته

طبقاً للمعتاد فيها . وهذا النضج وصف كلى عام تحته عناصر متعددة تتألف فيها الخبرات والاستعدادات والمعارف في عادات وأخلاق مطردة يتميز بها سلوك الناضج عن سلوك غير الناضجين .

وعدم اكتمال النضج يوجد برغم بلوغ السن المقررة اصطلاحاً للرشد في التعلق الشديد خلقة أو تكلفاً بالعموميات والميل إلى رد الواقع والمواقف والمشاكل المتعلقة بهما إلى فكرة أو أفكار ذات بريق منطقي أو عينة لفظية جذابة تخدع صاحبها كما تخدع سامعيه وقارئييه ، فيعيش ويعيشون في عالم خيالي بعيداً عن العالم الفعلي الذي لا مهرب منه لأى حى .

وهذا العالم الخيالى حين يخالط عقل الآدمى وعواطفه قد يستحكم ويتحكم فيهما خفة الاندفاع في القرارات والاتجاهات والصدقات والعداوات غير المجدية أو الزائفة أو المؤذية عسيرة العلاج أو غير القابلة للإصلاح .. وطبيعى أن يصاحب ذلك الاندفاع ، العناد والمغالاة والتطرف وعدم القدرة على ضبط النفس وعواطفها في الخطير من المواقف ، والمجازفة غير المعتادة لدى الإنسان المحتاط ، التى لا تبالى بالمخاطر أيا كانت وتتجاهل الماضى قريبه وبعيده كأنها صاحبها يولد صبيحة يومه فقط !

وليس غريباً في تاريخ الآدميين ، أن يكون قادتهم مدنيين أو عسكريين في أوقات الفتن والانفلاتات والثورات ، من غير الناضجين عقلياً أو عاطفياً ، وإن كان حظهم من الذكاء والحيلة والمهارة غير عادى .. لأن عامة الناس في تلك الظروف والأوقات تكون قد فارقت ثباتها واستقرارها النفسى وفارقت تمسكها بهما ، وصارت سفينة بلا سكان .. ثم قد يتابع على قيادتها أشخاص من نوع أولئك ولعشرات السنين دون أن يتحقق للجماعة

ثبات واستقراراً جديداً ، وتبقى النظم والضوابط والمؤسسات التي فرضها أولئك الأشخاص خلال سنى تسلطهم ، تبقى معالم هشة ، برغم ضخامتها وجسامتها ما ضاع في سيلها من أرواح وأموال .. فهي لا تنجح في بلوغ أعماق الشعب والامتزاج بمصدقاته ، لأن القائمين عليها حرصوا على توارث ذلك السلطان أحياءً أو بعد الموت بنفس النظم والضوابط والمؤثرات ، ولم يعطوا للناس فرصة للشعور بحريتهم وحقوقهم في قبول أو رفض ما حصل أو ما كان من ذلك . ويدو نضجنا ناقصاً أو غامضاً دون أن نشعر بعملية حصوله ، وقد يشعر بها من حولنا ممن سبق لهم التعرض لها ، وبوادره زيادة في هدوء الحركة مع ميل إلى بعض التردد والشك فيما كنا من قبل نأخذه تسليماً باعتباره من المسلمات التي لا تحتاج بحثاً ولا نقاشاً .. ومع زيادة غير قليلة من الشعور بقيمة ذاتنا وتميزها برغم إحساسنا بمقاومة المحيط ، ومع بعض الترفع عن الصغائر في أعيننا والاجتهاد في الاندماج مع الشباب ومحادثهم في الملبس والمظهر والحديث .. أما عناصر النضج في التفكير والعمل والسلوك في الحياة الخاصة والعامة ، فتأتى متلاحقةً يصحح بعضها بعضاً ويكمله ويوسع ويوقفه ويرقيه تبعاً لاستعدادات وظروف كل منا ومحيطه الذي يعيش فيه خلال اكتساب أو تطور أو تدهور تلك العناصر .. وذلك ما لم يكن أئناً ممتازاً غير عادى البنيان العقل والنفسى يستطيع أن يقاوم تأثيرات المحيط غير السليم ويتنصر عليها .. فدرجة نضج كل منا حصيلة تاريخه وتاريخ محيطه في الأغلب الأعم . فيما عدا أصحاب الآفات والعاهات العقلية والنفسية الذين تحكمهم آفاتهم وعاهاتهم .

ولم توجد حتى الآن اختبارات معتبرة معترف بها لقياس درجة النضج لاختيار الحكام ومثلى الشعب والقادة مدنيين وعسكريين والمديرين والخبراء

وأرباب المهن الحرة ورؤساء العمال ، بينما توجد أنواع من تلك الاختبارات لقياس الذكاء لاختيار طوائف المذكورين في البلاد المتقدمة .. وربما كان وراء ذلك تصور أن تلك الأعمال والمرافق أحوج إلى الذكاء ، وهو تصور مبالغ فيه .. وليس في وجود الذكاء ما في وجود النضج (مع قدر من الذكاء) من الفطنة والاعتدال والأمان .. وهذه صفات تسبق في الأهمية أهمية التركيز على الذكاء في غير قليل من واقع الحياة العامة والخاصة ، فالذكاء اللامع الذي كان ينقصه النضج الكافي والذي لم يتفاد أو يتحاش الاندفاعات والمجازفات والثقة فيما سبق من حُسن الحظ وما تواتر من يُمن الطالع يمكن أن يتردى في المآزق أو المهالك فضلاً عن الفشل والخيبة . ومع تكرار ذلك وفداحة نتائجه مع الناس عامة فإنهم لا يلتفتون إلى الاحتياط لأنفسهم منه لقلة عدد الناضجين وقلة فرص النضج بينهم وعدم خلو الساحة حولهم قط من المتصدرين المجازفين الأذكياء !!

من مدارج الأدمي بين النضج تراب (٥٦٢) والعاطفة والعقل والخيال (*) الطريق (٢)

لا شك أنه فيما يتعلق بالحيل أو المكائد الشائعة في المدينة أن نسبة الانخداع بها لدى أهلها ، أقل بكثير من نسبتها لدى السائحين أو لدى الوافدين من أهل القرى . وهذا لا يزيد في نضج أهل المدينة ولا ينقص من مستوى نضج السائح أو نضج الوافد من قريته .. ذلك لأن هذا جانب فقط من الخبرة المحلية .. وقد يكون أهل القرية أكثر نضجاً من سكان المدينة .. لأنهم أكثر اتصالاً بمحيطهم وأكثر التصاقاً وإحاطة بما يدور فيه ، وأقل اقتناعاً واحتفالاً بالأفكار والنظريات والشعارات من سكان المدينة التي تسود فيها الصلات الضيقة والعزلة الفردية والمعرفة بما يجري فيها عن طريق وسائل الإعلام التي تنقل فقط ما يحدث في المدينة من أحداث وأعمال وعلاقات قلما يشعر بها غير أطرافها ، إلا ما ينشر عنه في الصحف أو بطريق الصدفة من ناقل لا يهتم أحدٌ بالتحقق من صدقه .. ومعارف ساكن المدينة بها أو غيرها في وطنه أو في العالم معارف نظرية في الأعم الأغلب تتصل بالأفكار والحوادث التي يتخيلها الأدمي يوم رؤية الصورة أو قراءة الخبر أو سماعه .. وهى غالباً عرضة للنسيان لا تترك بصماتها طويلاً على الذاكرة ، لا بسبب تواليها وكثرتها ، ولكن بسبب عدم اتصال حواس الأدمي المعين مباشرة بها وبأطرافها ، وفي البلاد المتقدمة يحاول الناس تعويض هذا القصور بكثرة

النوادي والجمعيات والندوات والمؤتمرات والرحلات الجماعية والسياحة طويلة الأجل فضلاً عن توسيع نطاق المراسلات المتنوعة بينهم وبين الأفراد في البلاد الأخرى على غير سابق معرفة ودون أى يرى أحدهم الآخر قط .

ومشكلة النضج ترجع فيما يبدو إلى خطأ قديم في فهم حقيقة معناه الذى يرتبط ارتباطاً وثيقاً بواقع الحياة الاجتماعية والفردية في بيئة معينة .. بدأ هذا الخطأ أولاً من مغالاة القدامى في قيمة القراءة والكتابة حين لم يكن يقدر عليها إلا القليلون واعتبارها أمانة بصيرة يُفَضَّل بها من يعرفها الأمي الذى لا يعرفها .. ثم انتقل الأمر إلى تفاضل أنواع المعلومات الجديرة بالقراءة والكتابة ، ثم إلى تخصص يأخذ المتخصص لسنوات لا يشتغل فيها بغير النوع الجاد في نظره ونظر أهله الذى وقف عليه مستقبل أيامه ، ثم أخيراً ظهر بشكل ملحوظ تخصيص الحياة العاقلة كلها لتحصيل المعارف وتصنيفها ، وهذا قمة النضج المدعى به . بهذا أو بمثله انتقل الناس من متاهة بدائية إلى غيرها مما هو أكثر منها تقيداً وتكلفاً الأمر الذى أبعد التعليم والتعلم كل يوم عن أن يكون مصدراً فعلياً لاكتمال فطنة الأدمى للأسباب والدوافع المشاهدة والمؤثرة فعلاً وواقعاً فيه وفي بيئته ومحيطه العام .. وهذا كان يمكن أن يتحقق لكل إنسان يستطيع أن يتأمل في التفات وانتباه وهدوء وروية لما يجري في نفسه وفي بيئته ومحيطه .. سواء قرأ وكتب أو لم يقرأ ولم يكتب ، بل لعل هذا الإنسان الذى لا يقرأ يكون أقوى ملاحظة وأكثر فهماً وأصح توقعا لأنه أكثر اختلاطاً وتعاملاً مع جمهور الناس في حياته العادية اليومية من العالم أو الباحث أو المفكر أو الفيلسوف أو رجل القضاء أو الجيش المنعزل في حلقة أو مدرسته أو بعمله أو مكتبه أو محكمته أو فرقته ونشاطه الرتيب .

هكذا شاع من قديم قلة الاهتمام بالنضج في المجتمعات البشرية إذا قيس بالدراية والذكاء ، وكان من نتائج هذا الاهتمام المتزايد في كل مجتمع نام أو متطور نشر التعليم والتعلم في المدارس والجامعات والمعاهد التي تعزل التلاميذ والطلاب معظم أوقات نهارهم عن مخالطة الجمهور والامتزاج بالحياة الفعلية التي يعيشها ، وترتب على ذلك أن باتت معالم النضج غير واضحة في معظم المتصدرين للحكم أو الإدارة أو قيادة الجماهير أو تدبير أمور الاقتصاد أو توجيه الصناعة والتجارة والصحة والإسكان والمواصلات والأمن والعدل . لأن أغلب أولئك يختارون ويختارون من خريجي الجامعات والمعاهد العالية .. لا تميز في ذلك بين نشأة الموسر ونشأة المعسر .. لأن هذا يتلطف إلى نسيان حياته الأولى ، فليس لها عنده أياذ أو تجارب أو خبرات أو أخلاق ، ولا ينشد من حياته الحالية إلا الاستمرار في الصعود والثراء والمكانة وتكوين أسرة مرموقة .. وهذا وذاك لا يحرص في تربية أولاده على ضمان نضجهم ، وإنما يحرص على رقي تعليمهم بتعليم طبقته هو أو الطبقة التي صعد هو إليها .

وربما تسأل ما هو المأمول من حاضر ومستقبل الجماعات الحالية متطورة أو نامية ؟ نقول إنه ينبغي عليها أن تجرى من الآن لاهثة لتجد أسرع ما تستطيع مدداً غير قليل من الأفراد الناضجين فعلا لا افتراضا أو تسامعا .. تسلم إليهم أمورها الهامة عاجلها وآجلها لا ليعودوا بها إلى ماضيها المجيد ، فهذا جهود وسخف ، وإنما ليقودوها أساسا إلى الإيمان بقيمة النضج وضرورته في كل أوان للفرد والجماعة والأمة والدولة ولبناء النوع الإنساني كله ، وتلقينها الحرص على النضج قبل الطمع في الذكاء والمهارات واستمرار الحرص عليه

كخيط الحياة وعلى تكاثر وتوالد الناضجين المؤمنين به .. لأن هؤلاء وحدهم هم القادرون على النظر بعجد وحكمة إلى عواقب الأمور ، وعلى الحساب الأمين الخالي من الوهم والخداع للخسائر والمكاسب الفعلية والمحتملة ، والذين يستحيل أن يدخلوا بجماعتهم ويأنفسهم في المضاريات والمغامرات وتحديات الخطر جرياً وراء الأطماع والخيالات والأمانى والأبجاد الزائفة غير الباقية .

من تـرـاب (٥٦٣) والعاطفة والعقل والخيال (*) الطريق (٣)

قد تعتمد حسابات الأرباح والخسائر الناجمة عن تراجع أو خفوت النضج على أن العيش في ظل الأنظمة السياسية والإدارية والاقتصادية والتعليمية الراهنة ينضج بسلبياته ، وأن هذه الأنظمة في خطئها وصوابها تجبى حياتها وتطورها إلى الأفضل والأحسن ، وهو ما لا نوافق عليه ، لأن ما تسميه تطوراً أو خطئاً إلى التطور فيه تجاهل عميق لأساس من أسس بقاء الحياة على الأرض ، وهو التفطن للواقع الحاصل فعلاً ومسايرته بما لا يقلت من نظرنا وحسابنا الأمين دلائله واتجاهاته الواضحة لكل عين لا يغمضها الاعتياد أو عدم المبالاة .. وهو هو ما نعينه هنا بكلمة النضج التي لا تعنى أكثر من الالتفات إلى اتجاهات هذا الواقع في تطوره عبر الزمان والمكان وعدم الانصراف عنه إلى الأوهام والأحلام والاندفاعات والمجازفات التي تصوغ ذلك وتزينه بالبريق أو الرنين الخالي للفروض والنظريات .. فالأدمى ليس سيد واقعه ، ولم يكن كذلك قط ، ويستحيل أن يكون كذلك .. وإنما هو تابع ذو عقل مطلوب منه أن ينضج عقله ليحسن أن يتعرف على واقعه ما أمكنه ذلك بالتفطن والروية والتحول المحسوب على أساسهما ، وهذا هو جوهر النضج .. لأن إغفال الاهتمام بالنضج قبل الاهتمام بالذكاء والمهارات في اختيار الحكام والمديرين والموجهين والمراقبين مع تعقد أنظمة

الحكم التى يسيطر عليها هؤلاء ، وتشابك المصالح الخاضعة لهذه الأنظمة ، نتيجة تدخل وتغلغل الدولة وتوابعها فى معظم مقومات حياة الأفراد الذين تضاعف عددهم مرات عما كان فى كل مجتمع .. كل ذلك قد غير تغييراً أساسياً التركيب العام للجماعة ، فشمّل جمهورها الذى بات مسموع الصوت فى التغيير والتعديل ، وأدى إلى قدر من السيطرة السطحية والخفة فيه تطاول وغرور وعمق وقلق وسرعة ملل ترحب باستمرار بتغيير الوجوه والأحوال ، وترحب بجديد لا تلبث أن تنبذه وتستعجل استبعاده ، وهى لا يعوزها المغامرون والماكرون الذين يهيئون ما يرغب فيه الجمهور ليصلوا به إلى أغراضهم . وفى ذلك الضباب الكثيف الملازم الذى يتزايد مع الأيام والليالى تشوشه صور كل الأمور وصور كل الناس ومعالم المجتمع والحياة العامة والخاصة التى لم يعد يوجد فيها ثقة أو ثبات أو أمان أو إيمان بشيء ذى قيمة ليس فيها ريبة أو شك !

ولا يمكن أن يوجد نضج حقيقى إلا إذا كان متعدد جوانب التجربة والخبرة والرشد .. وهذا لا يتأتى بالقراءة وإطالة النظر والتأمل فى الانكباب فى مكتبة أو مختبر على أوراق ومواد وأدوات ، ولكن يتأتى باتساع وتوسيع فرص الاتصال الفعلى المنفتح على البنية الكبيرة التى يكبر الأدمى فى ظلها وبين أهلها .. يتعلم منها عملاً واحتكاكاً بوعى وبغير وعى ما تحبه وما تكرهه من كل ما يمضى أو يحدث أو يعرض أو يقترح أو يفكر فيه ، ويعرف متى ترضى وبأى شيء ترضى ، وما ترفض ولأى شيء ترفض .. ويعرف ما يعتبر لديها قويا سليما ، وما يعتبر لديها معوجاً معلولاً ، وما هو لائق عندها وغير لائق .. ثم يعرف ما الذى يمكن أن تفعله إذا رضيت أو سخطت ، وما الذى تعمله وتصبر عليه ، وما الذى يمكن أن تفعله إذا سخطت أو يئست !!!

فالخلل الملحوظ الآن في جماعاتنا ناجم منذ أمد من انعزال النشء منذ الطفولة عن البيئة الكبيرة حرصاً على تعليمه واستمرار هذا الانعزال سنوات يكون فيها النشء غير مزود إلا بما رآه بغير عناية والتفات أو بسخط مكتوم أو معلن في أسرته ، وبما زودته السنون التي قضاها في المدرسة أو المدن أو المعهد أو الجامعة من بواقى ما تلقاه من المعلمين والأساتذة ، وما تلقفه من زملائه ومعظمه لا يسر وهو حتما يضر .. ولا نقصد من هذا أن نغمت فضل المدارس والمعاهد والجامعات وتقبيح تعليم الصغار منذ الطفولة ، وإنما نقصد فقط إبراز أن الاهتمام الواسع بالتعليم ونشره بين جميع الطبقات والأعمار لإتاحة فرص العمل الأنسب مع الاستئارة للجميع .. رافقها تضيق فرص النضج الفعلي كما يحدث في كل مسعى إنسانى نافع حين يتهاف عليه العموم أو يجبرون على ذلك التهاف . وربما أمكن في وقت قريب الاستفادة من الإمكانيات الهائلة المتقدمة في نقل ونشر المعلومات على أى بعد وأى مكان ، وفي الاستغناء عن حشد الألوف من الصغار والمراهقين والشباب على ذمة التعليم بمستوياته المختلفة أغلب ساعات النهار وأحيانا أغلب ساعات الليل أيضا ، وتمكينهم من التنقل والتحول كالنحل يلتقطونه ويجمعون المعلومات والمعارف العلمية والفنية والخبرات الإنسانية الحية الفعلية بحواسهم مباشرة ، أو ممن كابدها بحواسه ، لا من كتاب ولا ممن تعلمها فقط من كتب أو من معمل أو مختبر . لأن اعتياد المراهق والشاب على الاعتماد على حواسه كلها في التعرف على واقع عالم جماعته ضمانه أكيدة للنضج العقلى والنفسى فيه وفي جماعته .

والمدة التى يستغرقها تمام النضج ، تتفاوت بتفاوت استعدادات الأشخاص واختلاف ظروف كل منهم وبيئاتهم والقيم والمعايير العامة

السائدة في مجتمعاتهم .. وفيهم من يكون نضجه مبكرا ، ومنهم من يتأخر نضجه ، ومعظمهم إذا نضج فإنه ينضج في الأربعينيات .

وكثرة النضج والناضجين في جماعة تتبعها كثرة الاعتدال والمعتدلين .. لأن الاعتدال مبناه الحرص على عدم التفريط في الأصول والموازن الرأبنة في التعامل والتعايش مع الأمل المعقول في تحسينها بالسعى الجاد وهو يختلف عن المبالغة في الاحتياط التي يتسم بها المتشائمون والموسوسون .

هذا مع ملاحظة أن المبتكر أو المخترع برغم ذكائه وموهبته وشهرته ليس هو الذي يدفع بابتكاره أو اختراعه ويعطيه الصورة النافعة عند الناس .. لأن هذا يحتاج إلى نضج واعتدال وخبرة مما لا يوجد إلا عند الناضجين من أرباب الأعمال والأموال الذين يرصدون في هذا السبيل أموالهم وجهودهم وتجاربهم مع أوقاتهم وانشغالهم واهتمامهم به .

وينبغي ألا ننسى ما يعاينه العالم في السنوات الأخيرة بصفة خاصة من شيوع العنف والإرهاب وازدراء الأرواح البريئة . والفتن المسلحة ، والثورات التي لا تنطفئ .. وأن وراء ذلك كله بطلان العناصر غير الناضجة في الجماعات وعجز الناضجين عن السيطرة عليها .

من تراب الطريق الذات (٥٦٤) بين الأنا والآخرين (*) (١)

اعتاد الناس أن يوجهوا سهام نقدهم إلى غيرهم ، وأن يأخذوا على هذا أو ذاك ، عيباً أو آخر من العيوب ، دون أن يعنى اللائم الناقد بالالتفات إلى ما فيه هو من عيوب أو إلى ما إذا كان هذا العيب الذى يأخذه على غيره عالماً به هو نفسه أو غير عالق ، فإذا لم يكن بوسعه إنكار وجوده فيه ، تغياً تخفيفه ما دام يعيبه ، وسوغ لنفسه أنه ليس إلاً ضعفاً بشرياً مشتركاً بين الجميع بدرجة أو بأخرى .. ونحن لا نفطن لذلك إذا فطنا إلاً فى لحظات تأمل قليلة .. فيها يرتد وعينا إلى داخلنا تاركاً وراءه عالمنا الخارجى ومواجهته التى لا نكف عنها فى يقظتنا ونومنا .. فنحن بغير انقطاع ويقصد أو بغير قصد نصوب وعينا إلى الخارج .. وهذا الخارج يشمل فيها يشمل جسمنا وصلاتنا مع الأقربين أو الأبعدين ، وهذا التصويب سلسلة من الأحكام التى نسميها رأينا أو تقديرنا .. نصدرها نحن على كل ما هو غير نفوسنا .. ويدخل فى هذا الغير شكلنا أو صورتنا فى المرآة أو فى الصور الفوتوغرافية .. لأن وعينا لا يمكن أن يتخلى عن الإحساس بالذات ، ولا يتوقف عن أن يُحكّم ذاته فيها حوله من أشخاص وأشياء .. لأن نفوسنا تبحث حولها دائماً عما يرضيها ، ولكنها تقع حتماً وراغمة على جانب أو شيء لا يرضيها .. وهى لا تتخلص من الإنصات لذاتيتها إلا تكلفاً وافتعالاً واجتهاداً وفيما يتحول بعد ذلك إلى عادة أو ما يشبه العادة .. وإذا تم ذلك لأحد فإنه يشعر بغربة الناس

من حوله ، وكثيرا ما يشعر بأن هذه الغرابة نقيصة تكشف عن غرور أو نزق أو قلة نضج .. أى أنه فيما بينه وبين نفسه يرتكب إثم إصدار أحكام شخصية على غيره لا ترضيهم إذا ما عرفوها ، وحتى الآن لا سبيل أمامنا لاستثناء جميع الناس من أحكامنا على الأشخاص وعلى الأشياء التى يمس حكمنا عليها بفطنة أو كرامة أو ذوق أصحابها أو من اختاروها أو قبلوها ، ولذلك لم تنجح قواعد الأخلاق فى أى زمن فى تغيير هذا الجانب من البشر أو السلوك البشرى وقولهم « لا مشاحة فى الأذواق » لا يعالج شيئا .. لأنه يسلم باختلاف أذواق الأفراد وأذواق الجماعات ، ورأى كل منا فى ذوقه أو ذوق جماعته ، ورأيه فى ذوق الآخرين وإن كان يوحى بعدم المشاحة .

وهذه الظاهرة لا تواجه الآدمى فى الأمور التى لا تمس ذاته .. لأن ذاته ليس له أو لها دخل فيها .. وإدخال الذات نفسها فيها لا يكون إلا دفعا لاتهمها الصريح أو الضمنى بالخطأ أو الإهمال أو التحايل أو الغش . فالمعارف والعلوم الموضوعية والرياضية فيما عدا المسابقات التى تعقد لاختيار الممتازين وتحافهم بالجوائز هى من هذا القبيل .. لا مكان فيها لقيمة الذات عند صاحبها أو عند الآخرين .. كذلك عمليات الصناعة الكبرى والبنوك والبورصات وعمليات الاستيراد والتصدير والاستثمار والتوزيع وغيرها من العمليات التى يستلزم تحقيقها على وجهها تأخير مطالب الذات وأهوائها .

لأننا لا يصح أن نسأل ماذا يضير إذا تخلص الآدمى من ذاته كلية ؟ وكيف تبقى الذات ذاتا كما نشعر بها إذا تخلصت كلية من الرغبات والأهواء الخاصة بها أو التى تشتهى تحقيقها ، مثل ما حققه غيرها أو على صورة أخرى

معدلة حسب ذوقها هي .. أعتقد أن تطور الآدمي يشمل حتماً تطور ذاته ، ولا يستتبع إلغائها ، هذا وتطور الجماعات البشرية يقتضى حتماً تطور أفراد منها يساعدون على تطوير الآخرين فيها .. وهذا بداهة لا يتأتى بإلغاء فردية الأفراد وتحويل الفرد إلى آلة انفعالية من الذات الواعية المختارة الراجعة المشتهية . ومهما يكن تحت تصرف الإنسان في مستقبل قريب أو بعيد من أجهزة تضبط أحكامه واختبارات بلا مشقة أو ببساطة ، فإن تلك الأجهزة ستبقى خارج نفسه حتى ولو لم يمكنه الاستغناء عنها لتوفير صورة الحياة التي تشتهيها نفسه لذاتها .. لأنه سيظل حياً آدمياً لا يعيش إلا بين آدميين أحياء يتبادل معهم المحبة والخصومة والقراية والفرقة والصداقة والعداوة والتعاون والتنافر ، حتى لو استبعد أو سُجن أو نُفى . فالآدميون يلدون الأحياء ويوجهونهم ويتفاعلون لمرض المريض وعاهة ذى العاهة ، ولكن لا يصنعون الآدميين ولا يمكنهم صناعتهم .

وتطور استعدادات الآدمي فردياً وجماعياً ، يحدث دون أن يقصد بها يشبه القدوة ، ابتداءً من المحاكاة اللا إرادية أو الإرادية ، كما يحدث قصداً ابتداءً من التلقين والتعليم والنفوذ والسلطان .

من ترب الطريق

الذات

بين الأنا والآخرين (*)

(٢)

تنمو ذات الأدمى مصاحبة لنموه من ساعة مولده ومعها نمو شعوره بحاجاته ومطالبه ورغابه ومعها مطامعه . ومطامعه هي رغباته المتخيلة المرجو تحقيقها رجاء قريباً وبعيداً راجحاً أو غير ذلك .. ونمو هذا الشعور بتلك العناصر هو في نفس الوقت مصدر الشعور بقيمة الذات وأفضليتها الذي يزيد وينفصح مع اتساع الآمال ويضيق مع ضيقها حتى يكاد ينعدم في أحوال القنوط واليأس . ولذلك فإن من يولد في العز والثراء والاهتمام ، يولد معه احتفاؤه بذاته .. لأن المحيط من حوله يشعره من أول لحظة برفعة شأنه على شأن من حوله من الأتباع والقائمين على خدمته ورعايته . وبامتداد حياة هذا المولود المتميز يمتد ويزيد شعوره بنفسه وأهميته وتميزها على غيره حتى على أهله ومن هم في طبقته .. وهذا يبدو لديه طبيعياً لا يحتاج لبرهان من موهبة أو فضيلة أو عقل ونضج وجهد .. لأن كرامته فوق كل اعتبار وفوق كل شيء .. وعكس ذلك معظم من نشأوا في الفاقة الذين تحدد نشأتهم حدود أمانهم في حياتهم بحدود آبائهم وآباء آبائهم ، ولكن قلة من هذا الفريق تولد قلقه متوترة تنظر حولها في كل اتجاه تترقب الخلاص مما تعانيه وترقب المهمين ذوي النعمة ، وتطمع أن يكون لها ما لهم وتحاول ذلك إما بالإسفاف والرذيلة أو الجريمة ، وإما بالاجتهاد والصبر والذكاء والمثابرة ..

وكل من هذين الفريقين فاشلهم وناجحهم ينمى ويضخم دون أن يشعر في البداية ينمى اعتزازه بنفسه واحتقاره المكتوم للآخرين ، فإذا فاز ببعض ما اشتهاه ، قلد ذوى النعمة في سلوكهم الظاهر ، وأعلن شعوره المبالغ فيه بقيمة ذاته بكل حيلة ووسيلة !!

هذه ظواهر عامة في التركيز على الذات ، ذات الفرد وذات الجماعة ، تبدو أكثر قرابة بعالم الحيوان منها بعالم الإنسان العامل المفكر المتأمل الذى تفتن لوجود الكون وميز وقارن بين الكون وبين الآدميين أفراداً وجماعات ، وبين قياس مكان هؤلاء بالأمتار ومضاعفات وأجزاء الأمتار ، ومكان الكون بالسنين الضوئية ومضاعفات وأجزائها ، وبين قياس زمان الآدميين بالساعات ومضاعفات وأجزائها ، وزمان الكون بالعصور والأحقاب ومضاعفات أجزائها ، ولاحظ أن الآدميين هم وأرضهم وعلمهم وجهلهم ذرة في هذا الكون العظيم .. مثل ذلك الإنسان العاقل المفكر المتأمل يجد نفسه قد غاص في بئر من الشعور الغامر بتفاهته وتفاهة جنسه وتفاهة ماضيه وحاضره ومستقبله في هوان وضآلة لا حد لها ولا آخر .. لا يخفف منها إلا تعلقه عقلاً وجسداً وحياةً وموتاً بخالق ذلك الكون العظيم الذى لا يعرف ولا يمكن أن يعرف منه وعنه إلا ما قد تعرف النملة من الطود الهائل والسمكة الحقيرة من المحيط !!

ولذلك حق لشعورنا المشتعل بالقيمة الذاتية بنفسها وبأهميتها وبوجوب تفضيلها على وكل قيمة أخرى أو شيء آخر حق لهذا الشعور السائد أن يتقلص ويضمّر مع نمو نصيبنا من الوعى بالكون وبخالق الكون .. ولكن يبدو أن نمو هذا الوعى الكونى لدينا ظل أبطأ من نمو ذاتنا ومطالبها وعواطفها وأهوائها وقدرة ذاتنا على استدامة توجيه أعيننا إلى الأرض وإلى

ما نحب وما نكره مما تحمله الأرض ، ومع ذلك يبدو أن في مشية آدمي على قدميه وانتصاب قامته شيئاً دائماً يلفت نظره باستمرار إلى السماء وهو في أحضان الأرض . ولعلّ ثمرة ذلك ما نراه الآن من أنشطة الإنسان في الفضاء القريب من الأرض والخدمات التي تؤديها هذه الأنشطة للمقيمين في الأرض فضلاً عن المعلومات الضافية والتفصيلية التي تتلقاها الأرض من المركبات الفضائية التي أطلقت وطافت وتطوف حول بعض الكواكب السيارة كالمريخ والمشتري والزهرة عن قرب شديد لما عاينته ونقلته وما زالت تعاينه وتنقله مباشرة من تركيبة تلك السيارات ومعالمها وأجوائها هي وأقمار منها مما زود ويزود المشتغلين بعلوم الفلك بزاد هائل لا ينقطع يحتاج استيعابه فضلاً عن دراسته إلى أعمار .

نقول لعلّ ما نشهده الآن من ذلك يكون بداية لاتجاه حاسم ينقل الإنسان من انحصاره في ذاته نتيجة انحصاره في الأرض (نشأ وينشأ ويتوالد ويعيش ويموت في أحضانها حتى الآن) إلى انطلاق في الكون بكل عقله وعواطفه واستعداداته ومواهبه وبكل أجناسه وطوائفه وطبقاته وأفراده ليتخلص نهائياً من الحماقة والغرور والكبر الزائف والعناد والتصنع والرياء والكسل والتسلق والاعتنام والقسوة المادية والمعنوية التي يدين باتصاله بها لذلك الانحصار . وعندئذ ينتقل النوع الإنساني بلا رجعة من اتصاله الشديد بعالم الحيوان إلى حياة خالية من المحدودية التي يفرضها عليه الآن الكفاح من أجل البقاء على الجزء الصالح للبقاء في هذه الأرض !!

من تـراب الطريق

الذات

بين الأنا والآخرين (*)

(٣)

من قديم الزمان يوجد قلائل من الآدميين أكثر التفاتا وانتباها واتباعا للساء، أخلصوا لها الحب وفضلوها على الأرض وما في الأرض وما عليها، ورأوا بليان تام أنها أكبر بما لا يقاس وأجل وأطهر وأبقى من الأرض .. ومنهم من عاش زمانه وهو يرى أن مآل الآدميين جميعا إلى الساء ثوبا أو عقابا، وكان ذلك ولا يزال، اعتقادا شديدا الكراهية والنفور والاعتراض على شرور البشر التي ليس لها آخر وإعراضا وفرازا من قذارة الحياة وقبح النوايا وفساد الذمم وسواد القلوب وغلها وقسوتها وتحجرها !!

ولذلك لاذ أولئك القلائل في كل عصر بعضهم ببعض في طوائف صغيرة، يتعاضون في محبة وعفة وصفاء وفقر وخدمة متبادلة وصلاة وابتهاال .. ومن تلك الطوائف الصغيرة كانت بدايات معظم الأديان المعروفة .. منها نشأت طوائف الرهبان وفرق المتصوفة، وانتشرت هذه الطوائف والفرق شرقاً وغرباً لأمد طويل، ثم تقلص ظلها بانتشار تعليم العلم الوضعي ونفوذ الحضارة الحالية المنحازة إليه .

فلم يعد إنسان الأزمنة الراهنة صغيرا كان أو كبيرا لم يعد يشهد وجود صور الإيمان المستغرق والتسليم الكامل للغيب، لا في الأسرة ولا في الجيرة ولا في العمل ولا في السفر والترحال .. برغم ما قد يجري على لسانه من

مصطلحات الدين والتدين ، أو مع ما قد يقوم به من العبادات والطقوس . فكل ما عنده في هذا الباب بات هامشياً لا يعوق طريق حياته ولا يعدل مساراتها ، ولكن قد ييسر ذلك عليه .. وهذه الهامشية كثيرة الوضوح في الأزمات العامة والخاصة ، لأنها سهلة التقليد والمحاكاة للكافة .. فأول ما تخدع هذه الهامشية تخدع صاحبها الذى يعيش بها .. لأنها تزيد ثقة في صحة ما يختاره ويفعله مما لم يتثبت من صحته ، وتزيده اقتناعاً بما يحبه أو يكرهه وبمن يحاييه أو يعاديه . إذ لم يعد اتساع المعارف الوضعية وتعميمها مع كثرة العارفين بمبادئها من كافة الأجناس والطبقات لم يعد يسمح بوجود الكثيرين من شديدى الإخلاص ؛ المؤمنين بالخير والأخوة والمحبة الكاملة الاستعداد للتفانى في نصره الخير وإشاعته بإقناع الحاليين من أهل هذا الزمان إقناعاً مستغرقاً كما كان ذلك جائزاً محتملاً في الماضى البعيد وحملهم بذلك الإقناع وحده ؛ على تغيير أنماط حياتهم المكتظة بآلاف الأشياء والأغراض والمقاصد التى لكل منها موضعه في عواطف الأدمى وعقله وخياله وذاكرته .

ربما كانت المعارف الوضعية قابلة دائماً للمراجعة والتصحيح والحلول الأكثر صحة محل القديم الذى اتضح عدم دقته وزال عنه ما كان لدى القدماء من الثبات العنيد على العقيدة والمبدأ . إذ كان ذلك الثبات يعتبر جزءاً لا يتجزأ من كرامة الرجل واحترامه لنفسه في عين نفسه وعيون من يعرفونه .

وإذا أمعن الإنسان في النضج والفهم ؛ أحس بعمق الحياة بأسرها ؛ وقل احتفاله بالذات ومطالبها ورغابها الخاصة ، بل ذبل شعوره بها وبدأ يرى الوجود الشامل الذى نسميه الكون رؤية أكثر قرباً وإدراكاً وقيمة وجدارة

بالالتفات من الأشياء العديدة التى كانت ذاته تشتغل بها فى شبابه ، والتى صارت مع توالى الأيام والخبرات واتساع الإدراك صارت صغائر وتوافه مثل رمال الشاطئ وحصاه التى ينهمك الضييان فى استخدامها لتشييد ما يصرفون نهارهم فى تشييده من القلاع والحصون التى يمحوها موج البحر ليلاً !!

ومن قديم بين رواقى الإغريق أمثلة على وجود ذلك الإنسان الناضج الفاهم مثل أبيقوراتوس الذى لم يحفل بالذات ولا بمكانها أو بمكانتها فى المجتمع ، ولم يأبه فهمه العميق للحياة والأحياء بما يسميه الآدميون بمقام الذات وكرامتها، حيث لا يمكن أن يكون لها كرامة فعلية إلا بالفهم وبضبط النفس وقمع أهوائها وأطماعها وخاوفها مما لا يتأتى إلا بالفهم لا بالتقليد والمحاكاة .. وهذا لا تنال منه ولا من حرية العقل والروح والمصاحبة له لا تنال منه عبودية أو فقر أو خوف ؛ ولا يزيد فيه مال أو عزة أو أسرة أو مكانة أو سلطان . فكل ما يهول سائر الآدميين من بلاء وكل ما يستخفهم من عافية أو فوز أو كسب يستحيل أن يستأسرهم .. لأنه لا يصل إلى أعمال العقل والروح !!

ويبدو أن ملايين السنين التى مرت على آدمى ؛ مرت كما مرت على غيره من الأحياء فى إطار تكاثرهم وكثرتهم وخضوعهم لنواميس ذلك التكاثر ، وأن تطور آدمى وإن كان أقوى بكثير من تطور غيره بظهور النجباء والعقلاء فيه إلا أنه لم يغادر إطار الكثرة والتكاثر العشوائى إلى إطار الانتقاء العام الذى يجمع جماعات الآدميين المستقين الذين غلبتهم الغالبة نجباء عقلاء روضوا عواطفهم وأحكموا ضبطها ، ففقدت جموحها وشططها وغرورها وقلة اكترائها لسوء العاقبة والمآل !!!

من تراب الطريق

الآدمي بين العناد والأنانية والإيلاف (*) (١)

يبدو لي أن أجهزة الصرف البدنية في جسم آدمي أكثر كفاية وأشد وضوحًا وانتظامًا من أجهزة الصرف الفكرية والعاطفية ؛ وأن الفضلات الفكرية والعاطفية التي لا ينقطع إفرازها ما دمنا أحياء لا نتخلص منها بانتظام وبساطة ووعي .. بل تلقى في بئر الذاكرة تغوص إلى قاعه مع مرور الزمن وتعاقب الأحداث وتقدم السن .. وهذا الترك أو النسيان هو انصراف من وعينا إلى أمور أخرى التفتنا إليها وانشغلنا بها فاعتقدنا أن تلك الفضلات بفعل نسياننا إياها لم يعد لها وجود أو تأثير ، وهذا غير صحيح لأنها وهي ملقاة في بئر الذاكرة تفعل أفعالها التي لا نفطن لها وفي باقى ما تحتويه تلك البئر التي هي في نفس الوقت خزانة أفكار وعواطف كل منا إلى أن يفارق الدنيا .. وكل آدمي قد يشعر بين وقت وآخر بالقلق أو الأسف أو الندم أو الذنب أو الإثم بسبب ما كان منه من قرار أو موقف أو اختيار أو ارتباط أو تصرف أو سلوك أو اتجاه في الماضي .. يرفضه الآن ويتمنى التخلص من نسبته إليه ومحوه من صحيفته إلى غير عودة .. وهذا هو مضمون ما نسميه الغفران أو الخلاص . وهو لا يتم إلا بأن نقوم من قبله بإصلاح ما عساه أن يكون قد أفسده سلوكنا في الماضي في محيطنا ورد ما أخذناه بغير حق وتعويض ما تسببنا فيه من ضرر أو خسارة للغير ، وأحياناً لا يكون هذا ممكناً كله فنكتفى بإصلاح ما أمكننا وبقيا الباقي يشوش علينا داخلنا ونتجه فيه إلى الله تعالى ..

هذا إذا كانت فينا بقية خير دعتنا إليمراجعة النفس والتعامل فيما أحدثت أو جرى بسببها إلى غيرنا وبقية إرادة طيبة تدفعنا إلى تقويم ما اختل من سلوكنا أما ما اختلط فيه الحال فإن بثر الذاكرة يدفع لدينا اللاحق بما ضينا السبىء إلى حاضرنا فيجعله أشد سوءاً وأكثر قسوة وأعتى ظلماً وأثقل يداً ووطأة على من حولنا ومن لا نخاف منه ولا نخشاه إذا صادف واتصل بنا .. عندئذ يمكن للناس أن يقولوا عن اتجاهاتنا وميولنا وعاداتنا ما يمكنهم قوله من أوصاف سلبية نسمعها أو نسمع بها ولا نأبه لها .. لأنها تقى سمعتنا من الضعف في نظرنا .. ونحن في ذلك لا نشعر إلا بانفرادنا وعنادنا بانفرادنا وتباهينا بهذين العناد والانفراد . ولا نرى كم باب أوصدناه من أبواب الأخوة والود والثقة وكم باب فتحناه للشك والريبة والتشاؤم والخوف وعدم الأمان والجبن !!!

ومنذ ملايين السنين ؛ تقسم النوع الأدنى داخل الجماعات البشرية إلى هذين القسمين .. إما قسمًا انفراديًا عنيدًا لا يألف ولا يأتلف من داخله ولا يبالي إلا بنفسه وما تريد وتهوى وتخاف .. وإما أن يكون اجتماعيًا لا يمكن أن يحس أنه حيّ موجود إلا مع آخرين ، يفترض أنهم من نوعه ومثله ، يحبهم ويحبونه ويكرههم ويكرهونه ويساعدتهم حينًا ويخذلهم حينًا آخر ويبادلونه هم أيضًا المساعدة والخذلان ويذكر لهم وعليهم وينسى ؛ كما يذكرون له وعليه وينسون .. كل ذلك بنسب ودرجات شديدة الاختلاف ؛ تعطى لصلات الأفراد بعضهم ببعض طعمًا خاصًا يتميز به كل منهم عن غيره في نظر نفسه ونظر الآخرين وإذا كانت الجماعات منذ وجدت قد قامت على أكتاف هذا القسم الاجتماعي ؛ فإنها لم تخل قط في أى وقت من وجود القسم الانفرادى التام الأنانية والأثرة ، ولم تخل قط من تأثيره الضار والنافع على طبيعة جانب المعقولة الذيل يخلو منه شيء موجود فى الكون .

**من
تراب
الطريق**

**الآدمي بين العناد
والأنانية والإيلاف (*)
(٢)**

ربما كانت الأنانية غير العادية وليدة نقص ما في استعداد الشخص ، لا سبيل لصاحبه إلى تغييره بل ولا إلى تقويمه وتقليل أثره على سلوكه وموقفه من الآخرين ، لكن معظمنا لا يدخل ذلك في أحكامه وتقديراته .. لأننا درجنا من قديم الأزل على الأخذ فقط بالأسباب الإرادية الظاهرة في غالب الأحوال .. وأخذنا بها عشوائى عادة على نحو خال أو يكاد يكون خاليًا من اليقظة والفطنة والعزيمة ، ولذلك فقلما نبني عليها احتياطًا أو موقفًا جادًا بل نكتفى بترديد أحكامنا وتقديراتنا ونكسل عن أن ترتب عليها نتائجها المعقولة ولو فعلنا لتجنبنا الكثير من المشاكل والأزمات والفتن والحروب .. وأغلب هذه البلايا يرجع إلى تركنا الأنانيين والوصوليين يقودون ويكبرون ويتسلطون ويتعاركون ويستخدمونا في تحقيق مطامعهم وتنفيذ مكائدهم بعضهم لبعض ؛ وفي إنفاق الجهود والأموال والأنفس فيما لا طائل وراءه للناس .. بل ويعوقون تطورهم ويفقدونهم الثقة بأنفسهم وعالمهم وديناهم ودينهم . فقد يدفع الفرد ثمن كسله وتفريطه للذين اعتادهما واستطابهما في بداية الأمر ألوانًا لا أول لها ولا آخر من العبث والعريضة والشطط والاستبداد والطغيان ثم أصنافًا من الاستهانة والمهانة بعد الاندحار والانكسار ليحمل من بعد زوال القادة قادة الأنانية والغرور والعناد والفساد يحملون عبء

الخراب والدمار والتماس المعونة والإشفاق من هنا وهناك لاستعادة بعض ما أخذ منا أو إعادة بناء بعض ما هلك أو انهار علينا .

فالجماعات البشرية منذ كانت أدواؤها منها فيها ؛ ونصيب غالب الجماعة في التبعة عنها لدى التأمل يبدو أكبر من حصة المتفردين المستبدين من الرؤساء ومن يتبعهم أو يعيش في ظلهم من العابثين المتصيدين للنفع الذاتى المتظاهرين بالولاء والوفاء لكل من يسود ويحكم مادام لا يبعدهم أو لا يجرهم مما هم فيه .

واشتغال انتباه كل حى في كل لحظة من لحظات حياته الطويلة أو القصيرة بأمر أو أكثر ، ظاهرة كونية أسبق من الظواهر الطبيعية الأخرى المشاهدة في الأحياء من مثل التغذية والنوم وغير ذلك ، وأسبق من ردود الأفعال المنعكسة ومن المواقف الإيجابية أو السلبية المقصودة لدى أى حى . وأكثرنا لم يلتفت ولا يلتفت إلى تلك الظاهرة الكونية التى يشترك فيها الآدميون مع بقية عالم الأحياء . وأنها مفتاح فهم تصرفات الآدميين واختياراتهم أينما كانوا أو وجدوا .. فالعوامل المتجمعة لدى الآدمى في لحظة الانتباه ذات أثر هام جداً في وجود ذلك الانتباه ووجهته أياً كان نوع ذلك الانتباه وصاحبه ومكانه وزمانه . فالنهايات التى تملأ عواطفنا وأذهاننا بقضاياها والتزاماتها وولاءاتها وعداواتها في ماضينا وحاضرنا ومستقبلنا البادى لأعيننا وتوقعاتنا تلك النهايات بدايتها كلها بدأت وما زالت تبدأ من تلك الظاهرة الكونية المصاحبة لنا ولمن سبقونا ومن يأتون بعدنا ، والمشاركة بيننا وبين سائر الأحياء .. ومعرفتنا لها وتفطننا لدورها في حياتنا لا يتقص ولا يغض من قيمة حياتنا وما صاحبها من تطور وتقدم هائلين في كل اتجاه ، وهذه المعرفة

وهذا التفطن يحولان بيننا وبين الشطح في الخيال وتصديق أننا فعلاً بلغنا نهاية ما ينبغي معرفته إذ صارت في متناول أيدينا مفاتيح الدنيا والآخرة .

لقد حرمت علينا الأديان أن نركن لذلك الغرور وتلك الأحلام حين أعلنت أن أى حى لا يمكن أن ينقذه عمله أو عبادته مهما كان أو كانت لأنه حين يلقي الرب يلقاه بلا حيلة أو وسيلة يستند إليها كائن محض محدود .. وإنما يلقي الرب في كفالة رحمة الرب وغفرانه للذين لا حدود لها . ومن ضيق ما معه من إقرار بتمام عجزه وحقارة رجائه لولا رحمة الله تعالى وتفضله سبحانه بالاستجابة إليه ، فكل لحظة انتباه نعينها سبقتها لحظة غفلة بمثابة لحظة يقظة من نوم متقطع ليتصل منه ما ينقطع ويتكرر هذا الانقطاع والاتصال بما لا حد له من المرات صباح مساء طوال حياة كل منا إلى أن يموت .

ومن تلك الترددات التى لا تنقطع تتألف حياتنا الواعية كما تتألف من ترددات التنفس وحركة القلب حياتنا الحيوانية الأصيلة قبل الولادة أو بعدها ؛ ولكن مع اختلاف طول الموجات واختلاف وظائفها .

من تراب الطريق الآدمي بين العناد والأنانية والإيلاف (*) (٣)

يقظتنا سلسلة من نقاط أو مرات الانتباه تحسبها ذاكرتنا قصيرة أو طويلة على حسب موضوعها ، ونحن نظنها متصلة ونجعل من اتصالها حالة مستمرة نسميها يقظة بسبب يقظة وعينا لالتقاط تلك النقاط كل منها على حدة وإغفال ذاكرتنا لما بين كل منها من مسافة وفراغ إلا ما نعتبره هاماً أو طريفاً لتجمع ذاكرتنا بعضه إلى بعض لنستعيده متصلاً مرتبطاً ببعضه ببعض عادة ما لم نتمكن بسبب تخاذلنا أو تحت تأثير تخدير أو جنون .. علماً بأن الذاكرة عند الاستعادة تنعش أو تقوى ذلك الارتباط باتصاله بزمانه ومكانه غالباً .

ونحن دائماً وأبداً نمزج ما نفطن إليه من الظواهر الكونية بفضل ما أوتينا أو بفضل ما أوتى بعض أفرادنا من الاستعدادات والمواهب بما هو لا أول له ولا آخر من التصورات البشرية التي يتصورها البعض وينقلها المجموع تقليداً أو تصديقاً .. وهذه برغم ثبات تطبيقها تتغير مضامينها ومعالمها دون أن يشعر الناس تبعاً لتوالى المراحل والأجيال وحلول أجيال أخرى محلها قد تشبهها ولكنها لا تتطابق معها ، ونمو الجماعات وتطورها وتقدمها أو تأخرها . وهذا المزج شأنه شأن كل الأنشطة البشرية ليس فيه شيء كوني إلا قابليته للنقص وللنمو والازدهار والفناء ، ولكنه لا يكون نقيصة إلا إذا حال بينهم وبين الترقى إلى ما هو أكثر فهما وأصح نظراً وأنفع للمجموع فعلاً

لا ادعاء .. لأنه يكون عندئذ جموداً وعناداً ورفضاً للترقى والتطور يتحول حتماً إلى تخلف وتأخر وعزلة . ويستحيل أن يكون الجمود والبناء والرفض حبساً صالحاً للمحافظة على الفضيلة أو لصيانة الأخلاق .. لأن الفضيلة والأخلاق تفقدان قيمتهما تماماً إذا خلنا من العيش في رعاية العقل الفاهم المتبصر الفطن المنصف ، وتصبحان قيداً ليس له سند حقيقى وقد لا يفيد الكثرة الخاملة الغافلة طويلاً فتكون الطامة .

ونحن عادة نقيس يقظتنا بساعات عدم النوم ، ونقيس نومنا بساعات الإغفاء والسبات .. وهو قياس بدائى حيوانى ؛ وكان يجب أن يقيس الإنسان يقظته بلحظات الانتباه وجدواها .. لأن غفلة غير النائم ليست يقظة إنسان بل يقظة حيوان ، وربما كان هذا أحد مصادر ما يشاهد الآن في الجماعات ما تطور منها وما لم يتطور بعد من شيوع الشذوذ والاندفاع وقلة الاتزان ؛ ومن النزوات والرعونات والحقاقات ؛ ومن أمارات ودلائل العجز وعدم التوافق والتعاون والاتحاد طويل النفس والأمد .. ومن انطباع ذلك كله على مظاهر وعلاقات الأفراد ؛ وعلى سير وطرائق الحياة العامة اجتماعية واقتصادية وسياسية . فهل تستمر هذه الحال وتفاقم إلى أن تتناثر الجماعات الكبيرة الحالية وتتشتت وتنتهى بابتعاد أجزائها وطوائفها بعضها من بعض ؛ ويعود الآدميون إلى طور الأسر والقبائل .. وهو ما لا يمكن أن يتم إلا يتوالى وتتابع الفتن الداخلية والحروب الخارجية المدمرة التى تجعل إعادة الجماعات الكبيرة غير ممكنة نتيجة نسيان البشر تاريخهم وتراثهم وانقطاع ظهور الزعماء والقادة الطموحين إلى السيادة والقوة والعمران !!!

من تراب الطريق

نحن والحبو في الكون (*) (١)

فرحة الصغار بالحياة الجديدة ذات طابع كونى .. لا تستند إلى ماضٍ أو حاضر ، ولا إلى خيال أو عقل ، وتكاد تكون خالية من أى تصور أو توقع يمكن وصفه .. فيها قدر هائل من الترحيب أو الاستبشار غير المسبب بالحياة المبتدأة ، وعدم التفات تام مطلق لغير الترحيب أو الاستبشار مصحوب بعدم اهتمام تام مطلق بكل ما فى تلك المرحلة من ضعف ونقص وقصور ؛ ويجرأة تستبعد كل حساب لما قد يجرى أو يحدث أو يكون . وذلك مهما يكن حال الصغير من جهة بدنه أو من جهة محيطه ، ومهما يذل الكبار لحمايته أو التحوط عليه وتجنبيه المخاطر التى يتعرض لها . ويبدو هذا حاصلًا فى جميع الصغار آدميين ، وغير آدميين ؛ ومنه أنس الكبار برؤية الصغار من جنسهم ومن غير جنسهم !!

وربما كانت هذه الفرحة المصاحبة لبداية حياتنا أصلًا لرأس مالنا من الأفراح .. يبدو غامرًا وافرًا فى أول أمره ؛ ويأخذ فى التناقص والتقلص باطراد حين يقابل الأحداث والأيام فيضطر إلى اصطناع أسباب للبهجة تعينه على حمل عبء واجباته . وهذه كلها أسباب وقتية تنجح أو لا تنجح ؛ لكننا جميعًا نستعين بها ولا نخجل من هذه الاستعانة لتخفيف ما يتراكم فينا وعلينا وفيها حولنا مما نسميه الهموم والمخاوف والمخاطر والأحزان .. وينتهى الأمر بنا إلى أن يكون ما نتمناه ونخطط له ونرتبه وننفق عليه من

المال الذى أجهد أجسامنا وعقولنا فى كسبه من أشكال وصور الابتهاج والاتباع والاحتفال مجرد اصطلاحات واجتماعيات ومحاولات نحاولها كما حاولها من نحاكيمهم ، ونرجو أن نحافظ بها على المكانة المفترضة وإرضاء الشغف بالمظاهر وأهلها .. وهؤلاء هم أعلانا صوتًا وأكثرنا عددًا .. وقد اعتدنا هذا الأمر حتى صار إغفاله أو الحد منه ولو للضرورة قصورًا إن لم يكن سبةً وعارًا . وهكذا يقتادنا العمر إلى أن نستبدل الافعال والتكلف وقسوة الاعتياد عليهما بذلك القدر الهائل الخالص النقى من المرح والترحيب والاسه . مار غير المسبب بحياتنا فى مطلعها وبداياتها .

نتول إن هذا ثمن النمو فى قوة الجسد والعقل ونشاطهما ؛ ومقابل الخروج المطرد من سيطرة الحيوانية بطيئة التغيير والتطور إلى رحابة ومرونة الإنسانية ، وهى وإن كانت تجذب وتتحمس لتقدم البشر فى العلم والعمل الذى يزداد مع الأيام قوة واتساعًا وسرعة ، فإنها تبتعد ابتعادًا متزايدًا عن الالتفات والاهتمام بالظواهر الكونية العاملة فى أجسادهم وعقولهم ، وقد ننسى أن هذا التقدم الرائع فى خطر شديد . من رؤية الأمور كلها والكون كله بعين واحدة بشرية ابتداءً وانتهاءً ، وهى حتى الآن لم تفتح المجال أمامها لرؤية أخرى سواها فى الكون الذى ما زالت هى فى أول الطريق لمحاولة فهمه ومعرفته فهماً ومعرفة بطريقة موضوعية بكيفية ما فى هذا الكون العظيم أو أجزائه بخلاف البشر وأرضهم .. فما زال البشر بعيدين جدًا عن وحدة الفهم والتفاهم وعن التواصل الواعى الأكيد المحقق الوافر الثرى الغنى الذى ينتشر فى كل لحظة فى نعومة ويسر بين البشر وبين الكون .. والفهم الذى تخلص من ملايين الأوهام والأحلام والافتراضات والتخمينات

والشطحات التى عاش البشر ويعيشون عليها حتى الآن فى نطاق رؤيتهم القديمة أو الحديثة الخاصة بأنواع الحول والضباب والعتامة والظلمة . وما زال الكون بعظمته وسننه وأزمته وأحقابه وقواه وطاقاته المذهلة الهائلة لا يزال أبكم أصم بالنسبة لنا جميعًا .. ولا يكاد يرانا لأننا لا نكاد نراه ، ولا يسمعنا لأننا لا نسمعه ، ولا يعترف بوجودنا لأننا فى حياتنا لا نعترف بوجوده . نخشاه من وقت لآخر ثم ننساه ؛ وهو فى نواميسه وظواهره لا يبالى بنا ؛ ولعله ينتظر أن تحف حماقتنا وينفث غرورنا ونعود جميعًا إلى الفطنة لا تتركنا ولا نتركها .

من تـراب الطريق نحن والحبوفي الكون (*) (٢)

الكون ليس قشرة أرض نحرثها أو نبني عليها ، وليس منجم فحم أو حديد نستخرج ما فيه ، وليس طاقة وقود أو ماء أو هواء أو بحار أو كهرباء نوظفها في خدمة أغراضنا ، وليس براحا تمتد عليه أطمانا وقد نحل فيه مشاكلنا . إنها هو وجودنا كله ، بكل ما فيه في كل حركاته وسكناته وكل ما معه مما نسميه خيراً أو شراً . أما أحداث وعينا ولا وعينا من عواطف وميول وآمال وآلام وأحزان وأفراح وقرابات وعداوات وقرارات وأحكام وفروض وظنون ومصداقات ومعتقدات ؛ فظواهر بشرية فقط ، ليس في مقدور أحد رفعها من بشريتها مهما اجتهد أو أصرّ أو احتجّ أو استبدل .. وهي كلها نتاج وثمار شعورنا الذي لم ينقطع قط بوحدتنا على هذه الأرض .. نأثف ونختلف وننصل وننفصل ونحب ونكره ونرضى ونسخط ونصافي ونعادي كل ذلك دائماً داخل جنسنا فحسب .. ومن هذا كان ما عندنا من الاجترار والتكرار والإضافة والحذف والتبديل والتعديل وترك الماضي ثم الرجوع إليه والميل إلى التأمل والتحليل ومزج الواقع بالخيال وولعنا بالعام الكلي الذي يتجاوز حدود واقعنا وخبراتنا وكثرة ما في لغاتنا من المجردات ومشتقاتها التي تعمل في أي غرض وفي التعامل مع ما نسميه المطلق وغير المتناهي والأزلي والأولي .

وتلك الوحدة المحاطة بالغيب الكثيف الشامل التى يشعر بها الإنسان أحياناً عندما يتأمل انحصار الآدمى فى جنسه ونوعه ، هذا الانحصار ربما كان له أصل عميق الجذور ؛ هو استحالة تناسله تناسلاً ناجحاً مع أى جنس أو نوع آخر ؛ وهى استحالة تكاد تكون عامة .. وهذا أصل طبيعى كونى لم يقو الآدميون على اختراقه أو الاحتيال عليه ، لا بالنسبة لجنسهم ولا بالنسبة لما بين الأجناس الأخرى بعضها وبعض فى محاولاتهم من قديم وللآن لتجربة تحقيق تصوراتهم وفروضهم بشأنها. ويبدو أن هذا الارتباط الأساسى بوحدة الجنس والنوع هو الذى حدد جميع أنشطة الحى مادياً ومعنوياً .. فهل فى المقدور من طريق التقدم الهائل فى المعارف والمهارات والأجهزة والأدوات ، أن يمتد النشاط الفكرى والفعلى للآدمى بحيث يتفاهم ويتبادل الأفكار والمعلومات والخبرات التى تتجاوز حدود آدميته مع كائنات فى أجزاء أخرى من الكون ؛ متخطياً عقبة الارتباط الضرورى بوحدة الجنس والنوع ؟ وهل يحتاج اجتهد الإنسان فى ذلك المجال الكونى إلى أن يقابله اجتهد مثله أو أقوى وأوسع إمكانات وحدوداً من الجانب الآخر ؟ لا نقول إن هذا يستحيل .. لأن شيئاً يبدو قريباً منه قد حدث فى وقوف الإنسان على معرفة واسعة دقيقة أو تكاد ، واستخدم هذه المعرفة فيما يتعلق بمخ الثدييات ومنها الإنسان .. وقد سلخ الإنسان فى ذلك عشرات السنين فى موضوع ينصب على السلوك والوظائف والأفعال وردود الأفعال لملايين الملايين من الخلايا والوصلات والناقلات والمؤثرات والمنبهات فى المخ الواحد الذى تبلغ خلاياه المليون مليون ، وتبلغ وصلاته مائتى ألف مرة عدد سكان الأرض . ومثل هذا حققه الإنسان فى معرفته واستخدامه

لعالم الذرة والطاقة الذرية .. وهو فيما يبدو كون بأسره يتغلغل في الكون العظيم الذى نعيش على جزئية ضئيلة من جزئياته .. ويقابله في شدة وكثرة خفائاه وأسراره وإمكاناته الهائلة التى لم تخطر من قبل على بال البشر في هذين النوعين من المعرفة شديدة العمق والاتساع ..

لقد تجاوز الإنسان حدود تاريخه وخطاً إلى خارج جنسه ونوعه في طريق يزيد كثيراً في بعده عنها دون أن يفطن ويستعد . وذلك الخروج الخطير غير المسبوق ليس من عمل ولا أمل الآدمى الفرد العادى الذى تتألف من غالبية الجماعات الآدمية لتحى حياتها العادية على الطريق المعتاد المطروق المنظور المفتوح أمامها الذى يناسب طموحها وتسمح به ظروف الزمان والمكان . فليس في استطاعة غالبية تلك الجماعات أفراداً ومجتمعين أن يتصوروا ذلك الخروج وأن يسعوا إلى المغامرات والمجازفات والمخاطر التى تتخلله وتصحبه ، وإنما هو من عمل وأمل وطموح جماعات المتعلمين الوضعيين الذين بدأوا تجييش جموعهم من أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر في أوروبا ؛ وازداد عددهم وما تطور من إنتاجهم باستمرار حتى بلغوا منافسة الألوف أو أكثر ؛ وتشعب في العالم كله اجتهادهم المشترك المتعاون المتضافر الدائب المنكب على البحث والتحقيق والتدقيق وتصفية المعرفة الوضعية وتحقيقتها وتعريفها للخبرات والتجارب وإعادتها وتكرارها بين وقت وآخر في يومنا هذا حتى بدايات القرن الواحد والعشرين .

من تراب الطريق (٥٧٢) (٣) نحن والحبّوفي الكون! (*)

لقد حقق ما تقدم تلك الوثبة الهائلة الحالية التي وثبتها معرفتنا الوضعية بالكون الأصغر والكون الأكبر معاً هذه الوثبة التي أتاحت للآدميين استخدام تلك المعرفة فيما لا نهاية له من المنافع الحاصلة والمتوقعة ، وتلك الوثبة ليست من صنع أفراد بعينهم ولا من صنع جماعات معينة ؛ وإنما نتيجة جهود مستمرة لمجاميع من المتخصصين تتبادل المعلومات والأبحاث والنتائج خلال القرنين الأخيرين .. ونحن نظن أنها بداية لشيء كوني جليل في طريقه إلى استكمال ظهوره ونموّه لتحديد اختلاف مفاهيمنا وتصوراتنا باختلاف الجماعات والأفراد .. هذا الاختلاف المبني على تباين الأفكار العامة والمصداقات والخضوع لنفوذها .. أى أننا لسنا فقط في الطريق إلى المزيد مما لم يخطر لنا من قبل على بال من استخدامات القوى والطاقات التي بدأنا في التعرف عليها فعلاً والتي نحن في سبيل التعرف عليها ؛ بل نحن في طريقنا دون أن نشعر إلى تغيير شامل يكاد يعم كل جانب من جوانب الحياة المعروفة لنا الآن لأنه يغير جميع الأسس التي يبنى عليها تفكير البشر العاديين حتى الآن كأفراد وجماعات ، ويفتح أمامهم الباب على مصراعيه على الكون العظيم ليرتموا في أحضانه بكلياتهم دون تحفظ .. وعندئذ لن يأسى أحد على فوات أوضاعنا الحالية أو السابقة ، ولن يذكر فواتها إلا كتاريخ قديم انقضى وانقضى معه نتائج قصوره وحقايقه ونواقصه ؛ وغبابة استسلام أهله

لعواطفهم وغرائزهم وخيالهم وأوهامهم ومخاوفهم .. وربما تنظر الأجيال القادمة إذا كتب لها أن تجيء في أمن وسلام تنظر بإشفاق على مقدار ما عشنا به وفيه نحن ومن سبقونا من التخلف والغباء والعناد بل والشقاء .

وإلى وقت قريب كنا نرى هذا ومثله أحلامًا وإسرافًا في التصور قد يرضى خيالنا ، لكننا اليوم نشاهد ونردد إرهابيات هذا كواقع تراه العين ويحسب حسابه العقل ، ولكن بداياته التي أخذت تتوالى وتتكاثر قوية غنية . ونحن نستقبلها بشيء غير قليل من الخوف والتوجس .. ربما لأنها غريبة جدًا وقوية بل فائقة جدًا على كل ما يمكننا توقعه . فلم نمتص بعد سعة القفزة الهائلة ولن نمتصها إلا بعد أمد .. لأن الآدمي العادي الذى يبلغ تعداده بلايين البشر ؛ لم يخالط مخالطة جادة أهل المعرفة الوضعية الذين يبلغون مئات الألوف فى العالم وهم يكتشفون ويبحثون ويطورون ويتعمقون فى كل اتجاه لا يتركون شيئًا يمكن أن تصل إليه تجاربهم وأجهزتهم دائمة التحسين والتطوير ، ولكن لا يحكمون ولا يلون دست الحكم .. ولغتهم أو لغاتهم العلمية المتداولة بينهم تزداد يوماً بعد يوم تركيباً وتعقيداً وعسراً وصعوبة على فهم الآدمي العادي الذى بات فى غربة بل عزلة تكاد تكون تامة عن هذا العالم الضخم من المعارف والحقائق والحسابات والاحتمالات والنظريات التى مبناها المراقبات والمشاهدات والتجارب التى لا تنقطع ولا تهدأ .. فكتلة الآدميين وجدت نفسها على نحو مفاجئ حاليًا وفى كل مكان تائهة تمامًا كالنائم الذى يحلم أحلامًا مليئة بالعجائب والغرائب والمخاوف والمفاجآت والانفلاتات والانفعالات . وربما كان ذلك راجعاً أيضاً إلى أن المعرفة الوضعية تكاد تخلو من الأفكار والخواطر العامة الإنسانية التى تقبل الامتصاص والشيوع بين العاديين من الناس .. إذ تجتذب إليها النفوس

والقلوب عادة .. وربما يبقى إلى وقت قد يطول نوع من الغربة بين المعرفة الوضعية التى نتحدث عنها وبين عواطف الناس بصفة عامة ، ولكن عمر هذه المقولة إذا ظل العلم الوضعى فى نموه وتقدمه سيكون أقصر بغير حد من الدهور التى اعتدنا فيها على الاحتكام إليها فى الجليل وغير الجليل من عواطفنا وغرائزنا وسوابقنا .

وإذا كان أهل المعرفة الوضعية على كثرتهم وأهميتهم ولزومهم للحضارة الحالية لم ينجحوا نجاحاً كافياً فى اجتذاب قلوب وخيال غالبية البشر إليهم بما قدموا ويقدمون كل يوم من غزير العلم بأصولها وفروعها فى شتى أغراضها وموضوعاتها على نحو لم يسبق له من قبل مثيل .. فإنهم دون أن يشعروا أو يشعر غالب الناس ، قد تغلغلوا باجتهادهم وانكبابهم ومثابرتهم فى أعماق إنسان هذا الزمان من طريق ما ترتب على عملهم وعلمهم ومعرفتهم من المعلومات والآلات والأجهزة والمواد والمركبات والطاقات ووسائل الاتصال والتسجيل والتصوير والنقل والانتقال والحركة والحساب والإحصاء والإضاءة الظاهرة والخفية ، ومن تطوير الصناعة والزراعة والرى والصرف والبناء والهدم والاقتصاد والتجارة والطب والهندسة ، ومن رؤية ما لا تراه عين وسماع ما لا تسمعه الأذن واقتحام ما تحجبه الحوائط وما تعترضه الصخور فى السلم والحرب . فلم يعد إنسان انزمن الحالى يستطيع أن يعيش حياته خاصة أو عامة بغير ما تهيئه له بوجه أو آخر المعرفة الوضعية ، اللهم إلا إذا كان من البدو فى أعماق البادية أو من العراة الهمج فى الغابات الاستوائية !

وهذا التغلغل المرتكز على مطالب الحياة الفردية والاجتماعية ليس من السهل وقفه فضلاً عن اقتلعه . إذ لا يحول دون استمراره وانتشاره وتشعبه

نثرًا أو شعرًا أو مهادنة أو مخاصمة أو حشد وفود أو جمع مؤتمرات أو ضم
صفوفه وتصنيف كتب وبحوث ومقالات أو إنفاق أموال وإزهاق أرواح
وتبديد جهود وآمال وأحلام وأعمار . في محاولة إطالة عصر انتهى من زمن
ومضى دون أن يشعر أغلب الآدميين بانقضائه لبقائه حاضراً في خيالهم !!!

من تراب (٥٧١) ماضيه وحاضره ومستقبله (*) الطريق (١)

هذه أسئلة تطرح نفسها على الإنسان حين يتعود التفكير والتأمل في إطار العقل والفكر وحدهما وليس في إطار العقائد والإيمان : هل الإكثار والتكاثر والتوالد والتناسل وما يقابلها من التقلص والذبول والفناء في عالم الأحياء من الحيوان والنبات بما فيه من الآدميين كان دائماً على هذا النحو الذى نشاهده الآن من بداية الحياة على هذه الأرض بهذه الغزارة والتكرار والإعادة ومع فروق في التفاصيل والجزئيات غير قابلة للحصر ؟ وهل اختفاء بعض ما نسميه بالأجناس والأنواع وانقراضه شئ طبيعى يجرى حسب نواميس الكون بلا حركة مخالفة لتلك النواميس من جهة تقوى على هذه المخالفة ويتم نتيجة تغيير من التغيرات الطبيعية في أساليب وسلوكيات الحياة ؟ لا يمس اعتمادها الكلى في البقاء على الإكثار والتكاثر والتوالد وتتابع وتلاحق الأجيال لتحقيق البقاء المفروض أنه غرضها الكلى والأساسى ؟ وهل بقاء الأفراد الوقتى تغطى وقتيته كل المقصود المطلوب من وجوده ؛ أم ينتظر من وجوده فائض بعد

زواله ينتفع به الأحياء أو بعضهم في حياتهم ويتركونه أو بعضه للأجيال اللاحقة .. وهل هذا الفائض المتوارث تنتفع به الحياة نفسها في غرض فوق بقائها هو ارتقاؤها وخروجها من الاحتياج للتكرار والإعادة اللذين

لا ينقطعان ؟ وكيف يُفسّر تطوّر حياة الأدميين الهائل فى منطق الإكثار والتكاثر والتوالد ونواميس حرص الحياة على البقاء ؟ وهل تطوّر الأدميين على هذا النحو واستمراره برغم ما يصاحبه من غباء وعثرات وردات هل هو خطوة تحاول الحياة أن تخطوها لإنقاذ نفسها من الآلية والرتابة والتلازم المطرد مع الفناء والعدم ؟ وهل انفتاح المعرفة البشرية الوضعية فى الخمسين سنة الأخيرة من القرن الماضى على الكون العظيم فى عالمى الذرة والفلك نتيجة اتساع طائفة حواس الأدمى إلى ما لا حد له بفضل الأدوات والأجهزة التى أتاحتها له تلك المعرفة هل هو بداية لانطلاق الحياة من الانحصار فى هذه الأرض والآلية والرتابة المشار إليها ؟ وهل هذا الهدف العالى السامى كان يلوح بصور مختلفة فى خلد الإنسان من قديم ويحاول تحقيقه بالالتجاء إلى أعماقه بكلياته وجزئياته فيما يعرف بالإيمان العميق وبالوحي وبالإلهام ويتحرى أقصى ما يمكنه من الإيثار والطهارة الداخلية وازدراء المغامرات التى يتهاف عليها البشر عادة ؟!

هذه الأسئلة أجابت عليها من قديم، الأديان المعروفة إجابات فى عمومها متقاربة بأن إنسانية الأدمى خلقها خالقها متميزة بخصوصية عن غيرها من مخلوقاته حتى الملائكة بالمعرفة والعلم .. تجمع بين حياتين إحداهما على هذه الأرض وهى حياة عاملة ناصبة فانية . والأخرى حياة باقية فى عالم باقٍ فيه ثواب وعقاب عاجلان بلا إمهال أو إرجاء . وهذه إجابات وحي لا مجال لمناقشتها أو الاعتراض عليها هنا أو منا .. ولكننا نلفت النظر إلى أنها إجابات ترفع مكانة الأدمى على الجميع وتكاد تجعله تالياً دانياً من خالقه ومعرضاً للمحاسبة الشاملة والمعاقبة البالغة الشدة بمراعاة أن الدنيا هى هذه الأرض وأن الأدمى خليفة عليها محظور عليه الفساد والإفساد فيها .. ويبدو أن

العلاقة بين الدين والدنيا في نظر الآدمي وبين دنياه وآخره وبين الخالق عز وجل والآدميين المخلوقين علاقة مرنة غير جامدة متطورة باستمرار مع تطوّر الآدمي خلال وجوده على هذه الأرض ؛ أى تطوّر عقله وروحه التى هى مزيج شريف من عقله وفطنته وعاطفته .

فالآدمي كائن دائم الحركة فى داخله وفى خارجه يتطلع إلى معرفة أمور يراها هامة تشغله وتؤثر فيه وهى أمور قد تكون موجودة لا تتغير لكن رؤيته لها دائمة التغير ؛ وإن كان يتشبث بأنها رؤية ثابتة أبدية .. لأنه لا يقطن إلى أنه هو المتحرك ؛ وأنه هو الذى تتسع نظرتة نتيجة الحركة والخبرة مع الزمن . وتشبثنا بإمكان وصولنا إلى اليقين الذى ليس بعده يقين آخر فيما نظن أننا نعرفه ؛ ربما لا يزيد على كونه صورة من صور الانتهاء للنهايات فى اجتهد كل منا بحسب تقديره وفى ظروفه بعد أن بذل غاية وسعه وهو يريحنا حتماً من عناء مداومة البحث والاجتهد .. وتمسك أغلبنا بالمبادئ والعقائد هو من هذا القبيل : يقين نلوذ فيه إلى الراحة الممتدة وإعراض بإصرار عن مجهود لم نعد نرحب ببذله لانعدام حاجتنا لمكابدته ؛ ولكننا قد نستيقظ فجأة فنجد أننا محتوم علينا الدفاع عن تلك المبادئ والعقائد بكل رخيص وغالٍ لدينا !!

من تراب (٥٧٢) ماضيه وحاضره ومستقبله (*) الطريق (٢)

إلى الإصرار على ضرورة التمسك باليقين الذى لدينا على صورته الثابتة الباقية الصالحة لكل زمان ومكان يمكن أن يُعزى إبعاد وابتعاد رجال الدين من كافة الأديان عن حكومة الشعوب الآن ومن أكثر من ألف سنة سابقة فى أغلب العالم المتحضر .. إذ يستحيل أن تظل معالم الشعوب الحية وسننها وعاداتها وأخلاقها ومرافقها وأغراضها وغاياتها على حال واحدة صالحة لكل شعب فى كل زمان وكل مكان .. إلا إذا تجمد العالم وتخشب . ولذلك انحصر الآن دور رجال الدين أى دين فى إرشاد الشعوب المتحضرة إلى ما تحسنه الحكومات من عالم الأخلاق والروح والسهر على ألا يضيع هذا العالم فى غمرات السياسة والاقتصاد وعراك الطوائف والطبقات .

لكن لم تشغل المعرفة الوضعية نفسها بهذه الأسئلة التى ذكرناها فكسبت وخسرت .. كسبت من تكريس جهود أصحابها للوقوف على حقيقة ما هو موجود مما يمكن أن تقع عليه حواس مباشرة أو بطريق غير مباشر وإمكانات استخدام الآدمى إياه فى أغراضه التى تتسع باستمرار هذه المعرفة .. ففزنا بحشد هائل جداً من المعلومات الموثوق بها ، واستخدمناه فعلاً فى حشد هائل جداً من الأغراض بعد آلاف السنين من الجهل والعجز ؛ لكننا خسرنا التفاتنا الأساسى الذى كان يلازمنا فى الماضى المديد إلى أن الإنسان ليس

الإله وينتهى إذا سلّم بأنه إله . وإلى أنه إذا لم يكن إلهًا كما كان يرى نفسه طوال الماضي المديد فهو أقرب ما يكون من المخلوقات إلى الإله الموجود في أعماقه وفي الكون بأسره وقبل وجود الكون بأسره . فخسارة الإنسان لنفسه وصورته في عين نفسه ؛ وإحساسه بتميزه بما لا حد له عن سائر الكائنات الحية وغير الحية لا يعوضه أن يكون مجرد آلة للفهم موجودة على هذه الأرض التي ليست إلا ذرة أو هباءة في الكون العظيم !

ويبدو أن شعور الآدمي العميق الذي يكاد يكون فطرياً بتميزه على سائر الكائنات ؛ هو سر همته وتطلعه وطموحه ، ولا غنى عنه لتقدمه وتطوره .. وأن ضعف هذا الشعور وإهماله ونسيانه وراء التأخر والتدهور والانحطاط في كل صوره . ولعل ولع البشر بالأعجاب الفردية والجماعية يكون فورة من فورات شعورنا بذلك التميز العميق الذي لا ندرى هل هو موهبة واستعداد ؛ أم اكتفاء من خبرة وامتلاك ماعندنا .. هذا وليس ما يطوف ببالنا أحياناً غير قليلة من الشعور بقصور يكاد يكون عاماً في الحكام والقادة والزعماء والرؤساء والمهمين في عالم اليوم ليس هذا الشعور خيلاً مرجعه أننا بتنا أقرب إلى أولئك وإلى الإلمام بأحوالهم ونقائصهم وماضيهم وحاضرهم ممن سبقونا ؛ أو إلى أنهم باتوا أقل ابتعاداً وتكبراً وتعالياً وتعاضلاً من أمثالهم في الماضي ؛ أو إلى أننا وإياهم نعيش في مجتمعات تهاوت فيها الحدود والأسوار بين الطبقات ولم يعد للعائلات أو الثروات أن تنفرد بترشيح الأكابر والحاكمين ؛ أو إلى أن البشر الآن زاده عددهم عن الحد فازدحمت بهم الأرض وتاهت خيارهم في شرارهم وقادروهم في عاجزهم ومخلصوهم وأمنائهم في ضجة وكثرة الوصوليين المتلاعبين .. وربما كان المرجع أو الأصل لذلك الشعور العام بقصور من يحكمون ويقودون ويتأسون هو أن الآدمي عموماً قد تدهورت

قوة إحساسه بتميزه وتضاءلت ثقته في كفاياته وقدراته بسبب طول مصاحبته للآلات والأجهزة الهائلة والطاقات التي تزيد على طاقته ملايين المرات ، وبسبب مداومة لفت انتباهه إلى التطور وتقلب وتفوق المعرفة الوضعية التي تدين لها حضارتنا بكل شيء تقريباً مما يجري بيننا وحولنا من معالم وأنشطة حضارتنا .. هذه الحضارة التي نجحت في دفعنا إلى الاهتمام اهتماماً يكاد يكون طاغياً بالأشياء كأشياء ، ومنها أجسامنا ومكونات أجسامنا القابلة للملاحظة حواسنا مباشرة أو عن طريق آلة أو جهاز أو أداة أقوى أو أدق أو أبعد نفاذاً وغوراً أو أكثر تحملاً وانتظاماً وثباتاً من حواسنا .. فإنسان اليوم لا يكاد يرى أو يرقب أو يعامل أو يضافي أو يخاصم إلاً خارجه ، ولا يهتم ولا يفرح أو يحزن إلاً لخارجه .. وصلاته بداخله تكاد تكون كلها ردود أفعال لما يحدث في خارجه .. وهى ردود أفعال متفرقة في الغالب لا تجمعها نظرة كلية تسوق صاحبها إلى إمعان الفكر وتقليب الرأى فيما يأتيه أو يقابله من هذا الاستغراق الشديد أو الاندفاق في الاتجاه إلى خارجنا .. وهو ربما كان أكثر مما يلزم لاتزان وانتظام مسيرة التطور في حياتنا لأنه مثله عطل في الماضي وهو يعطل الآن انتفاع البشر بمزيتى الروية والتثبت اللازمتين للفطنة ، وهما أشد لزوماً للحكمة وسداد الرأى .

من تراب (٥٧٣) ماضيه وحاضره ومستقبله (*) الطريق (٢)

الواقع الآن واقع الإنسان وما حوله ينطوى على اندفاع واستعجال وقلة مبالاة وطيش ، وعلى ابتسار للأحكام والحلول . ولعل هذا يكون من الاحتمالات الملازمة لما مُنِحناه من حرية الإرادة والاختيار .. هذه الحرية التى قد تتعرض من جانبنا للمغالاة والتطرف ؛ ثم تردهما فداحة النتائج أو الكوارث للاعتدال ، وأحيانا كثيرة إلى المبالغة فى الانقباض والتوجس بل والتيسر . وحدوث هذه الاحتمالات فى أيامنا كما حدث فى الماضى أمر متوقع .. ولكن نجاة البشرية من عواقبه وعقابيله ليست متوقعة بنفس القدر .. لأن كثرتنا الهائلة وكثرة حمقانا وشواذنا وساخطينا وبائسينا وانتهازيينا وحاقدينا أكثر ؛ وفرصتهم أوسع بكثير جدًّا من أمثالهم فى الماضى القريب أو البعيد . ويبدو أننا نوع من الأحياء غالب فى أساسه المغامرة أو المقامرة .. وفيها الكسب كبير إذا تحقق ، والخسارة أكبر إذا ذلت .. وعنصر الولع القليل أو الكثير بالمغامرة أو المقامرة والحظ ؛ لا يفارق كبيرنا وصغيرنا وعالمنا وجاهلنا وعاقلنا وغيبنا .. نراه فى أحلامنا وخیالنا وآمالنا وفى مشروعاتنا وأزمة طاقتنا ومسابقاتنا واختياراتنا وفى جوائزنا وانتصاراتنا وأرباحنا وكسبنا وزيجاتنا ونجاتنا وعافيتنا وفى لهونا وجدنا .. ولا يكاد يوجد آدمى استغنى عن تمنى التوفيق أو النجاح لنفسه أو لولده أو لمن يسعى أو يقابل أو يفاض أو حتى يلعب من أجل بلده .

(*) المال ٢٠١٢/٣/١٥

ويبدو أن المغامرة والمقامرة والحظ من ظواهر الخيال وحرية الإرادة والاختيار التى ميدانها ونطاقها واقعنا وخيالنا معًا .. وهذه بدورها ظواهر لحركة الحياة التى ليست فى واقعها إلا حركة و طاقة . ونحن لكى نعيش أعمارنا نسعى ونجتهد دون أن نشعر فى إبطاء هذه الحركة بربطها فى نظرنا بما نتصور ونرجو أنه ثابت لا يتغير ويقينى لا موضع فيه للخيال أو الاحتمال .. ولذا نحن لا نكف ما عشنا عن تصغير الكبير لكى نراه ونركن إلى ثبات رؤيتنا إياه وتكبير الصغير لكى نراه ونركن إلى ثباته أيضًا فى رؤيتنا ونظرنا .. وننسى تمامًا دأبنا الدائم على التصغير والتكبير للتوفيق بين طبيعة وعينا وإمكاناته وبين الكون الذى نواقعه عادة بحواسنا .. وخلال هاتين العمليتين يُجرى خيالنا فى الصورة النهائية ما يشتهى من الحذف والإضافة والتعديل والتقويم دون أن نفقد عمومياتها التى يتعرف البشر عليها ؛ وهى عموميات بشرية فقط ؛ لا وزن لها لدى الكائنات الحية الأخرى .

ونحن لا نمثل فى نظرنا إلى الكون وما فيه لا نمثل إلا أنفسنا كبشر ؛ أو لا نستطيع حتى الآن أن نراه إلا بعيون البشر ، وعيوننا رأّت وترى الكثير والعظيم والعجيب ؛ وربما تشهد الأكثر والأعظم والأعجب قريباً أو بعيداً .. لكن ذلك قليل وصغير وهين جدًا بالنسبة إلى الكون الذى نحن اليوم فى بدايات معرفته معرفة بشرية موضوعية متعمقة قابلة باستمرار للتصحيح والتحسين بقدر ما يكون فى استطاعتنا من مثابرة وإصرار وأمانة ؛ وما يكون فى مقدور أجهزتنا وآلاتنا وأدواتنا من كفاية وتقدم .

فبشريتنا وإن كانت حدًا أو حدودًا إلا أنها حدود واسعة قابلة للتوسع والتقدم والتطور المتجدد والمتكرر بشهادة ماضيها وحاضرها وتاريخها

الواعى اليقظ المتحمس .. هذا التاريخ الذى بدأ حاليًا مع الكون ويبدأ من
وعى راق منضبط يخطو بخطوات أفضل بما لا يمكن أن يوصف من كل
تاريخها الواعى الماضى على هذه الأرض !!!

من تراب الطريق

غربة الإنسان بين الماضي والحاضر! (*) (١)

تنسى أجيالنا ، بعدم الانتباه والاعتیاد تنسى أننا الذين أقمنا ونقيم ما معنا من معرفة وعلم وفن ودين وأخلاق وحضارة .. وهذه قضية صحيحة ؛ يمكن أن يتبناها البشر في أى زمن مستقبل أو ماض .. لأن بدايات هذه الأمور تخالف نهاياتها التى معنا تخالفها فى أنها بدايات فردية صرف ، أما نهاياتها فجماعية مشتركة عامة بناها وشكلها ما لا حصر له من العقول والنفوس والأقوال والأفعال والأساليب والطرق والأعراف والظروف والأحوال والأمكنة والأزمات . وهذا فى الواقع الغالب هو سبب وصولها إلينا واعتناقنا لها ، ولكننا لا نحب ولا نرضى به ، بل نرد كل ما معنا الآن من ذلك نرده إلى بدايته الأولى الفردية الروحانية المتميزة بفرديتها وروحانيتها ، ونجتهد فى إقناع أنفسنا بوثاقة انتهائنا لتلك البدايات بتمجيدنا لها والإكثار من هذا التمجيد فى كل فرصة تتاح .. مع التسليم بأنها نماذج خاصة نادرة لا يمكن أن نحاكها .. وذلك التمجيد مفيد فى الإبقاء على الشعور بالانتماء إلى الدين ، والارتباط لحدّ ما بأهله .. ولكن ذلك قليل الجدوى فى تنمية الإخلاص والأمانة والاستقامة والالتزام بالفضائل والأخلاق بين الأفراد والجماعات ، وليس له مردود يذكر فى هذه الأمور . هذا وشيوع هذا التمجيد يُحمّل عادةً على أنه يخفف بطريقة ما من عواقب الخطايا والأوزار التى تُرتكب . وليس من الهين إقناع عامة الناس والكثير من خاصتهم بحساب

وتصور الاختلافات والفروق الضخمة التى بين المجتمعات الحالية ، وبين تلك المجتمعات الصغيرة البسيطة التى عاشت من قرون فى بدايات العقائد على الرعى أو الزراعة القديمة ، وليس من الهين إقناعهم باستحالة رد حياتهم الحالية إلى ذلك الماضى البعيد ، الذى لا نعرف عنه إلا مقولات متفرقة قد لا تتفق مدلولاتها عند الماضين مع مدلولاتها عندنا تماما .

وهكذا يستبقى البشر بقية من خيوط ماضيهم رغم وهنها وعدم قدرتها على مسaire حاضرم ومستقبلهم .. وكلما زادت الأيام فى إظهار ضعفها زادوا هم فى الاحتفاء بها والحرص على إظهار الاعتزاز بها ، برغم ضيقهم الذى لا يخفونه بامثالها واعتيادهم على عدم الإذعان لها !

وشتان ما بين قوة وحرارة المعانى والمشاعر المعاصرة لبدايات الديانات والحضارات ؛ وبين ضعفها وفطورها الآن .. لقد كانت إذ ذاك جديدة يافعة .. ديانة أفراد وأبطال .. فيها إعجاز وإقدام غير مألوفين .. ولم تتعرض بعد لخمول الكثرة وجفافها مـنـحنها ، ولا لطموح القلة وأطماعها وذكائها وبراعتها ، ولا أتيح المجال لدفع الناس إلى الاشتغال بالإشكالات والخلافات والمذاهب والنظر والجدل والمحسوس وغير المحسوس والوجود والعدم والمطلق والنسبى ثم بالواقع وغير الواقع والطبيعة وما وراء الطبيعة والوضعى والبشرية والمثالية . وبمضى الزمن ، ووهن المعتقدات ، فقدت الألفاظ والقواعد والسلوك والصواب والحق فقدت معناها الواحد المتفق عليه بين المتبع وبين أتباعه ، وبات الدين والنظام دين ونظام لجماعة واسعة يـكفيها للسـير فى حياتها اتفاق الأغلبية على الموافقة أو الرفض أو الرجوع عن الموافقة إلى الرفض أو عن الرفض إلى الموافقة .. لم يعد يكفى أن يقول قائل مهما كان من العقل والعلم والحكمة والأمانة إن هذا هو الدين أو النظام

أو الشرع أو الحق ، بل لا بد أن تقول ذلك أغلبية الناس المتعارف عليها في الجماعة ، أو أن يكون قائلها لديه من القوة المادية ما يستغنى به عن استرضاء الأغلبية لأن لديه القوة التي تسند كلمته وتحمل الجميع على الخوف من عصيانها . وما نراه الآن في جماعة أو أكثر من الجماعات الكبيرة من تسنم فئة معينة من رجال الدين لمقاعد الحكم والحكومة ليس أصله أو مصدره إجماع الجماعة على العودة للدين كما بدأ ، وإنما أصله ومصدره نجاح قلة من رجال الدين في الحصول على تأييد من أغلبية الشعب مكنتهم من الحكم والحكومة في الظروف غير العادية التي تم فيها ذلك .

من تراب الطريق

غربة الإنسان بين الماضي والحاضر! (*) (٢)

يبدو أن من نواميس الكون ، أن كل مركب ينحل ويذوب فيما حوله مما هو أبسط منه في أمد ما ، وأن هذا يصدق على الماديات والمعنويات والأحياء وغير الأحياء ، وعلى هذه الأرض وعلى غيرها .. كما أن فردية الأفراد من الكائنات بخصائصها ، سواء المشتركة وغير المشتركة ، تتآكل وتذوب وتنحل بين أمثالها وفي محيطها .. ونحن كأفراد نخضع لتلك النواميس .. والفروض التي نفترضها أيا كانت وكانت قيمتها أو منزلتها أو مكانتها أو سلطانها تذوب وتنحل بعد أن تتآكل ويتوزع منها بإرادتنا وبغير إرادتنا بعض ما جمعت إنسانيتنا فيه أو ما اجتهدنا أو اكتسبنا أو اقترفنا أو بنينا أو أنجبنا أو تعلمنا أو فكرنا أو رأينا تتوزع في الجماعة توزيعاً معظمه لا إرادى وغير قابل للتعقيب وغير مضمون السلامة والصحة ، نظراً لسعة المحيط مع بساطته النسبية التي لا تفارقه .

فغربتنا ليست موجودة لتبقى دائماً بعد أن نفارق الحياة بالمعنى البشرى .. وإنما الذى يبقى هو تذكر بعض الآخرين من الأحياء لها ، أو تذكر الجماعة لاسمها ولشئ مما يُعزى إليها حقاً أو غير حق .. وهذا أيضاً عرضة للنسيان والزوال مع الزمن واختلاف الأجيال والأحوال .

وقد تحفظ الكتب والمأثورات والأعمال العلمية والإنسانية والأدبية والدينية والعمرانية تحفظ معالم وبقايا من الماضين الغارين يجد فيها الأحياء

الحاليون ما يثير أو يلد أو يستعاد مع الإشادة به .. وهذا فى حقيقة من أعمال الأحياء الحاليين الذين اشتغلوا به والتفتوا إليه ، تناولوا به أثراً لقديم ماض كان ولم يعد له وجود ، ولا يمكن أن تبعث حياة صاحبه لا جزئياً ولا كلياً ، وإنما تستثار بذكره والحديث عنه وتمجيد ما قاله أو فعله ليدخل فى حياة الأحياء ولكن كأثر للغابرين .. وهكذا يسقط من وعى الباقين وذاكرتهم آلاف وملايين الأفعال والتصورات التى امتلأت بها حياة الأفراد الماضين والغابرين ، ولم يتبق لنا منها إلا أقل القليل بأمل غامض فى إفادة الأحياء .. وقد انتفع البشر بالفعل مع سعة تلك العشوائية وذلك الغموض والشطط والغلط انتفعوا بها انتقل إليهم فى الوصول إلى الترقى أو التطور الذى بلغوه الآن .. هذا الترقى الذى جاوز كل تصور وحاز فى البلاد المتقدمة منذ الحرب العالمية الثانية ثقة تكاد تكون تامة من دوائر الحكم والمال والأعمال ، كما قفزت على يديه التكنولوجيا الحديثة قفزات مذهلة لم تخطر من قبل على بال ، وأشرفت البشرية جمعاء بسببه على أبواب عالم هائل لا حدود لإمكاناته المبنية على المعارف الوضعية وتطبيقاتها . وقد اتسعت من جراء ذلك المسافة أو الهوة التى لا آخر ولا قرار لها بين خارج الآدمى وداخله ، وبين ضخامة وقوة وإعجاز ما بين يديه وحوله ، وبين شعوره بضآلته وحاجته وضرورة اعتماده على غيره كفرد لا حول له ولا طول . هذا الشعور العميق الغائر الأبكم بالتحطيم الداخلى هو مشكلتنا جميعاً وسيظل مشكلتنا إلى أن نعثر لها على حل .

ونحن اليوم نتحرك ونفكر ونعمل ونلهو ونخاف ونطمع ثم نموت ناظرين أثناء ذلك وطول الوقت إلى خارجنا كالمنوم أو كالنائم الذى يمشى ويتنقل ويأخذ ويعطى خلال تنويمه أو نومه بلا إرادة حرة ولا اختيار

حقيقى وبلا ثقة فى وجود شىء ثمين عظيم فينا يدفعنا إلى إثباته للملأ من حولنا ، ويعطى لوجود الفرد منا قيمة لا يعدها شىء آخر .. إذ لسنأ نملاً أو نحلاً ، ولسنا سرباً ولا قطيعاً . لا يوجد الآن بيننا عبيد ولا يوجد بيننا سادة فى داخلهم ودخلنا .. والفارق بيننا وبين العبيد فى عصور الاستعباد ، أننا دون أن نشعر منا أحد قد فقدنا تماماً إحساسنا بالسيادة على مصائرنأ .. هذا الإحساس الذى كان يميز فى تلك العصور السادة عن العبيد .. وهو ضرب من التآله والمغالاة فى قيمة الذات فى مواجهة الوجود والكون لم يعد له اليوم نظير .. إذ كبرت العقول وصغرت النفوس إلى حد لم يسبق له مثيل .. ربأ لا اختلال التوازن اختلالاً شديداً بين عمق داخلنا وطغيان خارجنا !!

وخارجنا الذى يعيش فيه عالمنا الآن وإلى مستقبل غير قصير بناءً ضخماً جداً غير متكامل ولا متساند .. فيه عشوائية واضحة برغم علومه وفنونه الهائلة القيمة والأثر .. غير مترابط بنواميس كونية ولا تربطه روابط عقلية متينة سائدة بين أغلبية البشر ، ولا يجمعه إيمان به من عامة الآدميين سطحي أو عميق .. وهذا فى ذاته مقلق لكل من يفتن إليه من خلال الحركة والصخب والضجيج والمهرج والمرج والتهريج الذى يكاد يكون ملازماً لحياة الآدميين اليومية .

من تراب الطريق

غربة الإنسان بين الماضي والحاضر! (*) (٣)

كيف يتماسك هذا البناء الضخم الذى يعيش فيه عالمنا ، بحيث يشعر أغلب البشر بعظمته ومبناه ، ويستعيدون ثقتهم فى أنفسهم داخله ، وينطلقون بقدر من الأمان والأمل والحماس إلى إتمام المسيرة الجديدة الممعة فى التقدم والشمول التى خطوا بالفعل خطواتهم الأولى فيها ؟ هذا السؤال البالغ الخطر مطروح علينا جميعاً فى كل لحظة ومنذ أمد ، ونكاد لا نلتفت بتأتاً إليه .. لأننا نحيا فيها يشبه غيبوبة عامة شاملة. لا بد أن تشملنا لسنوات قادمة نتيجة ما نحن فيه من سنوات .. إذ نواجه مفاجآت وانهيارات وأزمات واندفاعات وإفلاس مبادئ ومصداقات تقاسمناها واختلفنا عليها .. ثم ها نحن نتقاسم خيبتها وخسائرها فى أنفسنا وأولادنا ومساعدنا وأحوالنا ونظمنا ومستقبلنا . وفى هذا الخضم العكر الثائر الغائر لا يكاد الآدمى العادى يعثر على عقله الذى تاه منه .. فهو يعيش يومه فقط إن استطاع ، ولا يجد ما يدعوه لأن يستجمع قواه ليتطلع إلى غده .

صار بيننا وبين آبائنا خط تعميم واسع مروع .. يفصل أو يكاد بين عالمين بشريين مختلفين فى كل شىء .. فى القامة واللغة والحركات والمشارب والعادات والأمزجة والأذواق والأطعمة والمساكن والمدن والقرى والمقابر والمعابد ووسائل النقل والاتصال والطرق وأوقات الراحة وأنواع الجد واللهو ومعالم الاستقامة ومعنى القرابة والصداقة والمحبة ، وكيفية الفهم

والتفكير ، وترتيب القيم المعترف بها وغير المعترف ، وقياس السرعة والبطء والقرب والبعد وحساب الزمن والنجاح والفشل والتميز بين الجائز والممنوع وبين الحلال والحرام .. وقبل ذلك وفوقه عددنا الهائل المخيف الذى لم يسبق له مثيل على هذه الأرض !

فعلما هذا الجديد جدة غزيرة ؛ الذى انفصل عن عالم آباءه انفصالا يكاد أن يكون تاماً ، لم يؤهل بعد فيما يبدو بسبب ما فيه من سيولة شديدة وقلة استقرار لم يؤهل لأن يفكر فى التخطيط والتبصر للمستقبل الذى ينتظره بها معه من معارف وتقنيات غزيرة واعدة فتحت أمامه فرص الامتراج بالكون الواسع العظيم ، والاجتهاد فى انتقاء المبادئ والوسائل لإحكام اتصال حاضره بمستقبله المأمول .. وربما احتاج هذا إلى سنين يعلم الله وحده ، ما الذى قد يحدثه فيها القلق وعدم التماسك والانتهازية والرعونة .. وهذه لا نزع منها نوازل طارئة أو غريبة أو نادرة فى دنيا الآدميين لم يعرفها ماضيهم ، ولكنها تؤذيهم كما تؤذيهم الأمراض البدنية والأوبئة ، وهى مع ذلك لا تجتثهم ولا تقضى عليهم .. ويبدو أنهم مازالوا على قدر من الحصانة من الانقراض !

لم يعد الآدمى العادى يطمئن إلى خبراته وخبرات أمثاله ؛ أو يثق فى أنها محك الصدق والواقع لقراراته واجتهاده وآرائه وأفكاره كما كان يفعل آبائهم ؛ بل بات فى قبضة الصحف والإذاعات ووكالات الدعاية والإعلان يتبع ويردد عنهما ما تريد يوماً بيوم ، وزاد ذلك فى وهن داخله وتخلخله واعتياده على عدم الثقة فى فطنته ؛ وعلى خفة وكثرة قراراته وتطلعاته وشدة ميلها إلى التغيير والتبديل بلا انزعاج أو مبالاة .. وصرنا رجالاً ونساء نتكل فى أمورنا كلها خاصة وعامة نتكل على جهات اختصاص نظنها لا تجمع إلا عارفين

متخصصين يكفوننا المعرفة والخبرة بالصواب والأمثل والنافع والمجدى ،
ولا نلتفت إلى أنها جهات كسب وريح أولاً وأخيراً تخدم عملاءها وتتصيدهم
ليوسع كسبها وربحها .. ومن هنا كنا أكثر إسرافاً وأسرع تبذيراً وأشدّ ولعاً
بمحاكاة الآخرين فى الإنفاق .. ليستوى فى ذلك موسرنا ومعرنا ، وأهل
الحضر وأهل الريف ، وامتألت المتاجر والملاهى والمصايف والمشاتى ،
وغصت وسائل النقل ومكاتب السياحة الداخلية والخارجية ؛ كما غصت
الشوارع والطرق نهاراً وليلاً ..

فاندفاع الجماعات البشرية الشديدة على هذا النحو السائد العام ؛ من
الاستهلاك والشبق إلى الاستمتاع العاجل الخالى من الرزانة والتريث ، يمثل
تمثيلاً قوياً إندفاع إنسان هذا الزمان نحو خارجه ، واهتمامه الملىء بالطيش
والعجلة بالتلذذ بالأمور الخارجية وبالتفاخر والتباهى بها وليس بمعرفة
واقعها وواقع صلاتها بحياته المادية وغير المادية . حال أن هذه المعرفة
واستمرار تنميتها وتقويتها ؛ هى جوهر اتصال آدمى العاقل بخارجه
وأمنه واستمرار وجوده على هذه الأرض . وهذه المعرفة هى سبب وصوله
إلى ما وصل إليه من التقدم والتطور . فهل تلتفت البشرية إلى هذه المخاطر
التي تحدق بها ؟!

كتب وإصدارات أ. رجائي عطيه

- (١) أوراق المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ١٩٩٧ .
- (٢) من هدى النبوة وفى مدرسة الرسول المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ١٩٩٧ .
- (٣) من هدى القرآن وذلك الكتاب لاريب فيه المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ١٩٩٨ .
- (٤) بشاير المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠٠ .
- (٥) باسمك اللهم المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠٠ .
- (٦) بسم الله المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠٠ .
- (٧) نواب القروض المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠١ .
- (٨) يارب المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠١ .
- (٩) قضية النقبائين المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠١ .
- (١٠) أبو ذر الغفارى روز اليوسف ، هيئة الكتاب ٢٠٠٢ ، ٢٠٠٥ .
- (١١) قضية الجمارك الكبرى المركز المصرى للأبحاث والإعلام ط ٢٠٠٢ .
- (١٢) مواقف ومشاهد إسلامية دار الهلال ط ٢٠٠٢ .
- (١٣) ماذا أقول لكم دار الشروق ط أولى ٢٠٠٣ .
- (١٤) عالمية الإسلام مركز الأهرام للترجمة والنشر ط ١ ، ٢ ٢٠٠٣ .
- (١٥) إبحار فى هموم الوطن والحياة دار الشروق ط ٢٠٠٤ .
- (١٦) الإنسان العاقل وزاده الخيال دار الشروق ط ٢٠٠٤ .

- (١٧) السيرة النبوية في رحاب التنزيل المجلد الأول روز اليوسف ط ٢٠٠٣ .
- (١٨) السيرة النبوية في رحاب التنزيل المجلد الثاني روز اليوسف ط ٢٠٠٣ .
- (١٩) السيرة النبوية في رحاب التنزيل المجلد الثالث روز اليوسف ط ٢٠٠٤ .
- (٢٠) السيرة النبوية في رحاب التنزيل المجلد الرابع روز اليوسف ط ٢٠٠٥ .
- (٢١) السيرة النبوية في رحاب التنزيل المجلد الخامس المكتب المصرى الحديث ط ٢٠٠٦ .
- (٢٢) الإنسان والكون والحياة كتاب الهلال أكتوبر ٢٠٠٥ .
- (٢٣) تأملات غائرة دار الشروق ط ٢٠٠٦ .
- (٢٤) الأديان والزمن والناس كتاب الهلال سبتمبر ٢٠٠٦
- (٢٥) شجون وطنية المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٦ .
- (٢٦) الهجرة إلى الوطن كتاب الهلال نوفمبر ٢٠٠٧ .
- (٢٧) رسالة المحاماة دار الشروق سبتمبر ٢٠٠٨ .
- (٢٨) في الوحدة والجماعة الوطنية المكتب المصرى الحديث سبتمبر ٢٠٠٨
- (٢٩) في رياض الفكر كتاب الهلال ٢٠٠٨ .
- (٣٠) بين شجون الوطن وعطر الأحباب المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨ .
- (٣١) من تراب الطريق الكتاب الأول المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٨ .
- (٣٢) من حصاد المحاماة المجلد الأول المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩
- (٣٣) من حصاد المحاماة المجلد الثاني المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩
- (٣٤) من حصاد المحاماة المجلد الثالث المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩
- (٣٥) من حصاد المحاماة المجلد الرابع المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩
- (٣٦) من حصاد المحاماة المجلد الخامس المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩

- (٣٧) من حصائد المحاماة المجلد السادس المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩
- (٣٨) من حصائد المحاماة المجلد السابع المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩
- (٣٩) من حصائد المحاماة المجلد الثامن المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩
- (٤٠) من حصائد المحاماة المجلد التاسع المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩
- (٤١) من حصائد المحاماة المجلد العاشر المكتب المصرى الحديث . ٢٠٠٩
- (٤٢) من حصائد المحاماة المجلد الحادى عشر- المكتب المصرى الحديث .

٢٠١٠

- (٤٣) من حصائد المحاماة المجلد الثانى عشر المكتب المصرى الحديث .

٢٠١٠

- (٤٤) من حصائد المحاماة المجلد الثالث عشر المكتب المصرى الحديث .

٢٠١١

- (٤٥) من حصائد المحاماة المجلد الرابع عشر المكتب المصرى الحديث .

٢٠١١

- (٤٦) من حصائد المحاماة المجلد الخامس عشر المكتب المصرى الحديث .

تحت الطبع

- (٤٧) دولة الأيام ! كتاب الهلال أول يونيو ٢٠٠٩

- (٤٨) قد تكون الديانة تجسيدا للعقل . ترجمة وعرض عن كتاب حياة العقل

لفيلسوف جورج سانتايانا كتاب الهلال نوفمبر ٢٠٠٩

- (٤٩) الأمن والأمان : قراءة فى الأمن المجتمعى فى الإسلام المكتب المصرى

الحديث ٢٠٠٩

- (٥٠) من تراب الطريق الكتاب الثانى المكتب المصرى الحديث ٢٠٠٩

- (٥١) من تراب الطريق الكتاب الثالث المكتب المصرى الحديث ٢٠١٠
- (٥٢) من تراب الطريق الكتاب الرابع المكتب المصرى الحديث ٢٠١٠
- (٥٣) من تراب الطريق الكتاب الخامس المكتب المصرى الحديث ٢٠١٢
- (٥٤) فى دروب الفكر والحياة . مطبوعات الهلال نوفمبر ٢٠١٠
- (٥٥) من همس المناجاة وحديث الخاطر (١) . المكتب المصرى الحديث
نوفمبر ٢٠١٠
- (٥٦) من همس المناجاة وحديث الخاطر (٢) . المكتب المصرى الحديث
ابريل ٢٠١٢
- (٥٧) الواقع أو الحقيقة ترجمة عن كتاب طبيعة العالم المادى للسير آرثر
إدينجتون ومقالات أخرى للمترجم كتاب الهلال ديسمبر ٢٠١٠ .
- (٥٨) من وحي الحج سلسلة دراسات اسلامية المجلس الأعلى للشئون
الإسلامية يناير ٢٠١١
- (٥٩) فى صحبة محمد عبد الله محمد . المكتب المصرى الحديث ٢٠١١
- (٦٠) كتابات غريبة . كتاب الهلال أغسطس ٢٠١١
- (٦١) عبقرية إنكار الذات أبو عبيدة بن الجراح تحت الطبع

الفهرس

الموضوع	الصفحة
(٤٨٧) بين الثعالب والكلاب !	٥
(٤٨٨) صناعة الأزمت !	٨
(٤٨٩) صناعة الاحتقان !	١٢
(٤٩٠) بيع الذات !	١٦
(٤٩١) ما بعد حرق الزرع جيرة !!	٢٠
(٤٩٢) صناعة القبح !	٢٤
(٤٩٣) فى بلاط الأسد ! (١)	٢٨
(٤٩٤) فى بلاط الأسد ! (٢)	٣٢
(٤٩٥) مثل الرجل والمرأتين !	٣٦
(٤٩٦) غياب الوعى أم فقدان الإحساس ؟!	٤٠
(٤٩٧) ماذا جرى لنا !	٤٤
(٤٩٨) أهل مكة أدرى بشعابها !	٤٩
(٤٩٩) التقدم للخلف أو للوراء !!	٥٣
(٥٠٠) قيم الثورات (١)	٥٨
(٥٠١) قيم الثورات (٢)	٦٢
(٥٠٢) قيم الثورات (٣)	٦٦
(٥٠٣) قيم الثورات (٤)	٦٩
(٥٠٤) قيم الثورات (٥)	٧٢
(٥٠٥) قيم الثورات (٦)	٧٥
(٥٠٦) قيم الثورات (٧)	٧٩
(٥٠٧) قيم الثورات ! (٨)	٨٣
(٥٠٨) قيم الثورات ! (٩)	٨٧
(٥٠٩) قيم الثورات ! (١٠)	٩١

٥١٠	قيم الثورات ! (١١).....	٩٥
٥١١	قيم الثورات ! (١٢).....	٩٩
٥١٢	قياس مع الفارق.....	١٠٣
٥١٣	هل التفتنا إلى سوق النخاسة ؟!.....	١٠٧
٥١٤	الخطوط الحمراء.....	١١٠
٥١٥	كبرة جواد !.....	١١٤
٥١٦	عقلية الجماعة بين التراجع والجمود والتطور (١).....	١١٨
٥١٧	عقلية الجماعة بين التراجع والجمود والتطور (٢).....	١٢٢
٥١٨	عقلية الجماعة بين التراجع والجمود والتطور.....	١٢٦
٥١٩	عقلية الجماعة بين التراجع والجمود والتطور (٤).....	١٣٠
٥٢٠	عقلية الجماعة بين التراجع والجمود والتطور (٥).....	١٣٤
٥٢١	ماذا نعرف عن الكون الهائل العظيم (١).....	١٣٧
٥٢٢	ماذا نعرف عن الكون الهائل العظيم (٢).....	١٤١
٥٢٣	رابطة العقائد (١).....	١٤٤
٥٢٤	رابطة العقائد (٢).....	١٤٧
٥٢٥	رابطة العقائد (٣).....	١٥٠
٥٢٦	رابطة العقائد (٤).....	١٥٣
٥٢٧	ملكة الخيال (١).....	١٥٦
٥٢٨	ملكة الخيال (٢).....	١٥٩
٥٢٩	ملكة الخيال (٣).....	١٦٢
٥٣٠	ملكة الخيال (٤).....	١٦٦
٥٣١	ملكة الخيال (٥).....	١٧٠
٥٣٢	كيف يتراكم الفقر والتعاسة ؟ (١).....	١٧٤
٥٣٣	كيف يتراكم الفقر والتعاسة ؟ (٢).....	١٧٨
٥٣٤	كيف يتراكم الفقر والتعاسة ؟ (٣).....	١٨١

١٨٤.....	كيف يتراكم الفقر والتعاسة ؟ (٤)
١٨٧	ماذا يتعاقب على وعينا؟! (١)
١٩٠	ماذا يتعاقب على وعينا؟! (٢)
١٩٣	ماذا يتعاقب على وعينا؟! (٣)
١٩٦	تداول العقائد والأعمال في تشكيل القواعد والأصول! (١)
١٩٩	تداول العقائد والأعمال في تشكيل القواعد والأصول! (٢)
٢٠٢	تداول العقائد والأعمال في تشكيل القواعد والأصول! (٣)
٢٠٥	الأفكار والرغبات بين القرارات والعزوم والاختيارات! (١)
٢٠٨	الأفكار والرغبات بين القرارات والعزوم والاختيارات! (٢)
٢١١	الأفكار والرغبات بين القرارات والعزوم والاختيارات! (٣)
٢١٥	ماهية الزمن (١)
٢١٩	ماهية الزمن (٢)
٢٢٣	التأمل ليس صناعة عموم البشر (١)
٢٢٦	التأمل ليس صناعة عموم البشر (٢)
٢٢٩	التأمل ليس صناعة عموم البشر (٣)
٢٣٢	الذاكرة في حياة الناس (١)
٢٣٥	الذاكرة في حياة الناس (٢)
٢٣٨	الذاكرة في حياة الناس (٣)
٢٤١	الاستعداد للمحبة بين الظهور والاختفاء (١)
٢٤٤	الاستعداد للمحبة بين الظهور والاختفاء (٢)
٢٤٧	الاستعداد للمحبة بين الظهور والاختفاء (٣)
٢٥٠	الاستعداد للمحبة بين الظهور والاختفاء (٤)
٢٥٣	الاستعداد للمحبة بين الظهور والاختفاء (٥)
٢٥٦	الضمير ومراقبة الداخل (١)
٢٥٩	الضمير ومراقبة الداخل (٢)

.....(٣) الضمير ومراقبة الداخل (٥٦٠)	٢٦٢
.....(١) مدارج الآدمي بين النضج والعاطفة والعقل والخيال (٥٦١)	٢٦٥
.....(٢) مدارج الآدمي بين النضج والعاطفة والعقل والخيال (٥٦٢)	٢٦٩
.....(٣) مدارج الآدمي بين النضج والعاطفة والعقل والخيال (٥٦٣)	٢٧٣
.....(١) الذات بين الأنا والآخرين (٥٦٤)	٢٧٧
.....(٢) الذات بين الأنا والآخرين (٥٦٥)	٢٨٠
.....(٣) الذات بين الأنا والآخرين (٥٦٦)	٢٨٣
.....(١) الآدمي بين العناد والأنانية والإيلاف (٥٦٧)	٢٨٦
.....(٢) الآدمي بين العناد والأنانية والإيلاف (٥٦٨)	٢٨٨
.....(٣) الآدمي بين العناد والأنانية والإيلاف (٥٦٩)	٢٩١
.....(١) نحن والحُبُّ في الكون! (٥٧٠)	٢٩٣
.....(٢) نحن والحُبُّ في الكون! (٥٧١)	٢٩٦
.....(٣) نحن والحُبُّ في الكون! (٥٧٢)	٢٩٩
.....(١) الإنسان ماضيه وحاضره ومستقبله (٥٧٣)	٣٠٣
.....(٢) الإنسان ماضيه وحاضره ومستقبله (٥٧٤)	٣٠٦
.....(٣) الإنسان ماضيه وحاضره ومستقبله (٥٧٥)	٣٠٩
.....(١) غربة الإنسان بين الماضي والحاضر! (٥٧٦)	٣١٢
.....(٢) غربة الإنسان بين الماضي والحاضر! (٥٧٧)	٣١٥
.....(٣) غربة الإنسان بين الماضي والحاضر! (٥٧٨)	٣١٨
.....رجائي عطيه	٣٢١
.....الفهرس	٣٢٥

رقم الإيداع

٢٠١٢ / ٩٣١٣

لترقيم الدولي 977-209-227-1 L.S.B.N.